

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الزيتون



رجب ٩٢٢ هـ

أغسطس إلى سبتمبر ١٥١٧ م
(مقتطف "٢" من مشاهدات الرحالة
البندقي في اسكوتشي جانتى، الذى زار
القاهرة أكثر من مرة فى القرن السادس
عشر الميلادى أثناء طوافه بالعالم ..
تسجل هذه المشاهدات أحوال القاهرة ..
خلال شهر أغسطس ١٥١٧ ميلادى ،
الموافق رجب ٩٢٢ هـ

تضطرب أحوال الديار المصرية هذه الأيام . وجه القاهرة غريب
عنى . ليس ما عرفته فى رحلاتى السابقة . أحداث الناس تغيرت .
أعرف لغة البلاد ولهجاتها . أرى وجه المدينة مريضا يوشك على
البكاء . امرأة مذعورة تخشى اغتصابها لخر الليل . حتى السماء
نحيلة زرقاء . صفوها به كدر . مغطاة بضباب قادم من بلاد
بعيدة . اذكر قرى الهند الصغيرة إذ يتركها الوباء . ينقل هواؤها
بالرطوبة . الليلة . تنتظر البيوت امرا قد يأتى غدا أو بعد غد . اصغى إلى وقع
حوافر تصطدم بحجارة الطريق . تبعد . تنأى . أطل من مشربية البيت محاذرا
أن يرانى أحد . اطل والظلام يلف البيوت . لا أرى مئذنة جامع السلطان الغورى
الجديد . لم تمض سنوات على بقلته . لم أراه عندما جئت هنا اخر مرة قبل رحيلى
الطويل إلى الشرق . سمعت باستعدادات تجرى لبنائه . تشييد القبة الضخمة
المواجهة له . اطل براسى قليلا . أخاف انقلاق الظلام عن وجوه درك قساة القلوب .
إذ يجدوننى الفرنجيا . يدفعون بى إلى الفتور بلا محطمة . لا استجواب . لا سؤال .
من أنا . من أين جئت !! إن فتاح الفرصة لأخبرهم . إننى أعرف التوالى
الأمير : كرتباى . معرفة شخصية . بل اننى اصفيت مرثين إلى متولى حصة
القاهرة . الزينى بركات بن موسى . إنه صاحب مناصب عديدة أيضا . ومسئول عن
حفظ الأمن والنظام . لو رأتى فسيتذكرنى . أعرف أنه لا ينسى . وجها علبرا رآه مرة
واحدة . حتى لو مضى على رؤيته لصاحبه عشرة أعوام . على أية حال سابقى
الليلة . بالتأكيد لن أنجو من العسس . المنسر . المعاليك . بيوت المدينة كلها
مغلقة . مرعوشة تود لو توارت . تهلفو إلى الأمان المرجو . شموع بيتى مغطاة .
أخشى تراقص الضوء فى أحداق العيون المتلصصة . قبيل العصر مشيت من
الحسينية . فى صدرى نفس الحنين الذى يجيئنى كلما نزلت بلدا . كلما عدت إلى

مدينته زرتها من قبل ، القضي أيضا قبل اتصالي بمعارفي من أهلها ، اجوبها من اعلى
إلى اسفل ، اسعى وراء اخبار من اعرافهم ، ارلى الذين ذهبوا ، ارى اليوم الذى فارق
فيه الواحد منهم دنيئا ، اسأل نفسي ، اين كنت عندئذ ؟ فى اى مدينة ؟ الى
البعض صدقة ، الفتح لراعى على عدة اهل البلاد ، اقبل كتفه ويقبل كتفى ، اتراجع
لاتامله ، اعود لاحضنه من جديد ، اذكر انه لم يتغير إن كان متقدما فى السن ،
إن الصحة تطل من عينيه ، يغمرهم بحمد الله ويشكره ، يحلف ليماذا مغلظة ليصحبني
إلى داره فامضى ، تجلس فى غرفة الضيافة ، تفتح نوافذها المزخرفة على حديقة
صغيرة بها ريحان وفل ، تتوسطها نافورة صغيرة ارضيتها مرصعة بالرخام الملون
الجميل ، لا تطلق النافورة مياهها إلا عند مجيء ضيف ، لكن اليوم طل تجوالى ،
لم ألق واحدا من اصحابى القدامى ، ربما تغيروا ، سمعت من الحلة ان كثيرا من
اعيان الناس ، والمشيخ ، نقلوا الثمين الخلقى من ثيابهم وحوادثهم إلى الامكن
البعيدة المجهولة ، رحلوا عيالهم إلى الأرياف ، هجروا بيوتهم وسكنوا العزارات
وفسالى الموتى ، سمعت بكثرة الإشاعات ، كل إنسان يقول ما يحلو له ، أى شخص
يدخل فيما يعنيه وما لا يعنيه ، وطلب البعض بضرورة تدخل الأمير طومانيان نقيب
الغيبية لإسكات الأمسة ، قل البعض هذا مستحيل فلنقطع^{١١} لاخبر معناه ان حدثا
ففتيما لا تجرى على التفكير فيه وقع ، صاح البعض ، وهل يقع فعلا ما لا تجرى على
الظن به ؟ لايمكن ، جيش السلطان من فرسان الإسلام وحملته ، كل فارس منهم مقيم
بالف من العثمانية وكما غلبهم الأشرف قايتباي فلابد من هزيمتهم على يد الغورى ،
يقول آخر ، إذا صح هذا فلماذا لم تصل رائحة من الأخبار المفروجة ، لم تنق
البشائر ، ولا الطبلخانة ، كيف تصدق ان شيئا لم يقع ، لم يحدث ، حتى الأمور هنا
مضطربة ، فى المقهى عدل رجل وضع عمالته ، سأل ، هل رأى احدكم الزينى بركات
بن موسى منذ اول امس ؟ نزل صمت معيق بحر ، اسندت وعاء الفخار السلخن ،
لم تشرب إلا رشفة من الحلية ، ما الذى جرى للزينى بركات بن موسى ؟ إذا لم يجر ،
فاى إشاعات تتريد حوله ؟ نظر إلى صاحب السؤال ، خمنت انه ربما يعمل فى خدمة
جامع ، يتلجر فى الكتب القديمة ، ربما طلب يدرس العلم فى الأزهر ، لهجته ،
لسلوبه ، يوحيان بعمته من هذه ، كلما رايت رجلا لا اعرفه ، اسأل نفسي ، أى مهنة
يعمل ؟ فى أى مكان أقام ؟ الصين ، الهند ، أو صحارى الحجاز ، طل سكوته ، قل
أحد الحضور ، فعلا لم يجر منذ ثلاثة أيام ، قل آخر ، بل خمسة ، كل منهم يقطب
جبهته ، يحاول التفكير ، حتى أننا قلت لنفسي ، لعمرا لم أر الزينى خلال الأيام التى
قضيتها هنا ، الزينى يراء أهل القاهرة يوميا ، ولو مرة واحدة ، تلق الطبلخانة
امامه ، يمشى السعادة فى ركابه ، الزينى دائم التفتيش على أسعار البضائع ، يتعجب
لو كثر الفساد ، عشى الناس فى الطرقات ، له قواعد لابد من مراعاتها ، الالتزام بها ،

لحياتها يمنع النساء من ارتداء أزياء معينة ، ربما منعهن من الخروج إلى الطرقات لتزاييد عبث المعاليك في بعض الفترات . آخر زيارتي لعصر ، رأيت الزيني بركات قويا عليا ، لا أدري كيف صارت به الحال ؟ ثلاث سنوات تغير الإنسان حالا . رأيت الزيني ينزل بنفسه ، يتناقص باعة الحلوى ، والأجبان ، والبيض ، يلف وقتا طويلا مع الفلاحات بائعات الدجاج والأوز والأرانب والبط ، يسهر الاصناف بنفسه ، يجرس المخالفين في المدينة ، أعرف رضاه الناس عنه ، حبهم له ، أنكر ما كتبت عنه بعد لقائي الأول به . رأيت رجلا كثيرين ، بريرا وهنودا وإيطاليين وحكاما من بلاد الغال والحبيشة والقصي شمال الدنيا ، لكنني لم أر مثل بريق عينيهِ ، لمعانها ، خلال الحديث تشيقن ، حدقتي قط في سواد ليلي ، عيناه خلقتا لتتفاد في ضباب البلاد الشمالية ، في ظلامها ، عبر صمتها المطبق ، لا يرى الوجه والعلامح . إنما ينلذ إلى قاع الجمجمة ، إلى ضلوع الصدر ، يكتشف المخبا من الآمال ، حقيقة المشاعر ، في يلامحه نكاح براق ، إغماضة عينيه فيها رقة وطيبة تدنى الروح منه ، في نفس الوقت تبحث الرهبة ، سألني عن بلاد رحلت إليها ، كيف ألفت فيها ؟ كيف تعاملت مع أهلها ؟ حرية النساء في بلاد الفرنجة ؟ استلكر عن العدل في الرعية ، وطرق البريد في الهند ، وذكر أسماء مشايخ في جدة ومكة ، وأعيان من دمشق . قلت أنتي لم لأذهب إلى جدة لكنني زرت مكة ، وألفت في دمشق ، كتب لي أسماء وعدته بالسؤال عن أصحابها ، وقتها سمعت حادثة طريفة فصل فيها الزيني بنفسه ، حدث أن أرسلت جارية رومية بيضاء إليه تستغيث به ، قيل أنها لم تتجاوز الخامسة عشرة ، اشتراها من سوق الجوارى رجل كبير السن ، يعمل في استقطار ماء الورد ، ضخم الجثة ، ثهم ، كثير الأكل ، كثير النكاح ، ومنذ شرائه الجارية الرومية البكر الحسنة ، تفرغ لها تماما ، هجر معمله ، لم يعد يخرج من بيته ، لا يمشي إلى الصلاة ، بل ياتئها كلبن العشرين في أوقات متعددة ومختلفة من النهار ومن الليل ، حتى زعموا - وأقننه تشنيع من العامة - أن صواتها يعلو خارج البيت ، فيسمعه العارة بوضوح ، يبدأ هذا ، يسمع جرى أقدام ، يسود صمت لا يستمر كثيرا حتى يعود بعد قليل من جديد ، شهد الجيران بهذا ورأوا لها ، تساعوا فيما بينهم متى تنام البنت إذ أن صواتها لا يهدأ ليلا ولا نهارا ، قلها الرجال بحسد ، لم ترتفع عيونهم عن باب البيت الذي لم يفتح أسبوعا كاملا ، وصار الشبان يرقبون المشربيات ، وإذا تعلقو صرخات البنت ، يتضاحكون ويتغامزون ، ويشد بعضهم شعر بعض ، وقال سقاء يحمل الماء إلى البيت - استدعاء الزيني إلى الشهادة - أنه سمع بالذنية صراخ الجارية في الحرمك ، قال أنه رآها مرة تطل من نافذة المشربية المطلة على فناء البيت الداخلي ، متلوشة الشعر ، خرج يهز رأسه متعجبا مما رأى ، المهم إنها عندما استغفلت بلغزيني بركات ، أرسلت له خادما صغيرا ، قام الزيني لفورده ، شاور العلماء في الأمر .

تباحث معهم . وافتي شيخهم بصحة ما بنوى الزيني القيام به . هنا توجه الزيني إلى بيت الرجل - إسمه العطار فيما أنكر - كيس البيت . هاج الرجل وصار يزعق غاضبا . ما للمحتسب وما للناس في بيوتهم . قبض عليه الزيني . أمر ببطحه أرضا . كشفوه فقبل أنهم روعوا لمناظره . واقسم شيخ الحنفية أنه لم ير شيئا كهذا في حياته من قبل . قال الزيني . البنت تصفرك بأربعين سنة . ليس حراما أن تؤذيها . وبهذا أيضا ؟ ضربه خمسين عصا . ثم أمره باعتقلها . وفعلا . اعتقلها الرجل مرغا . لكنه لم ينس ما فعله الزيني به . أصيب بحسرة كبيرة على فراقه البنت . بدأ يظهر في الحارات رائحة العبين . معزق الثياب . ويقل يسيل . يبحث عن شيء مجهول ضائع . لا ينكرها باسمها . إنما يتلدى شيئا يرفض الإفصاح عنه . كلما ظهر في مكان صاح عليه العلة . ضربه على موضع عورته . ضحكوا وسخروا منه . بينما تدور عيناه . تبحثان عن الأمر العزيز المفقود . وسمعت ممن اتى به . أن الشيخ العطار هذا لم يقرب امرأة في حياته قبل البنت . لم يتزوج . طوال حياته . يقول أمه وأخوته . وعندما تزوجت صغرى شقيقته أصبح وحيدا . بدأ يقتصد ثمن هذه الجارية لمدة أعوام عديدة . جارية معينة رسم صورتها وهيئتها في ذهنه بعناية . بيضاء كطبقي القضة . نهذاها كرتان من العلبين . لهما ملمس الحرير . حلم بها سنوات حتى غر عليها . لم تطل فرحته بها . أخذوها منه . انتزعوها انتزاعا . فها فرحة ما تمت كما يقول عامة مصر . اختلف الناس حول تصرف الزيني بركات . أكد جمع منهم صحة ما قالم به . خاصة أن البنت أرسلت تستغيث به لاقترابها من الهلاك . ورأى فريق آخر . أنه تدخل في لخص أمور الناس . وإن أحدا من الخلق لا يأمن على بيته . أو عياله بعد الآن . خاصة بعد تردد إشاعة كبيرة تنفي استغثة البنت بالزيني بركات . إنما استطاع الزيني معرفة الأمر بفضل طرق عجيبة تمكنه من الاطلاع على أدق ما يجري في البيوت والزوايا . قيل أيضا أن العطار مظلوم وليس عنيها . وتسأل الرجال هل توجد امرأة تكره هيئة رجل كهية العطار . البنت فعلا لعبوب وكرهته . استغثت بالزيني بركات لتهرب منه لسبب خفي عندها . وبقي شعور خفي بالرهبة في أعماق الناس . تعجبوا لمهارة المحتسب . قدرته على التفلل إلى أدق الأمور التي تخص البيوت . وهذا مالم يتفق لغيره قط . قيل بوجود فرقة خاصة من أشداء البصاصين تتبعه شخصيا . لا يعرف من رجالها مخلوق . ابن يعيشون . كيف يعملون . هذا أمر خفي لا يجري به إنسان . وهذه لا علاقة لها بفرقة بصاصي السلطنة التي يرأسها رجل عتي معروف . المهم . سمعت حادثة العطار بعد وقوعها بسنة . رأيته بعيني وهو يلف الحوارى . يلف بين الحين والحين . يزعم في الفراغ منها لا بالسبب والاشتراك على شخص لا يذكر إسمه أبدا . وقيل أنه يصنع تماثيل صغيرة من الورق يحرقها يوميا قبل نومه . ويتلو عليها تلاويذ خاصة . وظل على حاله حتى كان

من أمره ما كان ، وما سنذكره في حينه ، أعود إلى الرجال في مكان الشاى ، تساعوا
 فعلا عن السر في اختفاء الزينى ؟؟ تعجب كل منهم كيف فاته الأمر ، اختفاء الزينى
 حدث غير عدى ، انها الأيام المضطربة التى ينسى فيها الإنسان نفسه ، ألم يذكر أحد
 المشايخ الصالحين في خطبة الجمعة الماضية ، أن لوان الريح التى تهب قبل
 القيامة ستكس كل شيء ، ريح يرسلها الله عز وجل ، يملأه الين من الحرير والطيب
 من نفحة المسك فلا تدع أحدا في قلبه مثقل ذرة من الإيمان بوجود الخالق ، لو الحق
 لو العدل تبعد الأب عن بنيه ، والأخ عن أخيه ، ويبقى الناس مائة علم لا يعرفون
 ديناً أو ديانة ، وهم شرار خلق الله ، وعلى هؤلاء تقوم الساعة ، تبكى الرجال في
 المسجد ، وصار كل منهم يعانق صاحبه ، وعندما خرج البعض إلى الخلاء ، خيل
 إليهم أنهم يشمون رائحة طيبة ، فيها نفحة المسك ، جهروا وعلنوا ، زمن الهلاك ات
 لا ريب فيه ، فزعوا ، هلعوا ، وهكذا ، قتل هذه الأيام ، ينسى فيها المرء أمورا
 جسما لا يتكرر حدوثها ، كان يمضى يوم بأكمله ، لا يظهر الزينى بركات بن موسى في
 طرقات القاهرة ، ولا ينتبه أحد ، قال الطالب الأزهرى - كما ظفنت :
 — أعرف أن الزينى اختفى في مكان لا يعلمه إلا القلائد جدا ..
 سكت ليوحى ، أو لبيدوا واحدا من هؤلاء القلة ، قال الحضور :
 — أين يا سعيد ؟
 — إنه يرسل الاتباع إلى بلاد مصر يستنفر مشايخ العربان لإرسال رجالهم إلى
 القاهرة ..

اتسعت أذانهم ، رايت الزينى بعينى عطفى ، يجلس في مكان خفى ، تنبئه الأيام
 بأحداث جسام ، نواب يدخلون ويخرجون ، يرسلهم إلى شتى البلاد ، والمعاقل
 البعيدة للعربان في الصحراء ..
 تسأل أحدهم :

— كيف تبقى البلاد بلا محتسب والدنيا في حرب ؟؟
 — عندما كان الزينى يسافر لمدة أسبوع ، بمجرد أن يخطو خارج القاهرة ترتفع
 الأسعار ، يفعل كل إنسان ما يحلو له ، فما بالك وقد اختفى الآن ؟
 قال سعيد :

— أبدا .. عين الزينى تراقب الناس كلهم رغم ابتعاده .. ولا تنسوا الشهاب
 زكريا ..

صمتوا ، فى العيون رجاء أخرس ، خوف موغل فى الأعماق ، فى الطريق على مهل
 اليم مضى طيور من سجناء الفلاحين مريوطين من أعناقهم بسلاسل حديدية ، يبدو
 أنهم متجهون إلى سجن من السجون ، أخرج طفل لسانه مرات عديدة ، دق طبل
 بعيد ، ربما يقار الفلاحون علما بعد قليل ، مشيت قريبهم ، عيونهم زائفة ، يتمنون

لو احتلوا كل ما يمر بهم ، نفس ما رأيت في طنجة ، طابور رجال يعبرون أسوار
 المدينة البيضاء مشدودين إلى بعضهم البعض برباط الهلاك الأبدى ، في العيون
 نفس النظرة ، هذا الرجل المسوق إلى الإعدام في تلك الجزيرة الصغيرة بالمحيط
 الهندي ، يرجو من الناس إعادة النظر في أمره ، أن يلحقه طائر رخ فيطير به ،
 العينان تقولان المعنى نفسه ، أن يعلم الناس أنه بعد خطوات ، بعد مسافة زمنية
 معينة ، لن يفتح عينيه أبدا ، تضع منه المعلم والأشياء ، ربما موت بعد لحظة ،
 لجهل هذا ، لكن أن أعرف تماما ، أعلم بمفارقة الدنيا في لحظة معينة ، هذا ما يطبع
 الوجوه بنفس ما رأيت ، نظرة الخروج إلى عالم آخر نجهله ، ما من منقذ ، ما من
 منج ، ما من معجزة مأمولة ، أرى الرجال العاضين إلى الموت ، أذكر خروجي من بلد
 إلى بلد ، رحيلي الدائم ، أذكر من سبقوني ، ورجال خرجوا عن البنديقية ، مبتدئين
 رحلة ربما امتدت ثلاثين عاما ، ربما مات الإنسان في بلد يبعد آلاف الفراسخ ، مشيت
 وفي نفسي خوف ، كل ما أراه يجسد رعبا ، القاهرة مسوقة إلى مصير لا يصحح عن
 نفسه ، القاهرة متلفة عن بيوتها ، مشيت حذرا ، بالأس نزل الممالك من القلعة ،
 توجهوا إلى خان الخليلى وكفوا يحرقونه عن آخره ، ضبطوا تجارا روميا - رومى
 تعنى التركي العثماني - يجمع الأخبار ، يرسل ابن عثمان بأحوال الخلق ، عندما
 امسكوه كثر العامة يمزقونه ، غير أن بعض البصاصين التابعين لتركيا بن راضي
 كبيرهم وثائب الزينى ، تحفظوا عليه ، وأبقوا على روحه حتى يتم استجوابه ويظهر
 زملأه الآخرون ، وسعت من يقول بإعدام التوالتى كرتباى في جب القلعة سرا ،
 ولم يتأيد هذا ، وارتج الناس عندما سرت القوايل بوصول رسول إلى القاهرة قدم من
 الشلم ، جاء عبر دروب التيه في الصحراء ، طلع إلى القلعة واجتمع بذئاب الغيبة ،
 ونقل إليه أخبارا مفزعة ، مؤداها أن جيش السلطان هزم في مكان قرب حلب ،
 ولم تعرف التفاصيل ، يقولون : امتع اللحظات التي يذكرها الرحالة فيما بعد ،
 لحظات تتغير فيها الأمور والأحوال ، معينة وقوع الأحداث الكبيرة ، رصد آثارها
 على الوجوه والبيوت والمدن ، أقول بعد سنوات ، بعد مشاهدتي بداية حرب ، وقوع
 طاعون ، شهدت بعيني ما جرى ، ما حدث ، عند الغروب تابعت الطريق ، أيد ضخمة
 قوية تسحب الناس وتلقبهم داخل البيوت ، أشم هواء لم أعرفه إلا في ، حيدر أباد ،
 بلقند عندما فلجها وباء على أفنى وأهلك ، بقيت محاصرا بطاعون جلف ست
 كلمة ، أوله في كل يوم مكرات عدة ، أرى القاهرة الآن رجلا معصوب العينين ،
 مطروحا فوق ظهره ، ينتظر قدرا خليا ، أشعر بانفلس الرجال داخل البيوت ، تتكلم
 رموسهم الآن ، يتهاوسون الآن ، يتهاوسون بما سمعوه من أخبار ، الفداعات مجهولة ،
 ألوات يعضى ولا يعضى ، لا يمكنني أنطلوع إلى الطابق الأعلى لأراق مواضع
 النجوم ، ربما يقترب للجر ، غير أنني حتى الآن لم أسمع نيكاً واحدا يصيح .



● رسم : جون فریدرش .

كل إنسان يقول ما يحلو له ، اى شخص يدخل فيما لا يعنيه .

السراقة الأولى

ما جرى لعلی بن آى الجود وبداية ظهور
الزینى برکات بن موسى
(شوال ۹۱۲ھ)

أول النهار :

وفيه تفرق البيوت في نعلس طرى ، تناثر الشمس في الوصول إلى حوارى الحسينية ، الباطنية ، الجمالية ، والعطوف ، بينما ترى واضحة من فوق أسوار وإبراج قلعة الجبل ، جماعة العماليك التي تخترق شارع حفرة البقرة لم يخرجوا من القلعة ، خرجوا من بيت الأمير قلنى باى الرماح لسير الخيل السلطانية ، عبروا الخليج ، نزلوا على مهل إلى باب اللوق ، اشرعوا سيولهم في وجه النهار المقبل ، السقاؤون الذين قبلوهم قرب باب اللوق ، أول من يستيقظ في المدينة ، يعملون الماء من النيل إلى البيوت ، يجهلون مقصد الفرسان ، تكثر حوارى خبولهم دوامات ترابية صغيرة ، تسرع خطوات الجمال مثقلة بالقرب المياه البنية اللون ، يخفت همس السقائين ، يبقى في اذهلتهم انطباع خفيف كآثر ضربة المجداف في مياه ترعة هائلة ، ينسل العماليك أول النهار ، تبدو البيوت ، أيام ما بعد عيد الفطر ، دائما يركب الخمول هذه الأيام التي تعطب الأعياد .

على بن أبى الجود ، لا يصحو إلا بعد مضي ثلاث ساعات من النهار ، دائما ينام متأخرا ، بعد عودته كل ليلة من القلعة ، يجيء نوابه ، يراجع معهم ما تم من أعمال خلال اليوم المتقضى ، قرب الفجر يصرفهم ، يخلو إلى نفسه مقدار ساعة ، ثم يعرض إلى إحدى زوجاته الأربع ، أو جواريه السبع والمستين ، منذ شهر اكتمل عددهن سبعا وستين ، بعد مجيء واحدة حبشية ، ولخري رومية ، على بن أبى الجود لا يخطئ طريقه إلى من ابتكرها لقضاء آخر ليلته ، يخطئها قبل مجيئه بساعات وعندما يدخل إليها ينأى إلى أنفه عطر ، رائحة لياب معترجة بعبير أنثى ، كل درجة يعلوها فوق السلام القصيرة ، التي تنتهى بها هذه الطرائف ، غجاة تبعده شيئا فشيئا عن ضجيج النهار كتراحل ، ما استمع إليه ، ما أضفاه إلى سجلاته ودفاتره ، ما بلغه من شائعات ، أحاديث تتردد عنه هو بالذات ، ما يريده الأمراء والعوام على السواء ، الليلة عندما دخل إلى حجرته ، سلمة ، امراته الثالثة ، بدأت تخلع عنه ثيابه ، عباءة زركش سوداء حطت بالقصب والذهب ، عمامته الصفراء الكبيرة الملتفة بشئى لونه أبيض ، مثلها لا يرتديها إلا الأمراء مقدمو الكوف ، سمح لعلى

بن أبي الجود بارتدائها منذ سنة ، ينحني بها أمام السلطان ، يجلس الأعيان ، يشق
بها في المواكب ، ومعروف ، لم تخلق العمام الكبار لأي إنسان ، لا يجزئ أي شخص
على لبسها في حضرة من له المقام ورفعة الشأن ، منظر العمامة فوق رأسه يوغر
قلوب الحسد ، يوقف النعمة ، يحرك النسيئة ، على بن أبي الجود لا يبالي ، يعتمد
التجول بها ، وتحسبها ، وإبرازها ، وإمالتها إلى الخلف ، وإلى قدام ، بلذات في
نواقل حديقه إلى الأمراء الكبار ، حذر بعض الأصحاب ، ألا يزهو أو يختل بعمامته
في حضرتهم ، لكنه لا يعنيه أمرهم ، يحرص جدا على معرفة كلامهم عنه ، تعليقاتهم
عليه ، وإذا ما وجد فيها ما يستحق نقله إلى السلطان طلع لغوره إلى القلعة ، يضيف
ويبدل في الكلام ، بحيث يغير خاطر السلطان على قائله ، ولا يخفي ما فعل ، بل
يتجاهر به ، ويبغض في الحديث ، كيف أصفى السلطان إليه ، كيف ربت كتفه وعطف
عليه ، الليلة ، فيما يبدو أخطأ نواب على بن أبي الجود ، لم ينكروا له وقوع أي
حدث غير عارى ، فيما بعد ، زعم البعض أنهم عرفوا ما دار ، بلذات في بيت الأمير
القاضي باي أمير الخيل السلطانية ، ولمح العامة ، بل لوضحوا وصرخوا إلى زكريا بن
راضي أحد نواب على بن أبي الجود ، وكبير بمصامى السلطنة ، أنه لم ينقل
ما يطمح إلى على ابن أبي الجود ، هذا ما جعله ينال راضيا ملتصقا بزوجه الثلاثة
مائلة ، معلقة بألفلتها حركة غير معهودة ، أقدام تسرع ، أبواب تفتح ، صيحات
بعض الحريم الخافتة ، الأصوات تصل إلى هنا متملحة ، غير واضحة ، تختلط
وتضيق معلما ، ساقية ترفع مياها ، تدور وتصر أخشابها القديمة ، امطار تلمس
أرجلها جافة ، قارب يتأرجح ، حوافر تعدو ، تعدو ، ماذا يجري بالضبط ، إيقالته قبل
الأوان صعب ، سيدي على ، سيدي على ، يتقلب ، لوان تسقط ، يصرخ طفل ،
تسقط كتلة خشب ، تتساقط دقات قلبها ، تصفي ، وقع أمر ، ماهو ؟ لا تدري ، فجأة ،
يتدفق منها مذهبوا في عروق أرجلها رعب ، لم تشعر باستيقظته المفاجيء ،
إصغافه ، جفاف ريقه ، أما الباب فدفعته قدم محاطة بحذاء فرسان المماليك الجلدى
الأسود ، الذي يغطي قسبة الساق ويلم السروال .

★ ★ ★

من بوابة الأمير القاضي باي الرماح أمير الخيل السلطانية ، خرج منذ غليظ
الصوت ، يعرفه الناس ، في اللحظة نفسها خرج منذ ~~أكثر من~~ القريب من قصر
الأمير قوصون الدولدار ، قرب حارة بيرجوان ، يتجه إلى العطوف ، إلى الحسينية ،
إلى حارة الروم الجوانية ، هواء خفيف عذب يحمل إلى الأذان دقات طبل وأصوات
منادين آخرين ، نداءات توقف النيام ، تلك تلامس الجالون ، عمال الحمامات
يخرجون ، عمال المستودعات المجاورة ، باعة لبن ، باعة فول ، يتوقفون ، تصفي
الأذان ، النساء يصحن مناديات بعضهن البعض ، بلاتمة بليلة تزعق في حارة الميشة

التي فتحت بوابتها منذ قليل ، فجأة لا تنادى المرأة على البليلة ، إنما تنقل الخبر بصوتها المرتفع ، الرعوس تطل من الأبواب الصغيرة في الحجرات الصغيرة داخل الربوع الضخمة ، أطفال صفار ، أطراف جلاليتهم بين أسنانهم ، يسرعون إلى أين بالضبط ؟ لا أحد يدرى ، تلوذ زغرودة في الهواء اطلقتها امرأة من إحدى الطيقتان المرتفعة جدا ، جلوبتها أخرى ، ثم زغاريد ، نساء حافيات خرجن من العمقوف ، الجودية ، السكرية ، يحملن أطفالهن فوق أكتافهن ، يصفقن ، يواجهن النهار الجديد بفرحة وليدة .

× × ×

سعيد الجهينى :

من داخل رواق الصعايدة في جامع الأزهر ، يصفى سعيد الجهينى إلى ضجة الخلق ، مائدة الرواق العلوية تطل على مدخل الباطنية ، تتدافع الأصوات إليه ، أخيرا .. أمسكوا على بن أبى الجود ، رسموا عليه ، بالأس قبيل المغيب رات الجموع موكبه ، هل جرى واحد على الظن وقتها أن نفس الطرقات ستشهد مشهرا مجرسا فوق حمار لزعز ، لا ذيل له ، النفس تسد الشارع كالجراد المنتشر ، في القلوب غل رأى الفرصة فالتفجر ، سعيد يراه الآن بعيني عقله ، هاهو ذا يمشى حصانا عليه كنبوش مذهب ، يمر امام بيوت المشايخ أو الأمراء ، تتقدمه طبول قوية تفوق في ضجتها طبلخاناه تدق امام اى امير ، هاهو ذا يمشى في الطرقات مترجلا ، يحفه حرسه الأشداء ، عندما اتفق السلطان بفرض ضريبة على الملح ، الحق الضرر بالمسلمين ، ملح الطعام عز وجوده ، على بن أبى الجود يمشى لا يجرؤ إنسان على رفع عينيه في وجهه ، عامته تذهل الأيبصار ، لم تفض ساعات ، هاهو ذا يركب حملا بالمقلوب مبهدل آخر بهدلة ، يلطمه الصغير والكبير ، النساء يصفقن عليه ، الرواق خلل تملأ ، كلهم خرجوا ، في الهواء راحة رطوية ، وخيز جال مكموم في أركان الحجرة المستطيلة الطويلة قلعة الجدران ، ادخل قدميه في النعل القديم ، لا بد من طوقه إلى مولاه الشيخ أبى السعود ، بعضى إليه في كوم الجارح ، يتبادل معه الحديث ، يصفى إلى رايه فيما جرى وما حدث ، صحن الجامع الكبير يشغى بالمجاورين وطلبة العلم ، فعلا ، لا بد من مضيه إلى مولاه أبى السعود ، لكنه الآن يجلس بجوار العمود الرخامى الكبير القريب من باب زاوية العميلن ، يمس الأرض الصلبة يعود قش ، سعيد يرقب ما تجيء به الأيام بحذر ، لا يخفى أبدا فرحته بزوال هذا الظل الثقيل ، لكن ماذا تاتى به الأيام ؟ بل ماذا يخفى اليوم نفسه ؟ ربما انتهى الأمر بفتنة بين الأمراء تروح فيها رقاب ، تسيل دماء أسرياء لا حول لهم ولا شان ، تخلق ابواب وطيقان ،

تشعل حرائق في البيوت ، تهدم مساجد وزوايا ، من يدرى ؟ ربما جاء من هو اعلى
والاسى ؟ هنا ضرب سعيد عود الفس فالتصم ، نفض يديه ، عزل على بن ابي الجود
فيه رحمة بالعبد ، ضج الناس وهاجوا ، سعيد يسمع الآن ما قاله أحد المجاورين
هنا منذ ثلاثة شهور ، مال عليه عمرو بن العدوى ، اخبره بما يضره ، ضاق بما ياتيه
على بن ابي الجود في حق الخلق ، المظالم المستجدة في كل يوم ، عمرو يعلم تماما
ما يفعله الظالم ، يخلو إلى نفسه ساعتين في كل ليلة ، يفكر في طرق جديدة للمظالم ،
يخلق فتونا جديدة لتعذيب ضحاياه ، يل قيل بين الناس إنه اوصى زكريا
بن راضي — عليه سخط الله وغضبه — بالبحث عن طرق جديدة لإتلاق الضحايا
والمساجين ، اساليب لا يحلم بها إنسان ، قال عمرو إنه قبض على امرأة حامل ، فقيرة
لا ظهر لها ، ضربها بين يديه بالمقارع ، احرق اطرافها بالقطران حتى رمت مافي رحمها
ولدا ذكرا في ستة شهور ، لم يكتف على بن ابي الجود بهذا بل شتمها عند باب
زويلة ، لماذا ، هل تدرى يا سعيد لماذا ؟ لأن رجال زكريا ضبطوها فنبع قفها بها ثمن
العجور ، وكما تعلم فهو يحتكر بيع العجور ، مال عمرو هامسا ، نويت قتله ، ارتجف
سعيد ، نظر في عتمة المغيب إلى عيني صاحبه البراقطين ، جف ريقه ، اطرق وعلود
النظر إلى صاحبه ، كثر عمرو ، ساقته لأريج الخلق منه ، في تلك الليلة عيناها بصق
الشيخ ابو السعود ومضمض فمه بماء عذب ، اصفي سعيد إلى صمت وديع يترفرق
كمام الورد في انحاء الزاوية ، حمد الشيخ ربه لإصفاء سعيد إلى عمرو بن العدوى
صامتا .

هل اتجنبه يا مولانا ؟ .

لا ، لم قصد هذا ، إنما الحذر واجب ، من يريد قتل إنسان كفلى بن ابي الجود

لا يعلن نيته . . .

في الرواق راح سعيد يراقب صاحبه ، ساعة الدرس ينظر إليه خلسة ، يحاول
الحدوث في تصرفاته على ما يؤكد تلميحات الشيخ ابي السعود ، إذ يتحدث إليه ،
ينتقل المفظة لا يتطرق إلى نقد امير او كبير ، يراه سعيد متجها إلى البيت القاتم قرب
المظلم ، يخلو إلى زكريا بن راضي ، لا ، ليس زكريا نفسه ، إنما أحد نوابه ، طالب
علم فقير مثله لا يجلس زكريا الذي ترتعد لذكره النفوس ، عمرو ينقل ما قيل ، تجيء
الأيام التالية برجال غريباء ، يسألون خفية عن سعيد ، يتبعه بعض المستصنعين
لزكريا ، يجهلهم لكنهم يعرفونه ، يرصدون خطوات قدميه ، الحارات التي يطلوها ،
ضحكاته ، لحظات شغفه الخفي ، فرجه وبهجته ، في لحظة معينة ، لحظة يجيئون
فيها كصبيبة ، رعد لول الشتاء يفلجىء اهل مدينة امته ، يعد احدهم يده ، يلمس
كتفه ، يلفظ لفظا واحدا ، يساق إلى سجن زكريا بن راضي ، ينوعون له العذاب
تنويعا ، يلقونه في سجن كبير ، العرقلة ، الجب ، المقشرة ، تنسل ايلمه ، ينسى

خبره . يعني تذكره . يضعف اثره . سعيد يبدو مبهوما يسمع بشئ عبيد : قطع يد سارق . إشهار إمارة ضبطت تسرق رغبيا . تقطع يدها اليسرى . لو اليمنى إذا وجدوا اليسرى مقطوعة من قبل . يضطرب قلبه كفرخ صغير ابتل ريشه . لملا يحدث هذا كله . لملا ؟؟ تلغو الأسئلة وتنزل كعصا نقران . حلقات غليظة في سلسلة حديدية سألخت تذهب منه العصب . تسل النخاع . تجفف ماء الحياة . يود لو يزغق من فوق مذنة الأشرف قايتباي بالأزهر . يوقف بيوت العفة الفقراء . منازل الأمراء . توخز عينيه أسوار قلعة الجبل . يرفع يديه . يطلق لانا طويلا لا رجعة فيه . يسب كل ظلم أليم . يرى بعينه زكريا بن راضي مخورقا بجوار باب الوزير . سعيد لا يود أن يمضي بين الناس إلا زاعقا . راجعا محذرا من أمور تأتي . في كوم الجراح يهدنه الشيخ أبو السغود . الصالح . الطبيب المنجب . الفجيب . العارف بالاصول والفروع . دار ولج الدنيا . أقام زمتا بالحجاز واليمن . عرف لغة الهند . ولهجة الأحباش . عالج أمور المسلمين في فارس . ونالش علماء الاناضول . رأى بعينه مياه المحيط الأعظم عند حدود الدنيا الغربية . يصغى سعيد إليه . تغيب عنه لحظة دائما يتوهمها . لحظة يضع فيها لحد المستصنعين البصاصين يده فوق كتفه . يضحك ككثفا صغيين من استنان صفراء .

تسمع مغلفا .

الآن . على بن أبي الجود نفسه مشكوك في الحديد . لاتعرف البهجة طريقها إليه . بعد ذهابه إلى مولاه سيمضي إلى الشيخ ريحان . يباده الحديث . حتما سيقول الشيخ ريحان . انه علم الخبر قبل ايام . ربما تمارى ومال على اذنه هاسا : قوصون وقاني باى لم يتحركا إلا بعد استشارته . سعيد سيدارى ابتسامه . ويتنظر . ربما تبدو سماح ابنة الشيخ ريحان . عسى أن يسمع ضحكتها . حليف ثوبها . ربما تدخل على ابنيها فتدارى وجهها . لكن الشيخ ريحان يدعوها . سعيد ليس غريبا . وهو ابن جهينة . ولو تأخر ميلاده سنوات لأمضيا وقتا في اللهو . في اللعب . ربما أسعده الحظ بقدر معقول . يشم رائحة طعم هي طاهيته . يأكل منه . يرتعش قلبه . ترغرف روحه . يعود إلى الرواق . يخلو إلى نفسه طوال الليل . يفتات اللحظة . يعيشها ألف مرة . الآن تتورضجة بين العجلورين . يؤكد أحدهم استحالة مجيء إنسان يشغل وظائف على بن أبي الجود كلها . وكافة بيت المال . التحدث عن جهات الشرفية . ثم الحسبة وهي لجل وقلقه . إلى جانب مهمته الأصلية التي لم يعد يمارسها تقريبا في أعوامه الأخيرة . بشمقدار السلطان . كان يحمل نعل السلطان في لوقات الصلاة . وظيفة ليست غريبة عليه . من قبل عمل بشمقدار صغيرا للامير طومباى . وعندما علا نجمه وبرق . سطع فاته . وبلغ بهجده . تبرا من البشمقدارية مع انها الاصل .

من إذن ؟؟

الاسماء كثيرة .. لكنها لن تخرج عن نعرفهم .. الأمير ملى .. طلق .. طلق ..
فتنمر ..

« أه .. عد غنمك يا جحا .. »

« لكن .. مستحيل أن يشغل أمير واحد كل الوظائف .. »

« من مدة والتعبير عمل لإزالة على .. فهل يطرده السلطان ليأتي آخر يستبد بالامر .. »

« طه ؟؟ »

من إذن .. من القلام ؟؟

كل يحاول النفاذ إلى ما يجيء به الغيب . تدبر أمور . في القلعة يدور همس فوق الحشايا . في الحجرات المغلقة داخل بيوت الأمراء . والقضاة . على بن أبي الجود ينتظر مكبلا في قيو مظلم تنن الرائحة . يرى أيلامه وهما . حلما ضام . اندثر . ربما جاعنا من لا يخطر ببالنا قط ..

« عد اغنمك يا جحا .. قلت لك .. يا جحا عد اغنمك .. »

الدروس معطلة . لن يطول الامر . ليس معقولا بقاء هذه الوظائف شاغرة . اشعة الشمس الراحلة تفرش صحن الجامع . خبز الجراية مرصوص منذ الصباح يجف ليحفظ زما . طنين الحديث لا ينتهي . سعيد يرى عمرو بن العدوى . تحلة حلانة ضلت طريقها إلى جحرها . من حلقة إلى أخرى ينتقل . يصفي . يشارك في الاحاديث . يقضب وقت الغضب . يفرح لحظات الفرح . يلقي رايًا يبدو عارضا . قيل صدفة . لكنه يدفع الحديث في اتجاه تشتيه سفن زكريا . لا يقترب من الشوام والطلبة الافغان . لو المخارية . لا يهمه امرهم . دائما بعيدون عما يجري . في المساء ينقل عمرو ما يراه وما يسمعه . لكن هذا المساء بالذات . إلى من يمضي ؟؟ من يصفي إليه . يبتسم سعيد إذ يجول السؤال بذهنه . هل تبقى أذان زكريا وعبوته مفتوحة كالعادة ؟؟ هل يجد الوقت ليصفي ؟؟ هو لو ثوابه ؟؟ ربما يفكر الآن فيما يجب عمله بعد ذهاب ولي نعمته على بن أبي الجود . على هو الذي اقره كبيرا لبصاصي السلطنة وتلأبا له . لمن يمضي الليلة عمرو بن العدوى ؟؟ سعيد يفرض شطته السطلي . كيف يعذب عمرو يوم القيامة ؟؟ ربما اطاح رقبته بكلمة . يسلك حياة اسرة بوريقة . يقطع الامل من قلب اب عجوز ينتظر عودة ابنه الغيب ليؤم المصلين في القرية . أه لو يمضي سعيد الآن . يمسكه من عنقه . يتخذ إلى اعماقه المكتونة . بنظرة حادة كسكين تفوخ بين لوحى كتف . صمت في صحن المسجد . سعيد الآن حذر . كلماته تخرج بحساب . فراش عمرو وكيس جرابته لا يبعدان عنه إلا بمقدار ثلاثة مجاورين يتمددون فيما بينهما . لو تقلب في الليل . لو خرج يتوذا قبيل الفجر . عيناه تقعان عليه لا محالة . ربما يخطيء مولا . لكن معلا الله . لا يظن السوء بإنسان . يستدير متمهلا . رائحة الحشير القديم . للرجبة خارج المسجد

تفيض بالماء ، حمير مريضة إلى جدار قريب ، صوت المنادى لا يمل تكرار الخير ،
 إسك الظالم الظالم المستجير ، علي بن أبي الجود ، الحوطة على موجوده ، على
 حواصله وأمواله ، على حريمه وجواريه ، ترسيمة في جب القلعة حتى يتكثف
 امره ، امرأة تلقى درهما إلى المنادى ، حلاوة البشارة والتقوط ، بهجة تمتد إلى روح
 سعيد ، بطيخة كسريان ماء في شقوق ضيقة ، يرى سماح ، أه لو تصحبه الآن ، ترقب
 الناس معه ، يسمع وقع أقدامها ، لا يعرف صاحب الخطي ، لكنه يثق عند جلوسه
 إلى الشيخ ربحان أنها هي ، وهي بلذات ، فرحة الناس تدفقه ، لو فاض درهم عن
 حاجته لأعطاه للمنادى ، ينحل خيط مر إنعقد في لعابه من قبل ، يذوب متلاشيا ، من
 داخل الباطنية خرج صبيان يعملون في مصبغة خضر شيخ الصباغين ، صبغوا
 وجوههم بأحمر ولخضر ، يرقصون ، يفتنون ؟

إحزن ، إحزن ، يا حسود ..

شكوا علي بن أبي الجود .

★ ★ ★

(مرسوم شريف)

بسم الله الرحمن الرحيم

(ولكن منكم امة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر)
(وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان)

أما بعد :

الحمد لله الذي هدانا إلى كشف اشرارنا ، والاهتداء إلى خيرنا ،
لما فيه راحة العباد واستقرار الأمن والنظام في البلاد ، فمن بعد
ترسيمنا على الباغى بن ابي الجود ، وإقامتنا دونه الحدود ، رأينا
ملاء وظلاله ومراتبه ، وحتى تحفظ العدل ، ونطلب منه المزيد ،
فكل منا عليه رقيب عنيد ، رأينا توزيع هذه الوظائف على ارباب
المعرفة والعلوم ، والأمر بهذا حمل إن لم تتوزعه الاكف ثقل على
الرقاب ، وبداننا بوظيفة الحسبة لأنها تمس أحوال الناس ومعاشهم ، ولا يمكن تركها
شاغرة ، وبعد الاطلاع على لحوال الناس ، ومعرفة أى الخلق منهم يريحهم ويجنبهم
الصعب .

وبعد قراءة التواريخ الماضية ، واستحياء العبر ، والوصول إلى حقيقة المبتدا
والخير ، وبعد طول تفكير وتبكير ..

قصرنا

يقولى بركت بن موسى ، حسبة القاهرة ، لما تبين لنا بعد
ما قدمناه ، ما فيه من فضل وعلة ، وأمانتنا وأصلنا ، وقوة
وصيرامة ، ووفور هيبه ، وعدم محابة أهل الدنيا وأرباب الجاه ،
ومراعاة الدين ، كما أنه لا يفرق في الحق بين الرقيق والحقير ،
لهذا انعمنا عليه بلقب ، الزينى ، يقرن باسمه بقية عمره .
وقد اوصيناه بالنظر في التكفيل والموازين ، والتحذير من الغش
في طعام او شراب ، وإن يتعرف الأسعار ، وإن يستعلم ويستقصى الأخبار ، ما يتردد
على أفواه الناس ، في كل درب او حارة ، كل بيت او سوق ، بدون علم أهله ، وإن
يعين له نوابا ينظرون أمور المسلمين ، بشرط أن يكونوا أملاء مؤمنين ، وألا يمكن
أحدا من العطارين ، من بيع غرائب العقليير ، وأن يمنع المتحيلين على اكل أموال
الناس بقبائل ، وأن يتصدى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمنع عن الفسق ،
والنظر في أمر فقاء الكتائب ، والعلماء والمغنيات من النساء ، ولا يمكن منهم
أحدا ، ولا يستناب عليهم إلا من عرات امانته ، والرت صيغته ، وإن يكونوا من أهل

العفة والامانة والزهادة ممن يعدوا عن المطامع ، وثأوا عن السوء ، وإن يقصد بقوله
 وفعله وجه الله تعالى ، وابتغاء مرضاته . فلا يبالي بلحسابه بغض الناس له ،
 وسخطهم عليه ، أو رضاهم عنه ، وإن يكون موافقا على سنن الرسول ، من قص
 الشارب ، وتنف الابط ، وحلق العانة ، وتقليم الاظفار ، ونظافة الثياب والتعطر
 بالمسك ، هذا ما رايناه ، وبه امرنا ، وسلام على اشرف الخلق ، سيد المرسلين ،
 محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم .

« قلعة الجبل »

ثامن شوال



زكريا بن راضي :

في أي وقت أو مكان ، هل حال أمر بينه وبين فهم ما يجري ، النفاذ
 إلى الأحداث ، الصغير منها والكبير ، الآن بالذات يحاول تلمس
 الأسباب ، ما يجري الآن بحيره ، أول الليل ، نزل إلى السجن
 الصغير المدفون تحت البيت ، تقدمه المشاعلى مبروك ، لا يذهبان
 إلى السجن إلا نادرا ، مرات قليلة خطأ فوق الممر المعتم الضيق ،
 في نهاية تجلويص صغيرة في الجدران الرطبة المبللة اللزجة ،
 تضيق الفجوة بلقمة الإنسان ، السجن يضطر إلى إحتاء ظهره عند الوقوف حتى
 لا يصطدم راسه بالسقف غير المستوى ، لا يمكنه تكلم أو تقب ، أو قعود ، أو نوم
 متمددا لضيق المكان ، وبسبب المياه التي يرشها مبروك الأخرس عدة مرات كل نهار ،
 يحافظ على منسوب إرتفاعها فوق الأرضية اللزجة المبللة ، زكريا لا يلقى المحابيس
 هنا ، يبقى في الطرف الآخر للبيت ، يجيء مبروك ، يلف قيود المحبوس المطلوب ،
 يعصب عينيه بمنديل ، يدفقه بحربة قصيرة في ضلوعه ، في النهاية يلف أمام
 زكريا ، يبقى السكون بلا خدش فينزأيد رعب السجن ، لا يدرى من أين تجيء
 الضربة ، وبعد لحظات تطول أو تقصر يمد زكريا فجأة يده ، يلمس كتف السجن ،
 غالبا ما يلمسها برفق ، على مهل ، بتأن ، كثيرون لم يحتملوا المفاجأة والمباغتة
 الخفية اللينة كبطن الأفعى ، يسقطون مغشيا عليهم ، ترفع العصاة عن العينين ،
 في البداية تترقق ابتسامة هائلة ، نازقا قرب انطفاؤها ، يمضي وقت ، ترتفع صرخات
 زعيق وآلام ، تصر عجلات السلفية التي تبدأ في رفع المياه من البئر العميقة ، أحيانا
 يامر زكريا بقرع المبلخاتاه ، خاصة في الليل ، في السكون الغويط ، يسمع من

يخفي . يدرك القلائد جدا . أشد المقربين إلى زكريا والعاملين معه . يدركون
ما يحويه فرع الطبلخانة الآتي من سطح المقطم . الليلة يمر . زكريا بنفسه في
السجن المعتنم الرطب . قبل ذهاب النهار طلب من مبروك إخلاء التجاويف من كافة
السجناء . جمعهم لا يدري أحد بوجودهم . لم يصدر مرسوم بإسلكهم . زكريا
لا يدري ما تحمله الساعات الآتية . لا يأمن أبدا مهما استقرت الأحوال . عندما يرى
لكل رسوخ الأمن وعمق جنوره في جوف الزمن . لا يخطئ زكريا تقدير تضيق
الثغرات . وإتفه الاحتمالات . من يدري ؟؟ ربما أرسل أمير إلى السلطان يخبره بأمر
المحاييس هنا . منهم من نسيه زكريا لطول العدة . ربما جاء معكيب الغوري .
النجلباني أو القرائضة . تسلكوا الأسوار . تفلخوا من الأبواب . العمرات والتجعب .
استكوه . يهدلوه . ثم يفتشون السجن . سوف يبحثون عن شعبان . شعبان بعينه .
من شهور اختفى لم يدرك به مخلوق . شعبان غلام السلطان المقرب . المفضل على
غيره . جلس في خلواته . أتيسه في سهراته . يقعد إلى يمينه دائما في نفس مكان
الأمير الدوادار . وأمير السلاح وأمير أخور وكبار رجال السيف والكتاب . شعبان لفقة
قمر . هلال فضة مولود . شفاه حبثا ياقوت . عينا هر . فمه مسك وطيب . خذه العين
من حرير . يده في طراوة العجين . لا يتجاوز العشرين . عندما قرر زكريا اختطافه
لم يأمره أحد بذلك . لم يؤذ أمير . لم يذلعه وزير . أي مخلوق . قرر أن يصل إلى
جوهر الصلة بين شعبان والغوري . سؤال صميم الهب مراده . احرق ما بين جفنيه .
هل يهوى السلطان الغلمان . هل يؤثرهم على النساء ؟؟ امر كهذا لا يقبب عن زكريا
هنا . إذن لابد من الوصول إلى الحقيقة . خاصة والقرائن تؤيد ما يحوم من ظنون .
منذ توليه أمور السلطنة لم يسمع أنه أزال بكرة أو أضاف إلى مشترياته جديدا .
أيضا عدا عشر جوار وصلن إليه هدية من ملك البندقية عندما أرسل قاصده إلى
القاهرة من شهور . زكريا يعرفهن . لديه اسمائهن . لوصلهن ويعلم من مصافره
أن السلطان لم يقربهن . وأنهن يتقلبن متحركات . ولولا أن الرجال المسحوق
يسخولهم إليهم طواشية لآتين من الفعل ما تتندر به أجيال وربكان . أيضا لم يتزوج
الغوري إلا اثنتين . إذن هل توجد صلة بين السلطان وشعبان ؟؟ وإن يجيب عن
السؤال إلا شعبان بشخصه . راح مبروك يراقب مرات طلوعه ونزوله ثلاثة شهور
الليلة . حتى ألم بعادته . حفظ المواقع التي يترد عليها . انحناءات طريقه . عدد
الحيوت على جانبيه . مواقع الخلاء فيه . وفي لحظة معينة خلت السماء من القمر .
من ضوء النجوم . كمن عدد من الرجال الملتزمين على جفني المدق الرملي الموصل
إلى أول طريق القلعة . وفي الليلة نفسها وصل مقر زكريا . تأمل شفقيه . تعجب من
خلقه . من راقته . مد يده وتحسس نعومة بشرته . استرسل شعره . دهش
لنصاعة أسنانه . طيب رائحته . وهافة لسانه .

هذا يخلق بين جنس الرجال - خلع ثياب الغلام قطعة قطعة - الولد لا يدري - غائب عن وعيه - صرف زكريا رجلاه - مل فجأة وقيل الغلام - قال لنفسه - وقع القبله بعد صحوه احسن - وفعلا رأى في الصباح تورده الوجه الملتح - ورد سقاء الندى - أبدى كريا - ورأى الغلام هادئا واثقا - تحدث إليه - لم يفصح عن غرضه مباشرة - لم يكشف قصده - استمع إلى وصف بلاد راها شعبان - تسائل بعدها - احقا لم يتجاوز العشرين - شعبان رأى الصين - زار فارس - ورقص في جبال الاناضول - عالم بلغة الفرنجة - يتقن لهجات البربر : اهالي الجبال في بلاد المغرب - كيف اثم بكل هذا - متى اتسع العمر القصير - كان زكريا يجالس شيخا خبر الدنيا وامسك باطن اسرارها - الشجر العذب ينشد ارق الشعر واعذبه - خلاصة الحكم والمقولات - متى استمع إلى هذا ؟ كيف لا يسأل عما يراد به - لحظات عديدة ايقن فيها زكريا بوجود اسماء أخرى عديدة للغلام - شعبان واحد منها - ثلاثة شهور مضت كان زكريا ينسى الهدف الاصلى - يضل عن الوصول إلى حقيقة ما بين السلطان وبين شعبان - في البداية حام ودار - انكر شعبان - في ثلثيا الاحاديث والكلام يلقي زكريا بخبيث السؤال - يبدي الغلام تجاهلا - مرت الايام - وصير زكريا يتقد كحيات الرمال من بين الاصابع - في ليلة ضاق به الامر - نزل إلى القبو - اوثق الغلام - عراه - قبله في شفتيه - رأى انسحاب الدم من الوجه الملتح - من اذنيه - تحسس العنق الناعم الاملس - رام شعبان وعض يد زكريا - طرحه لرضا - افسد الأرض البكر - غير مضايق مجهولة لم ينفذ منها إنسان - وقف عند حافة لم يطلع عليها ذكر - لم ينظر في وجه الغلام - غادره كدرا متضايقا حزينا - لماذا ؟ لا يدري - ليس السبب فشله في الوصول إلى حقيقة العلاقة - بعد ثلاثة ايام نزل القبو - رأى وجهها بدلتة قسوة نقلس بعشرات الاعوام - في البدء ظن أن الغلام ابدل - ابن صلاحه الوجه - روقان اول العمر - ناداه - لم يجب شعبان - لم يفه حرقا - زال زهاء الشبَاب - انكسر غصن الوردة - نسي الغلام يلاذا زارها - قرى راها - ثلوجا بيضاء تفتن في الحديث عنها - أي لغز يحير زكريا - غادر القبو مسرعا - عاد إليه مرات خلسة - روعه ما رآه والفزع - تحل الغلام وكاد يفنى - لو امتد الوقت - لو في الزمن فسحة - متسع - ربما توصل إلى سر ما حدث - يضع يده على بدايات الأشياء - ربما توصل إلى حقيقة الامر بين السلطان وغلame شعبان - لكنه الليلة محسور - الغيظ بهريه - للأسف - يقرر خنق شعبان ودفنه حيا - يتفكره راقب الخنق - مبروك وحده قام بالعملية - ضربات معوله الصماء علقة في آذن زكريا - الليل وغرابة الامر ورجيل الفتى يكسبها رثينا قائما مخيفا - لكن - لابد من تنفيذ ما امر به - ربما جاءوا واخطفوا شعبان حيا - يطلعون به إلى السلطان - يا مولانا هذا غلامك الحبيب وجدناه عند زكريا بن راضي كبير البصايرين - ونائب علي بن أبي الجود - يا مولانا خلك زكريا فاختطف احب الناس

إليك ، فسق في أقرب الخلق منك ، بدله وغيره . انتهى أوله وأخره ، كبير بصاصيك الذي جئت به يوما ، كدت تظهر ضعفك أمامه ، طلبت منه بقلب سليم ، أن يطلق رجلاه ، عيونه ، بحثا عن شعبان ، حبيبته وصفيه ، زكريا هذا ، هنا لأبد من هلاك عظيم ، فناء أكيد ، لن يوسط ، لن يخورق ، الشنق وقتئذ نعمة لا تترجى ، الموت ختقا أمته صعبة ، أما السم الزعاف فجنة لا يتأهلها أمثاله ، سيامر السلطان بشيه حيا على نار بطيئة ، من قبل شوى ثلاثة رجال على السفود - قبل مجرد القول إنهم شوهوا في صحبة الغلام مرات - لم ينتظر ليستقصي ، من هم ؟ من أي جنس ؟ ما الذي يجمع ثلاثة من العامة بشعبان ، زكريا نفسه لا يعلم ، لم يخبره الغلام عنهم ، سبب اجتماعهم به ، عموما ، إذا مرت الأمور يسلا ، الليلة ، غدا أو بعد غد ، فسيتطلق بعض الاتباع من عتاة البصاصين واشدهم باسا وقدرة على الاختفاء ليحاولوا الوصول إلى أصل هؤلاء الثلاثة ، جمع ما تيسر من معلومات عن الغلام ، من يدري ؟ ربما عرف عنه وهو ميت مالم يعرفه قبل موته ، ربما كشف الأمر عن أمور لا تخطر ببال عقل ، النيران لا تهب إلا من مستصغر الشرر ، فعلا ، ليس من الأمان بقاء شعبان حيا ، وغيره من المساجين ، أي شخص يبقى هنا ، حتى حقاير الهيئة ، ميتور الأصل فاقد النسب ، أو مجهول الهوية من صغار المشر والحرامية ، سيعلو شأنه وقتئذ ، يطلق العامة والخاصة التشنيعات المهولة ، يحطون في حقه كل قبيح ، زكريا يحبس خلق الله ، زكريا لديه سجن تحت بيته ، ترى كم من الأرواح ازهق ؟؟ أي الطرق سلك في تعذيب أجساد خلقها الله ، وقتها يقوم الكارهون ، الأمراء ، أولاد الناس ، مسائير الناس ، مشايخ الطرق ، طلبة الأزهر والمجاورون ، سيرون في المحابيس ، كل من أمسكهم زكريا مساكين ، أرواحهم بريئة ، لم تجن دنيا ، لم يتامر أصحابها ، لم يسرق بعضهم ، لم يقل سيابا في طريق عام ضد أمير أو كبير ، الآن ، يقتش السجن بنفسه ، يتناول المشعل من مبروك ، يبتش تجاويف السجن بعينيه ، عطن وتتن يتصاعد إلى أنفه ، العفن لزج ، لكن صبرا ، ما قام به يدفع بالرضا إلى روحه ، لتخل التجاويف من الآهات والتاوهات والأناث ليألى معدودات ، لن تتردد أسئلة المتحشرجين إذ يسأل بعضهم البعض عن اسمائهم ، عن قراهم وبلادهم ، الأسباب التي جاءوا من أجلها ، زكريا عندما رأى المحابيس تعجب ، رأى وجوها لا يذكر أصحابها ، كانتهم جاءوا بدون علمه ، نسيمهم لتعاقب السنين وكثرة المشاغل ، الآن ، اطمأن زكريا ، يخرج إلى الهواء الطرى الآتى من أعالي المقطم ، يمكنه أن يخلو إلى نفسه ، مبروك يدرك تماما ما يريد استلا ، يتعدع مندجبا بالظلام ، يتحسس زكريا مقبض خنجره القصير سسموم النصل ، يقطع الفناء المتسع بخطوات ثلثة ، لعباته خفيف ، ضحكة ناعمة كخيوط حرير ، كشرنقة فراشة ، تجيء من أعلى ، بعضهم يتسامرون في الحرملك ، لن يخلو اللبلة إلى أي منهم ، لن يرى ابته

يس ، يدفع جزءا في جدار ، يغلقه ، يطلع سلام ضيقة تؤدي إلى أعلى طوابق مبنى الديوان المجاور لمبنى البيت . الناظر من بعيد ، حد البصر ، يمكنه رؤية نقطة ضوء تتسرب الآن من ثقبو المشربية . لكن مهما أوتى المرء من دهاء ، مهما انكشف عنه الحجاب ، لا يمكنه أبدا تخمين ما يضمه الطابق العلوى ، زكريا لا يجيء إليه إلا أوقات الاضطراب ، تقلل الأمور ، تغير الأحوال السريع المصحوب بالرتجاف الزمان . انهيار القوائم ، تحلل الأسياج ، قبل بداية العمل يلكىء إلى حشبة لينة تحجز عن ظهره برودة الجدار المكسو برخام أحمر ملون بأسود . يغمض عينيه . ما معنى الذى جرى ؟ حيرته الآن أشد حدة من اللحظة التي جاءه فيها الخبر ، حوله تشفق الجدران تسند طوابق خشبية مرسمة إلى مربعات وخانات ، كل منها يضم عددا من الدفاتر . تختلف ألوانها وحجمها ، هنا تلتخص الديار المصرية ، دائما يقول زكريا لأعوانه المصريين ، عندما أود الذهاب إلى أى بلدة فى مصر لا ابتعد عن بيتى . اجيء إلى هنا ، لكل بلدة قسم ، كل قرية ، أى كوم أو عزبة ، أى إقطاع فى بر مصر من أدناها إلى أقصاها ، كل دفتر يحوى أوصاف المكنز ، ما اشتهر به ، ثم أهم الأشخاص فيه . كافة ما يتوافر عنهم ، القسم الخاص بالقاهرة يحوى حاراتها وخططها وجوامعها . رجالها وشيوخها ونساءها وغلماها وجواربها وبيوت الخطا فيها وشرطتها وعسسها وقلعها وحماتها وأسوارها وخاناتها وطوائفها ومغبتها وملاهيها ، واسماء الأروام المقيمين والقدامين والراجلين والأفرنج العائرين . ومن يتصل بهم ويتردد عليهم من المصريين ، كل أمر كبير أو صغير هنا ، إما الأمراء وأعيان الناس ومشاهير الخلق فكل ما يتعلق بهم ، أمزجتهم وعاداتهم ، مشاربهم وأهواؤهم ، ما مر بهم من أراج وإتراح كله هنا ، يقول زكريا متباهيا ، هذا القسم فى الديوان مفخرة للسلطان وغرة فى جبين السلطنة المصرية ، لم يحدث قط أن أعد شيء كهذا فى تاريخ أى بصاص مصرى أو الفرنجى ، ويأتى الله العليم القريب سيجيء يوم يصبح لكل إنسان قسم خاص به ، يلخصه منذ أهة الميلاد حتى رعشة الموت . الآن ، يبحث بين الدفاتر ، بالضغط هذا ما يريد . دفتر أحمر مجلد بفلس . هنا يرقد المبشرون ولربابى الولفائف أصحاب الطوائف الصغيرة ، وفى آخره ملحق يتضمن من يلقن وصولهم إلى مناصب يوما ، نوعيتها ، لا ينكر ما دون عن بركات بن موسى ، شهاب الحلبي ناظر الديوان أضاف اسمه منذ عامين تقريبا ، لم يطلب زكريا صفحته للاطلاع عليها ، لا يدرى هل أضاف شهاب الحلبي معلومات جديدة عنه ؟ الآن يتأخر الوقت ، الليل يوغل حتى العظم . لولا سرية الأمر لأرسل فى طلب شهاب الحلبي ليجمع كل ما تتلكر من معلومات حول الزينى . لكن لكى يرسل إليه ، لابد من اجتياز هارات مسكوكة ودروب مغلقة ويتجنب عسس وعيون زكريا نفسه . ربما يثير استدعاء شهاب الآن ظنون البعض : لا داعى لحضوره ، لا داعى ، زكريا

يشفيق ، بوغت بإعلان الخبر . لم يستيق كافة رجاله في الديوان ، ولم ينظ ما اقترحه
 منذ فترة بخصوص تيسير سبل الاتصال بينه وبين نوابه ورجاله وأعوانه ، لابد من
 مراعاة هذا بسرعة وتنفيذ من الغد ، لولا حرصه على معرفة كل ما يضمه الديوان ،
 طريقة ترتيب الدفاتر والتقارير والأوراق لئلا الآن ، لا يدع أحدا من نوابه يستأثر
 بأمر ما حتى لو كان صغيرا تلكه الشأن ، لابد من إلمامه بكل ظروف العمل ، طريقه
 ومصاعبه ، حتى لا يلعب به أحد رجاله ، يخدعه ، لكن ما أحوجه الآن إلى شهاب
 الحلبي بلذات ، شهاب الحلبي لا يكلف روحه عناء البحث ، لديه ذاكرة عجيبة ،
 يعرف آلاف الأشخاص ، ما يخصهم ، لا ينسى أمرا أبدا ولو مرت سنون ، يذكر
 ما تبديل من أوراق وتقارير ، ما أضيف من معلومات وسطور ، في أي سنة من
 السنين ، الآن يقلب الدفاتر ، يمسك بالشريط الملون الذي يفصل الصفحات عن
 بعضها ، حرف الالف لا يعنيه ، غير مهم ، ربما مات بعض أصحاب هذه الأسماء ،
 بعضهم يجب نقله إلى دفاتر طبقات أخرى لتغيير أوضاعهم ، أو اختلالها ، أم مثلا
 هذا ، أحمد بن عمر خادم مسجد سيدى سويدان ، أصبح إماما للمسجد يقرأ فيه
 الحديث والقرآن ويؤم المصلين ، تزوج امرأة حبشية ، يشاع عنه هواء بالحبشيات ،
 مع هذا مازال لقبه واسمه في طائفة الخدام ، كل حريمه هنا ، واحدة فلاحه من
 أوسيم ، أم أولاده ، منهم طالب أزهرى ، لا يجب تنبيه شهاب الحلبي ، ربما قيل
 وما أهمية هذا ؟؟ أبدا ، أبدا ، كل شاردة وواردة يجب تقييدها ، رصدتها ربما جاء منها
 مالا يدرى مخلوق ، هاهي ، الباء ، حرف الباء ، بالضبط بركات ، بن موسى ، أغلى
 الصفحة ، أقصى الركن الأيسر كلمة واحدة ، حروف خمسة لا غير ، العدد أسود ،
 الخط رابع .

* * *

« بركات » :

لو نظر جاهل إلى الورقة لفان خلوها من أي حرف عدا الاسم ،
 وما الذي يعنيه لفظ واحد في صفحة بيضاء ، ناصعة تلعب تحت
 ضوء الشموع المعلقة إلى الجدران المبطنة بالخشب والرخام
 والرفوف المزججة بالدفاتر ، زكريا يمسح الورقة بقلب صغير
 شفاف لا يعرف تركيبه إلا آلة ، شيئا فشيئا تبدي ملامح الحروف ،
 تتكشف الكلمات ، يد خفية تخطها ، زكريا يمر بالقلب مرات ، تفتح
 الهواء حوله ، لفظ أربعة سطور ، أربعة سطور فقط ، يستعبد بالله العلي العظيم ،
 ملهم البشر ، كاشف الأسرار ، عالم الغيوب ما لهذا الرجل لا يأتي من ناحيته
 إلا الحيرة ؟؟ كل ما خطه شهاب الحلبي أربعة سطور . (بركات بن موسى ، له قدرة
 الإطلاع على النجوم ، أمه اسمها عنقا) .

زكريا يطبق الدفتر ، أى شخص من سبط الخلق ، من طلبة الأزمز المشاغبيين ، أى
 غلانية . أى بلان جين مقل ، أو سننوسك ، لا يقل المكتوب بخصوصه عن نصف
 ورقة . وهذا الإنسان يسوى سطورا أربعة يتيمة . يغمض عينيه ، لئلا سكت
 لا يكشف سرا ولا خبرا . يعرف أن القوم يسهرون الآن . يهسون . يحطون أراهم
 فى المحتسب الجديد ، وما ينتظرونه منه . أه لو يجيء يوم يدرك فيه البصاض
 ما قيل على بعد الألف الفرى والبلاد . لا يبعد أمر على الله . لولا ثقة زكريا فيما نقل
 إليه بعد الغروب ما صدقه الآن . أكثر من مصدر . أكثر من بصاص . كل بصاص يجهل
 الآخر . نقلوا إليه أخبار سعى بركات بن موسى لحصوله على منصب الحسبة . ذهبه
 اليومى إلى الأمير قننى باى . طلوعه إليه . بقاءه عنده . حديثه إليه . ثم ثلاثة آلاف
 دينار كسلة سلمها إلى الأمير قننى باى ليلة الثامن والعشرين من رمضان المعظم بعد
 العشاء . ثلاثة آلاف دينار يشتري بها بركات منصب الحسبة . زكريا ينفخ الآن من
 فيه هواء سلطنا . ظن وإيقن وصول الحسبة حتما إلى الأمير طغلاز . أصابعه تقبض
 على حافتي الدفتر . هاهو أول الليل يسمع ما يحيره . ما يجعله ينطق لغفا يكرهه
 . لملا ؟ لكن هل يعقل هذا ؟ من أى طينة خلق بركات هذا . هل جاء المسيح الدجال
 متنكرا . هل نفذ إلى العالم ولم يدرك به زكريا . كيف . كيف ؟ . بعد إصدار المرسوم
 السلطانى الشريف . بعد الثناء على بركات بن موسى . بعد الانعام عليه بلقب
 الزينى مدى الحياة . بعد دفع بركات ثلاثة آلاف دينار ليشتري المنصب . بعد طواف
 المنادى نهارا بأكمله . بعد هذا كله يطلع من بيته فى بركة الرطلى . يشق دروبا
 جانبية . لا طلبخانة تتقدمه . لا بق كوست . بلا ضجيج . أول ركوب له . يطلع
 متخفيا إلى القلعة . ينبطح أمام الأمراء جميعا . يبكي . دموع حقيقية . لا شك فى
 ملحوة طعمها . ينطق ما يجعل زكريا يروح ويجيء حتى الآن . لا يعصى لأمره ابنه
 الوحيد . أى من حريمه . يثقل الليل فوقه . لا يعنيه إعدام على بن أبى الجود .
 لا يهمه الآن استمرار الغورى أو خلع وتولية أسفل الخلق مكته . كل همه الوصول
 إلى تفسير لما جرى من الزينى بركات بن موسى . فى القلعة . وأمام من ؟ أمام الدولة
 كلها . ما لو سمعه إنسان لضرب الأكف عجبا ودهشة . فى سلكه خدر . طليور نعل
 رفيع يسرى تحت جلده . يحقد بديه وراء ظهره . ربما لم يدفع ثلاثة آلاف . لكن أبدا .
 لا أحد برهقة زكريا الآن . يهز رأسه بقوة . أبدا . أبدا . يثق من صحة عيون بصاصيه
 المتخصصين فى أمور قننى باى . يعلم تماما دخول ألف دينار . إلى خزائن الأمير
 قننى باى يوم استلامه البرطيل من بركات بن موسى . لم تصله إيرادات من أى جهة
 أخرى . أما الألفان المتبقيان من الثلاثة آلاف فطلعا إلى القلعة . أه لو يتخذ السلطان
 رأيا الليلة لاستقر زكريا . لكنه أمر الزينى بالانصراف حتى يرى من أمره ما يكون .
 زكريا يمسك الدفتر . يفتح الصفحة من جديد .

بركات :

من الليلة سيتولى زكريا بنفسه امر بركات بن موسى ، ليضيف شهاب الحلبى ما يروق له من معلومات إلى سطره الأربعة التى لا تبل ريقا ، لا تشفى غليلا ، يميل زكريا إلى دواب صغير يتناول منه دغترا مجلدا بحريير الخضر ، الليل حوله اخرس معصوب العينين ، يخرج من جيبه لفافة أوراق ، ما وصله من القلعة ، كل مدار فى قاعة البيسارية ، بركات بن موسى قبل رخامها ، بللها بدمعه ، لم يحدث هذا فى تاريخ سلطان من السلاطين ، منذ الآن .. كل ما يمس هذا انزيشى من قريب أو بعيد سيقروء بنفسه ، ينقله هو ، عيناه ستتولين امره كلما جاءت الفرصة وسنحت ، من تجويف ضيق مغطى بستارة صغيرة ، يتناول وعاء من فثار ، يغمس قلما خشبيا رفيع السن فى إناء ملون .

«الصفحة الأولى» :

عاشر شوال عام ٩١٢ هـ

على مرأى من الأمراء ، فى حضور جمع عظيم ، طلب الزينى بركات بصوت خدشه التائر ، أن يعقبه مولاة من وتليفة الحسبة ، قل بصوت مرتجف ، الحسبة يا مولاى ولاية يؤمن صاحبها على أحوال العباد ، وحاشا له أن أجده فى نفسى القفرة على هذا ، انا عبد فقير لا أطيق وصايتى على إنسان ، اتعنى انقضاء عمرى فى أمن وسلام ، بعيدا عن امور الحكم والحكام ، ما أريده رقة أمة ، لا يقلقنى فيها سب إنسان ، أو سحق مظلوم غفلت عنه ولم انصفه من ظالمة ؟ .

كوم الجارح :

عدهم كثير ، غير أن هدوء البيت لم يחדسه صوت عال ، فوق حشية قديمة مغطاة ببقياء سجدة لم يفلن الزمن زهاء الوانها ، يجلس مولانا الشيخ أبو السعود ، يطيل الإصغاء ، يعرفهم كلهم ، بعضهم حفظ القرآن على يديه عندما قضى من عمره زمنا مجاورا لعمود رخامي في مسجد سيدى سويدان ، أو مسجد سيدى إسماعيل الإيماني ، يدرس الفقه والأصول ، يفسر المتن ، يشرح الأحاديث والآيات البينات ، يلقى التواريخ ، ها هم يوغلون في سنى العمر الأخيرة ، يعرف الإنسان عند مروره بها أنه لن يعيش أكثر مما عثى ، أكبر شيوخ الطوائف سنا ومقاما ، الحدادون ، القصابون ، المرحومون ، البنامون ، الشعراء ، مشايخ حارات ، اعيان وأولاد ناس ، يجيء سعيد بطبق كبير مليء بالبلح المجفف المفصول ، يستده أماسهم ، يميل الشيخ رضوان كبير القحامين وأكثر الموجودين تقدما في العمر ، « لن يفتحه .. لن يفتحه إلا أنت .. »

تبقى الكلمات معلقة في فراغ البيت ، يتسل هدوء عذب رفاق كسرب عصافير يطير على علو شاهق ، في اللحظات نفسها تختنق طرقات الحارة بزحام كبير ، تموت الأصوات كلها خارج جدران البيت ، تنفذ رائحة لا تنتمي إلى جنس نبات أو عطر معروف ، انتلاف الريحان بماء الورد المحفوظ بروح السوسن ، يتمهل كل منهم في تفكيره ، يغمق الهواء ، يميل إلى لون الرماد ، يملأ الصدور خشوعا ورهبة ، تتدحرج حبات المسبحة ، اصطدامها يسمع بوضوح ، إيقاع تكفير الشيخ أبو السعود ، يلقب ما يسمعه ، ما يراه فوق الوجوه .

« لم نسمع برجل مثله .. ونحن مفترضى إلا به .. »

إبتسامة خفيفة ، ذرات نور تنفذ من نقوب مشربية ضيقة العيون ، خاطفة كبرى من غمام .

« أعرفتموه ؟ »

يقول الشيخ القصبى شيخ حارة زويلة ..

« رفضه للمنصب خير تعريف به يا مولانا .. »

سعيد لا يقول لفظا ، ليدع الضيوف يتحدثون ، أول الليل في مجيئه المعتدل إلى الشيخ ، تحدث إليه بقليل أكثر مما قلته جميع هؤلاء ، آخر النهار لا يزوره لا سعيد بعد انتهاء دروس الأزهر ، يجيء المريدون في الصباح ، يقرءون القرآن الأحاديث ، بعضهم ينظف أركان البيت ، يقدم إلى الشيخ لزامه من الثين الرائب الخبز السلخن الطرى ، القصى أماسهم كلمة من الشيخ إلى واحد منهم فيها رضا ،

سعيد لا يتخرج امام مولاه من ابداء ضيق او غضب ، ما يخشى التصريح او التلميح به بين الجموع في الاسواق او اروقة الأزهر ، يقوله هنا ، حتى لو رأى فيه جراءة ، يفكر إليه مولانا ، عيناه تنفذان بسرعة عبر اسوار روحه ، لا يمكن لسعيد او أي إنسان من الحاضرين تحديد عمر الشيخ ، في التجاعيد اثار عشرات السنين ، ربما تجاوز المائة ، الصوت والقامة يحويان صلابة جذوع النخل ، يكره الانطواء ، يعرف سعيد أي وجد يبهجه إذ يسمع صوت الرعد ، يقول ، هذا حس الدنيا ، صوت الكون ، لا يفهمه ويفسره إلا العليم الرحيم ، لم يره إنسان لحظات إصفائه إلى صوت الرعد ، فرحته بنزول النقطة ، أول دمة تنزل من السماء كل شئاء ، سعيد كل سنة يسمع الرعد في الرواق ، في المقهى ، في الطريق ، في لحظات تسلوله الغامض عما تفعله سماح في لحظة بعينها ؟ يتوقف ، يعلم تملأ أن الشيخ يصفي ، يلف في منتصف الفناء تماما ، تشرق عيناه بفرحة لا تمت إلى هذا الزمن ، تفرح روحه في كون آخر ، يتاجى الاولياء ، يذكر بالاسم ملجئ من احوال في كربلاء ، يترحم على آل البيت الذين لا يتسرب إليهم البلى والفناء ، أول همسات المطر يتلقاها عارى الراس بلا عمامة ، ممدود الكفين ، الآن .. ثوغل برودة ، ينفذ الليل إلى السماء وانقا اسود الجبين ، يميل الشيخ البهجورى كبير المرخمين .

، لم يحدث يامولانا أن رجلا متعمما او غير متعمم أيا كان مقامه أو رتبته ، عرض عليه منصب ورفض ، الناس كلهم ، المجاورون واصحاب الطوائف ، منذ سماعهم الخبر ولا اسم على لسانهم إلا الزينى بركات .. الزينى بركات ،

« ومن نشر الخبر يا ولدى ؟ »

الشتاء سماه الوجه ، بارد النظرات ، على البرودة ، حقيقة ، لا إجابة جاهزة عند أي واحد من الحاضرين ، لا يدري سعيد كيف تسرب الخبر من اليبسارية في القلعة ، ربما خدم القلعة ، ربما بعض المماليك ، كل واحد من المتحلقين حول الشيخ سمع الخبر بصيغة تختلف ، العامة في الحسينية يؤكدون ، لم يخف الزينى رأسا ، لم يحن هامة امام السلطان ، لم يرتجف أو يهب ، قال امام الامراء اجمعين ، لا اقبل الحسبة لأننى لا أريد رؤية الظلم واسكت عنه ، اما الناس في الجودرية وحرارة الروم الجوانية والباطنية فنقلوا طلوعه إلى القلعة نغيا تاما ، قالوا انه ارسل إلى السلطان مكتوبا يعترف فيه بابب وحسم عن ولاية الحسبة ، لأن الزمن دب فيه الفساد وكثر ظلم العباد ، وصار الخير والعدل في ابعد واد ، هذا يخالف طبيعته ، ينأى شخصيته ، المسئولية كبيرة ولن يساعده مخلوق ، بل سيطلب منه السلطان فرض مكوس جديدة على المسلمين ، الزينى بركات بن موسى لن يقبل هذا ابدا ، وقيل في بولاق ، والحمامات العامة ، خاصة حمامات النساء ، انه وقف امام السلطان كزينة الرجال ، واشجع ما يكون ، عليه الفرسان ، دفعه في صدره دفعا هينا حازما ، وهذا لم يقع من

قبل ، ولم يفعله أى إنسان ، قال ستأمرنى بظلم الرعية وإنا لن نأخذ هذا لأنى أخاف نسبة الظلم إلى ، كيف القابل خالفى يوم الحساب ؟؟

— الحق يا مولانا ، لا ندرى كيف تسرب الخبر لكن مثل هذه الأمور لا يطول احتجابها ، عينا الشيخ تبعنا صفاء ، من يصلح إذن للمنصب غيره ؟ من ينشر العدل بين الناس إلا رجل مثله ؟ يخشى الله ليس تصنعنا أو زيفا ، إنما يجهر بهذا أمام السلطان نفسه ، وعلى مرأى ومسمع من أعنى الأمراء وأشدهم بأسا ، والقوام شوكة ، قال البعض أنهم رلوه يدخل قصر الأمير فأنى بأى ولم يطلع حتى الآن ، السلطان نفسه لم يصل إلى حل قاطع ، سعيد يرى الآن الجامع الأزهر ، عمرو ابن العدوى يتنقل بين الطلبة والمجاورين ، يخرج إلى المقامى القريبة ، نكتكين الحلوى والمشبك ، يتسمع رأى الناس ، ما يدور بينهم ، أه لو اقتررب سعيد من هذا الزينى ، لم يره قط فى حياته ، كلما ظن خلو الزمن من الجراة ، تنفى الأيام انعدام المروعة ، دائما يصفى الشيخ أبو السعود إليه ، رواياته لما يجرى فى المدينة من فظائع ، ما من رجل شفق وراح على نفسه ظمعا إلا وسعيد يحفظ اسمه ، يخزق فلاح لسرقته ثمرة خيل ، توسط امرأة لعنت مملوكا فلما اختلط إبنتها البكر ، فى اليوم نفسه بجىء سعيد إلى مولاة ، يذكر الضحية ، يتسائل ملوما مقهورا ، كيف يجرى هذا ؟ كيف يعضى الإنسان بأرخص الأثمان لادبة له ، لا قوم يطلبون الثرة ، تتفرق الشفتان الرافقتان بطيف إبتسامة كعبير النعناع ، أحيانا يهمس ، الطف بتايا مولانا فيما جرت به المقادير .. حذقتا عينيه انطبع فيهما الموهول من الأمور ، الطواف عبر بلاد الله ، وصوله أطراف الدنيا ، عبوره صحارى لا حرت فيها ولا نسل ، اعتلاؤه جبالا تضرب قمعا فى شاطئ السماء ، نزوله إلى قرى فقيرة فى ربوع الشام ، صحراء الحجاز ، نجد ، حضر موت ، وديان اليمن ، سعيد لم ير فى حياته الجليد ، أحيانا يتسلط البرد من سماء القاهرة ، لا يحدث هذا إلا نادرا ، يطرق كالجارية لكنه غير الجليد ، فى السلحفاة البيضاء النفيسة التى تشع دخانا يتجمد فى الفراغ ، يمد صمت يرعش الخوف فى قرارة النفوس ، الفراغ والزمن بلا بداية ، بلا نهاية ، يقول مولانا ، عندما يبدو العلم بلا آخر ، بلا لائق ، لا نهائى ، غير محسوس ، لا يلقى ، عندما رأى بحارا يعلو موجها كالجبال ، حيث اليبسة حلم مازال بعيدا ووهما ضئيفا ، هنا تتجمع قوى غريبة فى أعماله ، يطلق صيحة فى وجه اللانهائى ، اللامحدود ، زعكة كبلج جبال كاف ، تحدث الزلزلة ، تجمد المحيط ..

.. حى .. الله حى .. موجود ..

أصحابه كثيرون ، يطلبون الصيحة نفسها فى أماكن عدة ، يلقاهم مرة واحدة فى كل عام إذ يصل إلى البيت الحرام ، يتبادلون الوجد ، يتناقلون ما رآوه ، ما قاموا به من أجل نشر راية الإسلام ، التذكير بأهل البيت ، بطراوة دم الحسين الذى لم تحفظه

لؤمته وعصور ، في الكعبة يرثون من لم يجيء ، من ذهب إلى ليد لا يدركه حتى ، بعد الحج ، إنتهاء الطواف واللقاء ، يولى كل منهم مقصده تلحية جهة من جهات الأرض . لا يعتمد الجسد ليلتين متعاقبتين فوق مكان واحد ، « الله موجود ، ممنودة تعبر الزمن ، تلين اليأس ، منذ أعوام جاء الشيخ أبو السعود ، رجع إلى بلدته التي لا مس رأسه أرضها ، إلى مصر ، من وقتها لا يروح ، لا يجيء ، يعيش في كوم الجرح ، يد إليه الدراويش الطوافون . أرباب الطرق ، في أي ساعة من ليل أو نهار ، لا يرجع طريق لو قصد إلا بعد رؤيته الشيخ والإفضاء إليه بمن جاء من ليله ، لوقت الصلاة حافل وحيد يمنع الحديث إليه ، أحيانا يقطع تأملاته ، عبوره لزمنا سحيفة البعد ، يصفي إلى صاحب حلجة ، يشعر عليه إمدتكمجا وإما تصريحاً ، مرة أخرى يود سعيد لو يشارك المشايخ أحاديثهم ، لو جاءه الليلة عمرو ابن العدوى ، يسأله عن رايه ، يحاول التحرش بفكره ، هنا يزغق سعيد ، لن يهرب عينا ، لن يخشى لئنا نتسمع ، أو تقريرا يرفع عنه ، لن يخشى زكريا بن راضي نفسه الذي يكفى اسمه وصيته ليث العرب في أوصال البلاد كلها ..

يقول الشيخ القصبي :

« والله يا مولانا إن لم يولوا علينا الزيني فلا خير فينا .. »

يقول شيخ الفحامين :

« لنا والله لم اسمع به في حياتي .. لا أعرفه يا أخوان ولم أره .. »

يميل مولانا إلى الامام ، يكف الشيخ القصبي ..

وكيف اختاره السلطان وهو لا ينتمي إلى أصحاب الوظائف الكبيرة .. مجهول

الفتن ؟؟

يلقى الشيخ سؤالا يثير به اسئلة ..

« ما أدرانا يا مولانا .. ربما غفل عن يعرفهم من اشرار وفجرة .. وهذاه الله إلى

الزيني بركات .. »

« لن يقنعه بولاية الحسبة إلا أنت .. أنت يا مولانا والبركة فيك .. »

يميل الشيخ أبو السعود هلعسا ..

« اللهم ول علينا خبرنا ولا تول علينا شرارنا .. »

★ ★ ★

الأربعاء .. عاشر شوال :

عندما سمعت بذهاب الزينى بركات إلى الجامع الأزهر ، ليخطب في
الخلق ، قلت والله لا تفوتنى رؤية وجهه أبدا ، ظننت اننى
الوحيد ، وعندما ذهبت لم أجد لقدمى مكانا وكأنه يوم الحشر ..
قلت لنفسى .. من أين جاء هؤلاء ؟؟

يعمل الصفى بلثع العطور فى الحمزاوى ، أحسن من يستقطر
الزيت من السوسن ، يلخص ويركز روح السوسن ، ييسطيه فوق

صدره .

أنا شفته ..

إليه ينظرون ..

« يا سلام على التقوى .. يا سلام على الصلاح .. كل ما قلته لا يصدر إلا عن رجل
ابن رجل ، مثله لم يخلق ليلتحنى أمام جبروت أو سلطان .. »

محمود النيان يسأل :

« أهو أسمر قصير .. سمعتهم يقولون انه أسمر اللون ، كبير اللحية ؟؟ »
« أبدا وجهه كأي وجه منا .. »

يضحك المعلم مرشدى :

« قال الله ولا فالك .. قصد انه يشبه خلقك انت .. خلقك العكرة .. »

يعود جلدا :

« رأيته يركب بغلة المحتسب فى الطريق فلم أحكم .. أهو قصير أم طويل ؟ لم أره
فوق منبر الأزهر .. »

هنا يقول عمرو بن العدوى ، وحبات مسبحة تندافع بسرعة ..

« قلت إن الروح لا تكرهه يا معلم .. »

« أى والله يا شيخ عمرو .. »

جاء صبي المعلم البصافى يحمل صينية مثقلة بأكواب الخروب ، يمسك عمرو كوز
الفخار باصبعه ، تتسرب رائحة المشروب إلى برودة الهواء ، من عادات الصفى
شرب التمر هندى ، والخروب والليمون فى قرارة أيام الشتاء ، يقول : هذا يفتح دروب
القلب ، يشرح الصدر ، شفتا عمرو تتملمان بأدعية قبيل شربه ، تنقل نظراته فوق
الوجوه لحظات ، تتراجع بسرعة منطوية تحت جفنيه المسدلين ، لا يتكلم كثيرا إنما
يصفى ، مع انكاسهم لا يخشى هفوة تنشئ به ، كل أرائهم تجيء على استنهم بدون
حرج ، لا يضطر إلى إلقاء جملة تهو عارضة ، مستتر ، الغرض منها توجيه الحديث
فى طريق بعينه ، برودة الخروب تنفذ إلى أطراف جسمه ، من النهار صعبا ، ليلة

أمس لم يتم الخلق . الدكتورين لم تغلق لحظة . أصحابها يجلسون أمامها . الأمراء
 اغلقوا بيوتهم . كانوا المبلخانة وقتا اطول من المعتاد بعد العشاء حتى ارتجت
 المعينة . بينما تجيء الأخبار وتروح كوج البحر الكبير يلمس صخر البقعة ثم يرتد
 عنه . الزيني نزل من القلعة . الزيني يطلع الآن إلى قاعة الدهيشة بالقلعة .
 أبدا . الزيني لم يغادر بيت الأمير قلتي باي . في الحجر طارت الأخبار . أرسل
 الشيخ أبو السعود في طلب الزيني بركت . مجاور أزهرى من مجاورى الأزهر الشبان
 سعى إليه . صحبه إلى كوم الجارح . حيث اختلى الزيني بركت بالشيخ
 أبو السعود . عمرو لم يهدأ . لن تفوته شاردة لو واردة . لا تمر عليه نظرة ذات معنى
 إلا يدركها . ضحكة غريبة الإيقاع لابد أن يرصدها . أى نكتة يقولها واحد من
 الخبثاء هؤلاء الذين لا هم لهم ولا شاغل في مثل هذه الأحوال إلا القعد على أرضية
 الأسبلة . وإمام الدكتورين المشبك . والسنبوسك . يضحكون . يسخرون . عمرو يعلم
 أنه ليس بمفرده . هناك من يراقب الخلق معه . يرقبه هو أيضا . يرفع عنه التقارير إلى
 مقدم بصاصى القاهرة . عندما أخبره المقدم نفسه بهذا تقلب على جمر . تسأل
 كثيرا . من هم ؟؟ حول الاستدلال على واحد منهم . ظن الظنون لم يستطع فائر
 صرف الفكرة . لكنها غثيب . تحوم دوما . لو رفع أحدهم حادثة وقعت على مرأى من
 عمرو . ولم يبلغ عنها . هنا يتعرض للمسألة . يتهم بالغفلة . مجاملته البعض على
 حساب الآخر . ليس أمينا فيما يتقله . ما يسمعه . يزعم مقدم البصاصين .
 يستدعيه . يقابله بنفسه . أنتم لا تعرفون ما الإقايه بسبب غفلتكم . السلطان يفرج
 إنزعجا شديدا . لا ينام ليلة بأكملها لمجرد واقعة مرت على واحد من رجاله . الستم
 عيونه . الستم أذانه ؟؟ إذا عميت عين طرشت أن . كيف يعرف أحوال الخلق إذن ؟؟
 كيف يعدل في الرعية . حادثة صغيرة تمر عليك تبدو لعيني المهمل غير ذات أهمية .
 لكك لا تدري . لا تعلم ما يتسبب من ورائها ؟ في زمن سالف الذكر . السلطان الأشرف
 قايتباي نامر عليه بعض الكبار . هل تدري كيف نامروا كأنما يخللون عيون السلطان .
 كبير البصاصين وقتئذ بلغ حدا من الدقة والقدرة على استبصار الأمور ما جعله
 يكشف كل مخامرة أو مؤامرة على السلطان . كيف استمر السلطان قايتباي . كيف
 عاش زمنا طويلا فوق عرشه . ثلاثون سنة كاملة . بمهارة بصاصيه . يقتلهم .
 همته . لجأ الأمراء إلى حيلة جديدة . يخرج الواحد منهم إلى خارج القاهرة . كأنه
 يتمشى . يستنشق الهواء عند بركة الرطلى . في بولاق . بين أشجار الأزيكية . في
 نفس الوقت . وقت متفق عليه من قبل . يبدأ الأمير المشي من اتجاه الطريق المقابل .
 يلحق الواحد منهما صاحبه . يزعم عليه . يصيحان كأنهما لم يريا بعضهما البعض
 منذ زمن طويل . ويتبادلان حديثا موجزا مختصرا سريعا جدا يتفلقان فيه على عظام
 الأمور . ثم يفرقان . من يخامرهم الظن . من يشك هنا ؟؟ من تراود عقله أدنى فكرة

ولكن الامر لم يمر عند الشهاب جعفر بن عبد الجواد انكى من تولي منصب كبير البصاصين في تاريخ الملوك والسلاطين . لا يلوقه إلا الشهاب زكريا بن راضي . ادرك المرحوم جعفر بواسطة عجوز تبلغ الثمانين .. هكذا ظاهرها . لكنها في الحقيقة امرأة لم تتجاوز الأربعين . جعفر اول من استحدث ضم العجائز إلى البصاصين وتعليمهن الشحالة ثم جلوسهن في الطرقات العامة . بجوار الاسئلة . بجوار المقابر . امام البيوت يطلبن حسنة او صدقة . لكنهن يرصدن الشاردة والواردة . المهم .. ادركت هذه البصاصة ما يتم كل يومين امامها . طريقة اللقاء بين الإمبرين . كل منهما يلقى الآخر فيصبح عليه : « لم أدرك منذ زمن .. » قيل وعلم هذا عند ربى كاشف الغيوب . إن المرأة البصاصة كانت غيباء . ادركت الأمور كلها عن طريق انذنها . من هذه الواقعة الصغيرة كشف المتأمرون . كبسهم الشهاب جعفر في الليلة السابقة على شروعهم في الركوب على الأشرف قليتبای . رحمه الله . اقرأوا التواريخ يا ناس . انتم عيون العدل . انتم العدل نفسه . كيف تعملون . كيف تدعون إمرأ يهونكم .. كيف ؟؟

قام المعلم الصفي ..

« نحمدك يا رب .. جرت الأمور كما نشتهي .. »

يبحث الشيخ القصبي عن عصاء ..

الليلة في الحمام إن شاء الله .. نفطس في الماء الساخن . نتطهر حتى نلقى المحتسب الجديد اظهرا أبرارا .. عند مروره علينا .. محمود اللبان :

« كنت تبغى استرداد عافيتك .. وطرد الرطوبة .. »

تترقق الضحكات . تهتز اللحى . يعيل الليل بسواده . يحوى النهار المولى . يودعون بعضهم بعضا ..

« ربما جئت .. عندي شوق إلى المغطس .. »

« المغطس .. والمكبساتي يا شيخ عمرو .. »

يضحك عمرو ضحكا خريفا . ترتعش أصابع يديه مرة واحدة . اصغى إلى مقدم بصاصي القاهرة . تحدث إليه معنفا عندما قلته نقل حوار دار بين ثلاثة من مهجري الشام . من لاحظتها ادرك انه تحت رقيب عنيد . أحد هؤلاء المعلم الصفي . اللبان . ربما الشيخ القصبي نفسه . ما عليه . لن يشغل عقله بهم . لماذا يتسائل ايهم يراقبه ؟؟ سيدعوه المقدم . يسأله . لماذا فكر في الوقت الفلاني بمن يراقبه ؟؟ لن يشغل نفسه بهذا . يا سلام . تتغير الأحوال دائما . وتتغير معاملة المقدم . عندما أرسلوا إليه اول مرة . مشى بعدها في الطرقات والارتياح يغزوه . فطرى المقدم صلاحه . كم من ازهرين فسدوا . اخبره انه يعرف حاله كله . يعرف انه لا يعيش

إلا على جارية الأزهر ، لا يصله درهم من بلدته ، بل هو في أشد الحاجة إلى دراهم يرسلها إلى أمه العجوز ، يوما أخبره المقدم باسم أمه وهو أمر ينسأه عمرو أحيانا ولم يذكره مخلوق ، ليس هذا فقط ، بل أخبره المقدم عن عمرها ، هي نفسها لا تدرى في أى عام جاءت إلى الدنيا ، ارتج على عمرو ، أصفى ، كيف يضربها زوجها الذى اقترنت به بعد وفاة والد عمرو ؟؟ تعيش الآن في تكعيبه بوص ، لو جرفتها مياه النيل أو الأمطار لماتت غرقا ، ربما تموت غريا ويردا ، عمرو ثقيب عنه أخبار أمه بقلشهور ، قال المقدم انه سيوافيه بأحوالها كل اسبوع مرة ، ليطمئن ، يمكن موافقاته يادق أخبارها يوميا ، لكنه لا يرغب أن يشغل باله ، أخبره المقدم بعدد المرات التى قرا فيها القرآن ، كل صباح ، فى عز البرد ، يذهب إلى بيت كبير من التجار ، يتلو الآيات البينات ، يرسل إليه الرجل طبقا به قطعة جبن حلووم وفول مدمس ملء قبضة اليد ، وكوز من لبن الماعز ، ونصف درهم .

، تلاوة القرآن يا عمرو فى بيوت الأعيان لا تليق بمجاور أزهرى ، إنها صناعة الفقهاء المعنى ، أنا شخصا لا أرضاها لك ، لا ارتاح إلى هذا ، يقلقنى جدا .. صدقنى يا عمرو يضايقنى وأنت طالب أزهرى ، ربما أصبحت فى يوم ما .. وهذا يصح بإذن الواحد الأحد الفرد الصمد .. ربما صرت قاضيا كبيرا ، تفصل فى أمور هؤلاء الذين يرسلون لك لبن الماعز والفول المدمس لتفطر ، لتسد جوعك ، بإذن الله سوف تساعدك نحن فى أن تصبح قاضيا .. رئيس ديوان .. شخصا له هيبة ومكانة ، إنما دعنا فى حالك الآن .. هل ترتاح إلى هذا .. لا .. لا أظنك ترضى .. لا .. لا يا عمرو اعتبرنى أنا شقيقا لك .. لا تخف عنى امرا .. حتى مشكلتك الخاصة ، الخاصة جدا .. يح لى بها وأنا .. أنا وحدى أساعدك فى حلها .. ثق بى .. ثق بى أرجوك ..

بجوار عمود الرخام الثالث من يمين الجدار القديم فى الأزهر ، يقول الأزهريون إن ثمة طلسمًا مدفونًا تحته يمنع العصافير والثعابين والعقارب من الجامع ، قعد أوقاتا طويلة ، يناجى أمه العجوز ، أمه تعلق جذور الفجل والبيطاطا من غيطان بنها ، والبلاد المجاورة ، تودد الأفران ، تنقل الحطب ، تحزم البوص ، تحش النجيل ، لم تعرف راحة ، لم تغمض عينها ليلة على هناء شحيح ، من مدة عرف بفسر شيخ زاوية العميان إلى بنها ، جهز زوادته وبخلته وعزم امره ، عمرو وقتها لا يملك درهما ، الشيخ سيعضى إلى البلدة التى تعيش فيها أمه ، سيعرف الناس ، وتعلم أمه بمجىء رجل من مصر ، من الأزهر بالذات ، إنها لم يرسل معه حتى حبة سكر أو قماشًا أسود تلف فيه جسمها علما كاملا ، ربما تظفنه ميتا ، دهسته خيل العماليك ، راح فى وباء ، ليلة بطولها لم يرم عمرو ، يضيق به الحال ، حجر هائل كجبل المقطم يرتفع إليه ونيدا ، دار على أصحابه فى الرواق ، يجلس إلى الواحد منهم ، يخوض فى أحاديث قريبة وبعيدة ، يضحك مع الضاحكين ، إذ بهم بالسؤال ، يتعقد لسانه ، يرتج

صوته . تخونه الحروف والألفاظ . يقول هذا لا يصح . سامضى إلى آخر . يعبر
صحن المسجد . لن يدور لن يلف . لكنه يجلس فيعتقد العرق فوق جبهته . يختلط
عليه الأمر . تخونه الألفاظ . تشنق المعاني على لسانه . يدهمه الخجل . هذا الوقت .
يذكره الآن بمرارة وحنن كعقل يهب من الجبل يعكر يوما صافيا . لم يعرف وقتئذ
واحدا من المعلمين أو أصحاب العتاجر لو رواد الحملات الذين يجلس إليهم الآن .
يستمع ما يقولون وينقله . وقتها كفى خجولا . حيبا . لم يجرؤ على اقتراض دراهم
يرسل بها حاجة أمه . حمل جرابته من الخبز الجاف . في النهار . يلف المجاورون أمام
الأزهر يبيعون جراباتهم . أو يستبدلون بها الغموس . خرج إلى الطرقات بعيدا عن
الجامع . بولته أحد المارة رغيفين بقطعة جبن قديمة . في المغربلين والصنغافية .
والعطرلين . والفحامين . وأهالي الجوردية وسوق الشرايشيين والمارة في شارع
الصلبية . والمتسكعين عند باب الوزير . كلهم همزوا رموسهم . قللوا . على الله .
وكلما اقترب الليل يزحف سواده إلى القلب . يرى جبل الحجر أكثر قربا منه . تعثر
الهواء في صدره وكبأ . فوق حجر قديم قرب جامع الحاكم عقد ساقيه . رفع يده .
إنساب صوته عاليا بالآيات البينات . نزل البرد ونفذ إلى حشاه . يرى عيني أمه
فتوشك عظمه أن تضىء بما يشتعل فيهما من هم . القرب النهار . سمع صريحا .
أبواب الحارات تفتح . طلعت الشمس وفي يديه أحد عشر درهما . القاهما إليه مرة
مجهولون . لم يروا وجهه . لم يعرفهم هو . اشترى سكرا . وحلاوة معقودة . وفي
زاوية العميان شق فؤاده نصل ثقيل ..

• الشيخ سافر في الحجر يا عمرو ..

هاهو مقدم البصاصين في القاهرة :

• عمرو .. لا قبل هذا لك .. لا أرضاه لك ..

في البدء بدا رقيقا . أم : بهز عمرو رأسه . لكل قول آخر . خجله من مخالفة
الخلق . أين هو ؟ ابتعاده عن الناس . أين ذوى ؟ ما يخشاه الآن . غضب المقدم .
بعد الهوة الأولى عفا عنه . الثانية من يدري ماذا يجزى ؟ يتفصل الرأس عن
الجسم . ما أسهل الأمر . ربما قتلوه بقية عمره حيا . يصبر فضيحة متحركة . تشير
إليه الأصابع . يطرده المشايخ . الحمد لله فحتى الآن لم توجه إليه نظرة . لم يقل له
أحد كلمة ذات معنى . ها هو ذا النهار يولى . لحظات نزول الليل يحلو الكلام . تكثر
الفضيحة . ثم يكتمن باعة الحلوى . التريزية . في زاوية سيدى الحلوجى جماعة
من قصر الشوق يسهبون بعد صلاة العشاء . يفسرون الآيات . الأحلام التى طلعتهم
في المنام . لا يتفاد غريب إليهم . لكن مجيء عمرو المتكرر إلى الزاوية . أدأوه
الصلاة . تادبه عند إصغائه إليهم . طول صمته . هزة رأسه لا تنقطع بالمواقفة على
ما يقولونه من أراء . يطالعهم بمظهر تلميذ يحرص على الاستفادة من رجال خبروا

الحياة . المواءم بالعلوم . الأيام قريته منهم . لو تغيب ليلة يسألون عنه . المقدم يثنى عليه دائما . يشيد به لنجحه في النفاذ إلى هؤلاء . حديثهم خلقت على غير عاداتهم . توشك انهاء على سماع جديد . يخرج عن مألوف ما يرفعه . ربما يبلغ السلطان . يقترب عمرو من المقدم أكثر . يندى رضاه . يثنى عليه . منذ فترة لم يره عمرو . بضن عليه بلقائه . تقاريره يتسلمها نلقبه الحبشي . يتسائل عمرو . هل غضب عليه . هل يدبر له أمرا ؟؟ ها هو ذا المعلم حليم الدين يعط شفتيه :

« والله يا مشايخ فرحة الناس لا تأخذني .. »

يلتمس عمرو :

« أي والله .. أي والله .. »

« الأيام علمتني الحذر . لم تر منه ما يسر أو يضر . فلم هذه البهجة كلها . ثم .. »
تنظر إليه العيون ..

« ما اتاه اليوم لا يعجبني ... »

بسرعة تخرج كلمات عمرو :

« لماذا يا مشايخ حليم الدين ؟؟ »

اه : لماذا التسرع ؟؟ هل بدا في سؤاله ما يريب . احدهم على وشك أن يسأل نفس السؤال . المفروض ألا يوجهه هو . مازالت عنده خفة . لو الجمع كبير لسجلت عليه رثة من أحد الذين يعرفونه ولا يعرفهم هو . لكن . من انراه ؟؟ ربما تنصنت الجدران . ربما يرقبه أحد . يقرأ ما تنطقه شفتاه بدون الحاجة إلى سماع حسه . يعلم بوجود هؤلاء البصاصين : ألم يقل مقدم البصاصين : « لدينا طرق لا تخطر على بال إنسي أو جنّي نعرف بها الحقيقة . حتى لو همس بها المرء وراء جبل قاف » . اه : لابد من التزام الحذر . يهدوء ليرقب رد الفعل بينهم ..

★ ★ ★

أول الليل : الأربعاء عاشر شوال :

اخيرا ها هو ذا مبروك ، يحمل لفافة اوراق ، طال ترقب زكريا لوصولها ، في الصباح سلمه مبروك تقريرا عاجلا ، اعده مقدم بصاصى القاهرة ، يحوى حركة الزينى بركات ، كيف انتقل من بيته اول الفجر بصحبة طالب ازهرى إلى كوم الجارح ، قضى مع الشيخ ابو السعود زمنا خرج بعده من البيت ، ومع اول مجيء الشمس إلى الحواري والدروب ، طاف مناد جديد لم يسمعه الناس من قبل ، قيل إنه احد خدم الزينى ، نقل إلى اهل المدينة ما عزم عليه الزينى بركات ، من ذهاب إلى الأزهر الشريف ، عنده كلام سيعلنه على الخلق ، مناد جديد لا علم لزكريا به ، صحيح من حق المحتسب إطلاق مناد خاص من عنده ، ينقل إلى الناس رغباته وحكامه ، هذا ما تنص عليه الاصول ، لكن الواقع يكذب هذا ، يلغيه ، جرت العادة منذ عصر الشهاب جعفر كبير بصاصى الأشرف قايتباى أن يتبع جميع المنادين لكبير البصاصين ، ترسل إليه نصوص النداءات ، طريقة نشر الحلاوة او الخبر قد ينتج عنها أمور جسام ، بل أن كبير البصاصين يتنبه بضرورة تحمس المنادين عند نقل خبر بعينه او تصنع الحزن والفقر لحظات نشره ، كلها عوامل تؤثر في الخلق ، هناك مناطق وخطط في المدينة يجب الا يطوف بها المنادون ، كيف يظهر مناد لا يعرفه زكريا ؟؟ كيف لا يراجع نص ما يقوله ؟؟ ثم إن الزينى بركات لم يحتسب بعد ، كيف يعطى لنفسه الحق في مخاطبة الناس بلا رقيب ، بلا وسيط ؟؟ هكذا يبدأ ايامه بإخلال الأمور ، يعيث بالفتنة ، في بداية النهار كان زكريا مرهقا ، الليلة السابقة قضاهما بعيدا عن حريمه ، عن وسيلة الجارية الصغيرة ، لم يمض عليها أكثر من أربعة ايام في بيته ، حاول التفرغ عبر الايام ، أى أحداث مقبلة ؟؟ هذا الزينى لا يشير اطمئنانا ، منذ سماعه باسمه ، ولا يجيء من ناحيته إلا عجائب الأمور ، قبيل الفجر أرسل إلى مقدم بصاصى القاهرة يأمره بإعداد ثلاثة مطلب مفصلة ، جمع أقصى ما يمكن من معلومات وبيانات عن الزينى بركات وإرسالها إليه أولا بأول ، ثانيا ، استنظار كافة بصاصى القاهرة ، لتتلفت عيونهم إلى كل صغيرة وكبيرة خلال تجمع الناس ، إصفاؤهم إلى ما يقوله الزينى ، المطلب الثالث ، أن يرتفع عدد التقارير التي ترسل إليه في مقررته إلى أربعة وعشرين تقريرا ، بواقع تقرير كل ساعة ، على غير المعتاد ، وهو إرسال تقرير في اوقات الصلاة الخمس ، ثم تقرير مفصل بعد العشاء يتضمن احوال القرى والبلايا ، إن ما طرد بقليا النوم من عيني زكريا ، ما جعله يأكل بسرعة ، لا يفكر في وسيلة الشلعية إبنة الستة عشر ربعا ، ما جعله يهمل تهذيب لحيته ، لا يشرب الحليب الطازج المحلى بالمسكر ،

تسأله الملح ، ما الذى ينويه الزينى بركات ؟؟ ما الذى سيلوله للعمة . باى لسان يتحدث ؟؟ هل هناك سابقة لما سيفعله ؟؟ أبدا . زكريا يعرف الأحداث والتواريخ القريبة . والبعيدة لم يتحدث محتسب فى جمع من الناس قط . بل لم يسبقه أى أمير . كبيرا أو صغيرا فى هذه القفلة . تحدث العظمى إلى العمة مباشرة يفقه هيبته . يضيع مهابة الحكم والحكم . يتناول العمة على الكبار . إذا كان ناظر الحسبة يتكلم إليهم . فلماذا لا يفعل مثله الأمراء ؟؟ ألم ينبهه أحد إلى هذا ؟؟ أول النهار دخل زكريا إلى قاعة الثياب البديلة . غرفة طويلة . ضيقة . تحوى كل ما يخطر على بال من ثياب . عمام سلطانية . وأخرى لا يرتديها إلا مقدم الاكوف . سلازيت . معاطف فرو . سراويل شامية . جلابيب بدوية . فرجيات لمشايع الأزهر . قفلاطين . جلابيب رخيصة لبائعي حلوى . وجزارين . ونجار فلكنة . زكريا يعرف مقصده هنا . انتقل جبة بيضاء متسخة . عمامة خضراء صغيرة ملفوفة بشال أحمر . امسك عصا من سعف النخيل . خرج من الباب الخلفى للبيت درويشا من اتباع سيدى مرزوق . لتعبد سيدى أحمد البدوى . مشى متمهلا . يتوقف بين الحين والحين . يطلق صيحة قوية . .. الله حى .. الله حى مدد .. مشى على مهل يتبعه جيران الأخرس . أحد رجاله الأثداء . دائما يسافر معه . يجمعه من غوائل الطريق . ما تخبئه النفوس من حقد . ربما تجسد فى خنجر ينسل محاولا إيجال الطريق إلى قلبه . برغم همه وحيرته . ابتهج كعادته إذ يلقى نفسه بين الناس . لا يعرفه أحد . حتى لو التقى به القرب المقربين . مقدم البصاصين نفسه . لن يتبينه . أى واحد من هؤلاء فى متناول يده . ليس هو عيون السلطان وإذاته ؟؟ آلاف الرجال والنساء والأطفال يتبعونه . لا يعرف بعضهم البعض . يتكلمون الهسهات والحركات من البيوت والربوع . من كل شبر فى المدينة . إذا شد شهيق إنسان عن البقية عرفه . نعى إليه بواسطتهم . لكنه عندما دخل الأزهر ارتاع فعلا . لم يحدث أن رأى مثل هذه الجموع . انتابه غم . كيف يسكت السلطان . اندرون العاقبة من تجمع كل هؤلاء ؟؟ ما يجرى خطأ فظيع . لابد من تنبيه الكبار والسلطان نفسه . السمكوت على الأمر ربما أدى إلى استنحالته . انتشاره . هذا ما لا يسمح به أبدا . هذه سابقة تنذر بعواقب لا يعرفها الجاهلاء . هاموا ذا زكريا الآن يفرد اللقطة التي انته بها مبروك . تقارير مقدم بصاصى القاهرة . جمع فيها وأوجز وأوضح خلاصة ما تلقاه من عيون وأرصاد طوال اليوم ..

فوق منبر الأزهر القديم وقف . المسجد يفيض بالخلق من كل لون وصنف زعلوا فارتجت الأعمدة . وكادت المائات تميل . بدا وكأن كل قوة ستعجز عن إسكاتهم . لكن الزينى رفع يده اليمنى . مفردة الأصابع (يده عادية . أصابعه خمس) . وكان قوة سحرية تسيل منه . طاف الصمت مقلقا الفواء الناس . قبل فيما بعد انه أوتى مقدرة على جعل الخلق يصمتون . ولو أراد أن يذروا الدموع للفعل . سرى صوته بين

الناس هنا ، قل ما سمعناه :

« لولا ، انه لم يكن يقبل الحسبة قط ، لولا اطلاعه الامراء على ما ترتضيه روحه لراحة العباد ، ولولا الشيخ العارف بالاصول والفروع ، الزاهد الناسك ولي الله ابو السعود ، لما قبل ابدا ..

(هنا على زعيق الناس ، ردوا ، ما نريد إلا انت ، ما ينفع إلا انت ، إلى غير هذا من الضمائم التي تؤدي المعنى نفسه ، وإن اختلفت الجمل والالفاظ ، عادت يده تهتز بتؤدة المستكان العلة واصفوا) .

« ثانيا ، انه لا يخشى إلا الله ، كيف يلقي ربه إذا ظلم مخلوق من قبل أحد نوابه وهو لا يدري ؟ هذا مالا يطيقه ولا يمكنه سماعه ابدا ، من هنا ، لو وقع ظلم على إنسان ، فقير أو غني ، ناه أو دأن ، فعليه بالتوجه إلى تكتبه إن لم يقتص من ظالمه بعد شرح قضيته وظهور العدل فيها .

« ثالثا ، ان يملك في القاهرة ، إنما سيلف الوجهين ، فقد اضيفت إليه اليوم فقط نظارة حسبة الجيزة ، سيدور ظاهرا احيانا ومتخفيا حيناً آخر ، يطلع على احوال الناس ، لما بيته في القاهرة ، فمفتوح اطراف الليل وأثناء النهار لكل ذي حاجة ، لا حاجب بينه وبين الناس ، صغيرهم أو كبيرهم ، على اختلاف مراتبهم ، لو ظلم أحد من البشر فليقتص منه على مرأى من الجميع ..

« رابعا ، وهذا خطير » :

« في كل حارة ، ودرج وقرية ، وبلدة وإقطاع ، ستكون له عيون يرصدون ويتعسسون المظالم أينما تقع ، يبلغونه بها ،

(بعد خروجه من الأزهر ، شق طريقه راكبا بغلة عالية بسرج متواضع ، وكنبوش عادي) (اثار هذا رضاء الناس عنه ، قالوا ، انظروا ، كيف العدل والحكام ؟) ، استمر موكبه حتى وصل سوق الشرايشيين ، قابلته المغنيات بالرقص وبنق الشبابة والدقوف ، وانطلقت له الزغاريد من الطيقان ، بين يديه مشى ثلاثة من نوابه الجدد الذين لم يطلع على وجوههم إنسان (جار البحث عن اصولهم) ، احدهم يحمل سيفا ، وآخر يحمل ميزانا ، وحينما ، والثالث يلوح بمصحف كبير يلثمه بين الحين والحين ، خلف الموكب مشى عبد العظيم الصيرفي ، اما الزيني فراح يهز راسه هزا خفيفا وعلى وجهه خشوع وتقوى ..

لغة أولى :

اجمع رجالنا على وجود مطلب ازهرى ، بقى طوال الركب على مقربة من الزيني بركات ، بدا متحمسا ، بالكشف عنه ، الفصح انه هو الذي صاحبه من بيته إلى زاوية

الشيخ أبو السعود في كوم الجارح ، واسمه ، سعيد الجهيني .

لفتة ثانية :

عند اقتراب الموكب من جامع الحكم ، قبيل عبوره باب الفتوح حيث يمكن لعيني العابر رؤية أسوار سجن المششرة ، ومدخله العلوي ، ظهرت امرأة سمينة ، متقدمة في العمر ، ترتدي السواد ، تنتهج بطرحة قديمة ، شقت لنفسها طريقا حتى وصلت أمام بغلة الزيني ، زعلت زعلة عظيمة ، حتى حطبت بانتباه الخلق ، طلع عليها طلوع لا يهتف إلا بكلمة واحدة .. بلانيم بلان اللثيمة . وعندما تنبه العامة هجموا عليها ، ذابت كخص الملح ، وجار الكشف عنها ، وتحرى حقيقتها ، من هي وما أصلها ؟

لفتة ثالثة :

اطلقنا احد البصاصين المهرة في اثر الزيني لرسم صورة دقيقة واقعية لعلامحه . سننقلها إليكم فور إتمامها لإطلاعكم عليها ، وإجراء اللازم من فحوص .
الآن يطل زكريا من طلقة المشربية ، الشتاء يتدثر بليل أسود بارد ، نور يلعب في النازجة المقلبة ، تسهر وسيلة ، تخشى مجيئه فجأة ، الليلة لن يحتوى نهديها ، لم ير مثلها طوال عمره ، صلابة وليونة ، رقة وفسوة ، خوف ونشوة ، إقبال وانقلاص ، اقتراب وابتعاد ، كرتا عجيبا ألمس طوع راحتي يديه ، يهوى نهودا لم تمسها يد بشر ، هكذا يشترط على عارف شيخ دكة الرقيق ، عارف لحد عيونه وانخلصها ، عندما جاءت وسيلة فرح بها فرحا عظيما ، استوثق فولا أنها قدمت فعلا من بلاد الروم ، ربما نسها عليه أمير ابتغاء غرض خفي ، قضى ليلته الأولى معها مبحرا في محيطات لم يطأها إنس ولا جان ، يربب الألم الأول اللذيذ ، رعشة تفرق في عينتين واسعتين ، فكر في تجنب العمل ليلاما ليرقبها ، يرتشف رحيق العمر الأول ، جاء هذا الزيني فجأة ، القصص عن الآفة ، وحلاوة الرعشة ، هاهو ذا يواجه سابقة لم يطلع على مثلها ، عليه بالحذر ، والثبات ، سيذكر فيما بعد انه تصرف بعقل ، بحزم ، ما يقوم به الآن سيراه الخلفاء فيستنبهون ويهتدون ، منذ قليل أرسل في طلب شهاب الحلبي ، سيحضر القلم والخبر الذي يجف بعد مدة بعينها ، مدة تكفي لوصول الرسالة إلى مقصدها ، وقرأتها ، ثم يجف المداد ، يتلاشى ، تعود الورقة بيضاء بعد يومين تضيح الورقة نفسها ، تطير كبخار صباح اشاعته شمس قوية .
حدث في زمن السلطان فرج بن برقوق ، ان اطلقت رسالة براس كبير البصاصين ، الآن لا يمكن لمتد أن يواجه زكريا بكلمة واحدة مدونة ، تنافس في هذا الأمر طويلا مع كبير بصاصي نولة الشام إسماعيل الصوفي ، قليل الرجل وهو من عتاة

البصاصين . يحسن بالبصاصن الذهب بنفسه إلى الأمراء ونقل الموضوع شطاعة .
 خلفه زكريا . الحديث لا يروح من الذهن . ربما شهد عليك جمع من الناس فاطلحوا
 بك . لكن ما الرأي لو وجد نوع من العمداء يخفى ويتلاشى بعد بلوغ العمداء من
 الرسالة . لم يقل تكبير بصاصي الشاه انه حصل فعلا على هذا العمداء . هذه وسيلة
 يتفرد بها ولا يفرط فيها بسهولة . كبير بصاصي الشاه انكر وجود مثل هذه الطرق .
 الزمن الذي يجيء بمثل هذا العمداء مازال ناعيا . لكن الليلة ستحصل رسائل منه . إلى
 الأمير قنك . وقلني باي . وقوصون . وطومنباي . وكافة كبار الدولة . سيئبر إلى
 ما اتاه الزينى من امور متكررة تخالف اصول الحسبة . تتعدى على وظائفه هو خاصة
 بعد إشارة الزينى إلى / إطلاق عيونه واتباعه . هل سيستحدث نظاما آخر
 للبصاصين . الدم يتدفق مختلفا في اوردة زكريا وشرابينه . ربما يعلم اللثيم
 ما يتبعه لحد المهرجات في الهند لا يكتفى بنظم واحد للبصاصين بل لديه ثلاثة
 نواب . يتبع كلا منهم فرقة خاصة من البصاصين . وهكذا يضمن استقرار الوضع .
 الا يتفرد بصاص واحد بالامور . وهذا الترتيب يعجب زكريا فيه دهاء من المهرجا .
 فكر في السفر إلى الهند ليطلع عليه . او يرسل احد نوابه المقربين لنقل تفاصيله .
 لكن مجرد سفر ناعيه سيثير الشكوك . ربما تراسى إلى السلطان خبز الترتيب المتبع .
 ينقله إلى السلطنة . هنا يضيع زكريا . لا يتفرد بالرأي . بالمشورة . لكن كيف يحصل
 الزينى على هذه المعلومات ؟ زكريا يملؤه غيظ . حتى الآن لم تحصل معلومات كافية
 عن الزينى . ربما يلقى مقدم البصاصين صعوبة في جمع ما يلزم . ربما يغفل الغبي
 عن أهمية الطلب . لابد من معرفة عادات الزينى . ساعات نومه . نسائه . إلى اى
 البلاد سافر . كم لغة يجيد . عاداته في الفراش . لابد من استقصاء امر المرأة البدينة
 والقبض عليها مهما كلف الأمر . وايضا الشاب الأزهرى . يبدو انه مقرب إلى ابي
 السعود . هذا يلزم له شأن آخر . سيوليه عنابة . الآن . يلف في منتصف الغرفة
 تماما . يمسك وعاء مملوء بالحليب الساخن المحلى بالسكر . يحب شربه كثيرا . بعد
 صحوه . أول الليل . يقول . اواجه نهاري بالحليب البسم ولكن ما يكون ثم اختمه
 به . إنه ليس شرها كالآخرين . الأمير قنك يجرع على الرقيق سطلا مرقعا بخلاصة
 مخلصي الديوك . تنبئ القلاويز ان باستطاعته ان يضلج سنااه الأربع في ليلة
 واحدة . يشبع كلا منهن ويؤويها . ولا يمل ولا يكل . مع تجاوزه الأربعين . من
 يدري . ربما يفضل الكوب الصبلي الآن . تيرق في ذهنه خاطرة . سيخاطب الزينى
 بركات راسا . صحيح . المعروف ان يبدأ المحاسب الصلة معه . باعتبار ان كبير
 البصاصين ناعيه . لكن زكريا سيغير بجس النبض . الليونة مطلوبة الآن . على ورق
 عدى . بعداء عدى . سيامر شهاب الحلبي بكتابة رسالة إليه الليلة . في نفس الوقت
 تضى الخطبات الأخرى إلى الأمراء .

اللهم اجعل هذا البلد آمناً

إلى الزينى بركات بن موسى

ناظر الحسبة الشريفة

نبدا بان نشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له . شهادة
نقيمها في كل حكم . وتحاور سيوفنا جاحديها فننهض بالحجة
عليهم وهم يَكْفُر . ونشهد ان محمدا عبده ورسوله اشرف من النمر
بالعدل والإحسان . وأعدل امرأته بالقورن بالقسط . صلى الله عليه
وسلم وعلى آله وصحبه الذين احتسبوا في سبيل الله جل عناهم .
وسلم تسليما كثيرا . وبعد ..

اعلم اننا بدانا إليك بالمراسلة . وأردنا إطلاعك على ما تحويه المكتبة . ابتغاء
من العباد . في سائر النواحي والبلاد . لانكم ان تطلعوا على خفي الأمور . إلا بما
خلق الله بين المسلمين من عيون . ولن تصفوا الى ما يدور من تلك الهسات ذات
لغرض الخطير . بين الأمير والحقير . إلا باستنادكم الى جهتنا . والاستعانة بنا .
لهذا ما سار عليه نظام السلطنة منذ ان وعينا وادركنا . وجرت العدة الا يتولى هذه
الأمور التي تدرا الصغائر والكبائر من الشؤون . إلا نيقبنا التي يخدمها آلاف الخلائق
من لا حصر لهم ولا عد . وهم في خدمة السلطان ورجاله لا ينامون . وحفاظا على
راحة الرعية يسعون . يكونون ويشقون . من هنا رأينا الإشارة عليكم . وإعلامكم بما
يجب ان يتم من جانبكم . وهو ضرورة إرسال مطلب مفصل إلينا . كل ليلة . نطلع منه
على ما تم من مخالقات ضبطتموها . حتى نعرف من ارتكبوها . فندرجهم في زمرة
الاشقياء . ونحرم الانتفاء والأولياء . كما نرجو الاستعانة بمن يتبعوننا من منادين .
لمراجعتنا ما يقولون . ما يوجهونه الى العامة ويتكلمون . فهذا الامر الذي يبدو لكم
ثاقلا حقيقا تترتب عليه عواقب منها الضرر والخطير . يمكننا شرحها لكم عند اول لقاء
بيننا لأننا نهدف الى ما فيه سلامنا . وللعلم . فهذا ما درجت عليه النظم والرسوم .
منذ وقت غير معلوم . وما نقوم به من زمن . وما سنؤديه إذا امتدت بنا فسحة الأجل .
وليسست هذه نظما من اختراعنا إنما اصول درج عليها أجدادنا .
ولكم سلامنا

عاشر شوال ٩١٢ هجرية

كبير بصاصي السلطنة

الشهاب الأعظم

زكريا بن راضي

بعض مما وجهه كبير البصاصين

« الشهاب الأعظم »

زكريا بن راضى الى الساطان والامراء

« ... وإذا اوضحت هذه المخالفات ، ساعد ، غير اننى على سبيل الاختصار اوجز فالقول :

اولا : لأول مرة ، وليس لها سابقة أبدا ، يحدث ان كبيرا يجمع عامة مصر كلهم ، اساقطهم واعاليهم ، يخطب فيهم ، مهيجا جوارحهم ، ولا يعلم إلا الله اى جمرة تاركان مسكنا ان تنطلق فى البلد ، فتكيد ولا تنطفىء ، لولا إستنفار رجالى ، ومحافظةهم على الأمن والأرواح ..

ثانيا : إطلاقه منادين لا يعرفهم احد ، لم أراجع النداءات ، لم ارتبها ولم اطلقها الوجهة المقصودة ، ولست بحاجة الى سرد دلالات هذا الامر الخطير ..

ثالثا : إذعانه ، تلوينه بقرب قيامه بانشاء فرقة خاصة من البصاصين تتبعه ، يشرف عليها بنفسه ، وتؤكد لى هذا بعد اطلاعى على مكاتبات نوابى التى لا تخطئ ، والتى ترصد حياة الزينى منذ نشأته حتى الآن ، كل ما يدور عنه ، والقصدى من هذا سلامة الأحوال ، ولا يسعنى إلا التنبيه بما يصبح عليه الحال لو ان كل موظف ، كبيرا كان أو صغيرا ، انشأ له فرقة من البصاصين ، يوجهها كيفما شاء بلا رقيب أو سلطان ، واننا لن نسمح أبدا بهذا ، وساحول بونه .. فاننا ورجالى فقط عينا السلطان وانناه .

رابعا : تنفيذ التقارير ان العامة بدأت عيونهم تتفتح على الامراء ، كل منهم يقول لماذا لا ينزلون أو يخطبون فينا ، لم هم اقل شأننا من الرجل الطيب الزينى بركات ؟ ؟ وبعد ، فلا اطلب منكم إلا تبصر الأمور ، وإلا سارت بعكس ما نهدف وما نبتغى ، واضطرب النظام وضاع الأمن ، وراح السلام .

واتشهد الله ربى ، كاشف الغيوب ، على صحة ما اقول .

« عاشر شوال ٩١٢ هجرية »

« كبير بصاصى السلطنة »

الشهاب

زكريا بن راضى



● رسم : اميدو بريوسى

لكن ماذا ستأتى به الايام ؟ بل ماذا يخفىء اليوم نفسه ؟

السراق الثاني

شروق نجم الزينى بركات، وثبات أسرة،
ولهاوع سعدة، وإلتساع حظها

نساء

يا اهلى مصر
 امر مولانا السلطان
 بتسليم المجرم ابن المجرم
 على بن ابى الجود
 إلى ناظر الحسبة الشريفة
 الزينى بركات بن موسى
 ليتولى امره
 ويأخذ حقوق النفس منه
 ويذيقه ما اذاق لعباد الله الفقراء
 المستكين الأولياء
 يا اهلى مصر
 يا اهلى مصر
 كل من وقعت عليه مظلمة
 كل من سلبت منه حاجة
 كل من راح ماله بالباطل
 بتسبب على بن ابى الجود
 عليه التوجه إلى باب
 الزينى بركات بن موسى
 ناظر حسبة القاهرة . والوجه القبلى
 ليرد عليه حقه وماله
 يا اهلى مصر
 يا اهلى مصر

سعيد الجهينى :

طال به حب هذا البيت واهله . حجارته . اخشاب مشربياته .
 نقوش جدرانها . الضوء فى فراغه . قاعة ثلاثة القرن فى رمضان .
 عالية السقف . قرب منتصف الجدران نوافذ ضيقة . يعال من ورائها
 الحريم . يستمعن إلى الآيات البيّنات . امفات عيون الغرباء . من
 إحدى النوافذ تطل . ترقبه . تتأمله . عيناه تحتويان قطع الرخام
 الصغيرة الملونة ترصع لرضية النافورة التى تتوسط حديقة
 البيت الصغيرة . الحشايا الوفيرة التى تحول بين صلابة الجدران ورقة بدنّها .
 سماح تما الممرات بدمعها عندما يخلو البيت من الزوار . راحة خفيفة فى صدر
 سعيد . لا يعد هنا من الغرباء . لحظت إصغله إلى الشيخ ربحان . يراها بعينى
 قلبه . تروح وتجيء فى إحدى الغرف . تنظر من نافذة . تضطجع إلى حشية .
 وسادة . منذ سبعة شهور . ثالث أيام عيد الفطر جاءت . مال رأسه . متكل بحيرة .
 يخل . باضطراب . احتوى راحة يدها الصغيرة الدفيقة . رعشت الأمل فى قلوب
 المنتظرين ليلة السابع والعشرين من رمضان . همسات نهار وليل . أم من نوبان
 الوجد . لا يراها جسدا وتهدين . ونحرا وجيدا وعنقا . هى إلى الروح القرب . طيف
 خيال . وشوشة لا تمس . سوسنة لا تطف . عينا ملاح فيهما حيرة . فى الطريق يرى
 الحريم . متشحات . سافرات بلا براقع يجردهن فى عقله من ثيابهن . قطعة قطعة .
 تستند امامه بظهرها إلى حشية ليست مكسوة بحزير . كلما جرد الواحدة منهن . عاد
 يكسوها . يرفق . بانانة . باصابع ترعشها نار الرغبة يسحبها . يبدو لحم الذراعين .
 تكور النهدين . ثم انبساط لحم البطن . يتوه عندئذ بتفكراته فى الفراغ . يروح بخياله
 إلى بيت . انس . . يقصده اصحابه المجاورون الذين يجرى المال ميسورا بين
 اصابعهم . يقال أنه يحوى قاعة فسيحة تمتلىء على اخرها بحشيشات وروميات . قيل
 أنه توجد هندية . فى العمام العاضى جاءه مال بعد نسخه كتابا فى المنطق لأحد
 مشايخ الصعيد . ألح اصحابه فى الذهاب إلى بيت « انس » . عصر اصابعه . هز
 رأسه مرات . رفض . لا يدري ما الذى يكفه إلى الرفض ؟؟ يعرفه الطلبة المجاورون .
 أهلى الربوع والحارات فى الباطنية طيبا . رقيقا . متدينا . يسرع إلى نجدة من
 تضيق به الأحوال . يسعى لتخليص امرأة من يدى مملوك يبغي اختطافها . يزعم
 منابيا الطلبة . الأزهرين . مهيجا الرجال . يلتفون حول المملوك . يقول عامة الناس .
 لو لوتى سعيد قوة قرملمس المضارع لما جرى مملوك على اختطاف قشرة حبة فول من
 سلة تحملها طفلة . لكن الله خلقه ضئيل الحجم . كثير الأمراض . إذ يرقد فوق حشيته
 القديمة بالرواق . يتواء إليه الناس على اختلاف اصنافهم يسألون عنه . ماذا

لو عرفوا ارتياده بيت ، انس ، دفعه دراهم ليمتلك امرأة بعض الوقت ..
« لا يتعارض هذا مع ذاك يا سعيد .. »

ينفى الخاطر والفكرة ، تحوم سماح من بعيد فى عقله ، سره الدافين الذى اقام عليه
لرصداد دونها ارضا ، لا يمكنه رؤيتها بعينى عقله عارية ، لو تلقى فى حمام ، كل
ما ترتديه ليقب خشبي عال يمنع عن باطن قدمها الماء القذر ، سماح خلاصة نساء
الارض اجمعين ، منها تفرعن ، عنها اخذن ، إليها يعدن ، فى المستقبل البعيد
لا يراها إلا معه ، ينظران معا من طلة مشربية ، يمشيان فى حديقة ، يسافران بلدا ،
منذ ايام يشتد البرد ، فى البرد يرى سماح موطننا يتبع دفئا وسلاما
قال الشيخ ريحان :

« هيا بنا إلى الغرفة العلوية .. »

طلع سلم البيت الداخلى ، كان لانفلسها اثرا تعلق فى الهواء ، تجسد إلى ابد ،
خاف ان يسمع الشيخ ريحان دقات قلبه ، يرى ارتجاج امره واضطراب لونه ، يتربع
الشيخ فوق وسادة خضراء كبيرة ، ينثث الدخان هادئا ، تفرق الدرجيلة ، قلم نصف
قومه ، مل عليه سعيد ..

« شتاء العام لم تر منه بردا بعد .. »

« ليس باردا كالسنتين الماضية .. لكنه فى الرواق لا يطق .. »

تتوهج الحجرات ، يسقط شيء ما فى البيت ، ربما وعاء ، علبه تمسكها ، الليل هنا
ناعم فيه هدوء البيت ، وامن عائلتي ..

كل مماليك طشتمر يطفشون فى النفس اليوم .. لولا خروجنا من الازهر والوقوف
بينهم وبين الناس ..

« ياه .. لم اسمع بهذا هانا لم اخرج طوال النهار .. تقول مماليك من ؟؟ طشتمر .. »

« غريب .. كان هادئا ومماليكه لا باس بهم .. ما الذى غيره ؟؟ »

« أبدا .. كان الأمير خاير بك حط فى حلقه كلاما عند السلطان .. واتبع ان السلطان
ينوى اعتقاله .. »

« .. يا سلام .. طول عمره طشتمر متهور .. متهور .. لا يسمع للكلام أبدا .. »

هنا يصمت سعيد ، يبدو الأمر مسلما ، لكنه يبرره ، يبحث فيه عن قضية ما لانه
صاغر عن والد سماح ، دائما لا يجيء اسم أمير ، موقوف عظيم إلا يسارع قللا
ومؤكدا بوجود رابطة قوية بينهما ، أحيانا يؤكد سعيد ما يقوله الرجل بسؤال
أو استفسار ، كان يقول منذ متى تعرف طشتمر يا عمي ؟؟ هنا يتراجع الشيخ ريحان
إلى الوراء ، يزعم متدبرا الخادم ليحضر جمرات للدرجيلة ، يا سلام .. طشتمر ربيته
أنا على يدى .. كفى يجيء هنا عندى وأنت ان كان معلوكا ضعيفا ، عرفته قبل زواجه
بخونه زينب امراته الأولى ، سعيد لا يعرف أحقا تدعى امرأة طشتمر خوند زينب ،

أو لا ؟؟ إنما يقول : « اللان طشتتر والامير ملكتتر السلقى من ... » لا يدعه الشيخ يتم كلامه ، يسارع قائلا : « ملكتتر .. ملكتتر هو الذى إتصطنى على موسى بن اسحق عند اختلافى معه فى بعض أمور بيت المال .. استدعانى ملكتتر فى منتصف الليل تماما ، أى والله منتصف الليل ، طلعت إليه فى القلعة نفسها ، أنا ذهبت إلى القلعة مرات ومرات هذا لم يتفق لأحد غيرى ، المهم أنه قبل يدي ، أى والله ملكتتر قبل يدي فأنا اكبر منه سنا قال .. إنه يعرفنى صالحا تلقيا ، لهذا سيلغى امر موسى بن اسحق تماما ، وإنكر أنه ريت بيده على كتفى .. فامسكت ذراعه .. بالقبض يا سعيد يا ولدى امسكت بذراعه .. »

« وعندما جاء الزينى بركات بنفسه تفريق مماليك طشتتر .. بل قبض على أربعة منهم وأرسلهم إلى المشقرة .. »

« الزينى .. بركات .. أم .. كان المفروض أن أؤروه منذ يومين .. »

« الزينى بركات أرسل إليك يا عمى ؟؟ »

ياه ، تصرع سعيد بالسؤال ، فى كل مرة يسكت ، لماذا الآن لماذا الآن بالذات ؟؟

« الزينى صاحبى .. كان المفروض أن أؤروه لولا صحتى التى لا تساعبنى .. »

« قواك الله .. »

« أى زينى يا ولدى .. أمثله كانوا لا يدخلون على إلا بصحوبة ، يسعون فى

ركبى .. ألا قل لى .. هل الناس راضية عنه ؟؟ »

« جدا .. »

« أعرفه .. فهو عاقل وأهم ما فيه أنه عاقل .. عاقل جدا ، ما أضر أخباره ؟؟ »

« لم تعد ترى المنكبين التابعين لركبى .. »

« زكريا بن راضى .. لا حول ولا قوة إلا بالله .. أخفض حسك يا ولدى .. ربما

سمعنا .. »

الآن ، تنسل مرارة فى خلق سعيد ، أى طالب مجاور لا يجزئ على لعنه ، سعيد

يلعنه فى سره ، يعرف امتداد ظله بين الأروقة والحجرات ، إلى محراب المسجد ،

تحت حصير الجوامع ، غرف النوم فى البيوت ، يقول عنه الشيخ أبو السعود ، هذا

من علامات الساعة ، لأبد من بقلته فوق الدنيا ممثلا لإبليس حتى يتعذب الخلق

أضعافا مضاعفة ، وقتها تضليق سعيد من كلام الشيخ أبو السعود ، ربما يقول هذا

لعجزه عن الإمساك بزكريا بن راضى ، باستطاعة الشيخ أن يفعل ، لا يحلجه إنسان ،

لكن ابن زكريا ليسه ، لم يره أحد ، يقال إنه يقيم فى أكثر من مكان ، لا يدرى أحد

عمره الحقيقي ، يعرف الناس مقره الأصلى ، بعيدا تحت جبل المقطم حيث يتهايس

البعض بساعاتهم صرخات بشر يجلدون ، تحرق أطرافهم ، يخوون ، لكن هل يقيم

زكريا هناك فعلا ، يقول أنه يتام كل ليلة فى مكان مغاير ، إن وجهه لم يره إنسان ..

حتى الشيخ أبو السعود ، مرة ضاق سعيد بنفسه حتى بعد اختفاء ثلاثة مجاورين ثوبيين ، دائما يعيشون معا ، يقرأون في مصحف واحد ، ياكلون في قصعة واحدة ، ينلمون ملتصقين ببعضهم حتى تراهم فتظنهم شخصا بعينه . هكذا تعودوا . بين الحين والآخر ، يختفي مجاور أو طالب ، لحد العلامة من السوق ، لا يدرى لحد عنه شيئا ، يترك ذهابه خوفا وعكثرة في النفوس ، من يدرى ، ربما جاء الدور على هذا فو ذاك غدا ، عند اقتراب الأثر الذي لحته الاختفاء من الزوال ، يضيع إنسان من جديد ، ترتجف القلوب ، سعيد لم يطلق نفسه عند ذهاب الثوبيين ، تمنى لو زرع ممرضا الأرض والنجوم والقمر والكواكب ، يوافق الأحاسيس في الجماد ، يومها قطع الطريق جريا إلى كوم الجراح ، أصفى إليه الشيخ قال ، لاحقا سبوا زكريا .. هكذا سمعت ، سعيد لا يدرى ، دائما يتحدثون لغتهم الغريبة ، لغة لا يفهمها أحد ، كيف وصل الأمر إلى زكريا إذن ، كيف ؟ يقول العلامة ، لدى الشيخ أبو السعود خاتم عليه رسم سيدنا سليمان ، يمكنه فك طلاسم الجان وتسخيرهم لأغراض الإنسان ، يمكن للشيخ أن يحمل زكريا بن راضى إلى جبال ولق الواق ، لا يرجع أبدا ، لو شرع في العودة فسيقطع المسافة في ألف ألف سنة ، سعيد لم يقل هذا للشيخ ، يعرف غرضه وهيلجه إذ تنسب إليه الخوارق ، في المساء خجل من روحه ، كل امر يطلب تحقيقه من الشيخ ، تلا سعيد ، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة .

« ابق لتاكل معنا » .

يحن إلى مذاق طعام بيتي ، مرق تشرب منه سماح في الليلة نفسها ، ملققة ربما لامت شفتيها ، لكن كربا يؤرقه ، لا يطيق بقاءه في مكان واحد ، الشيخ ربحان لم يلح ، نص سعيد قدميه في نعليه ، يعبر الممرات الصغيرة في الحديقة بمفرده ، بهم برفع عينيه ، لو أنها تنتظر الآن ، لو يراها مقدار ساعة ، يقضى والله عمره متنقلا فوق مادن الدنيا ، زاعقا بلسمها في وجه السماء ، معلنا ما يتقلب في صدره ، يعبر البلاد كما اجتازها مولاه ، زاده عيناه ، أه لو تصفى إليه ، أه لو يركبان في زورق عبر النيل ، ايليهما في التيار ، تنثر رذاذا ابيض ، يراها في مدينة لم تعرف الطواعين لا يموت الإنسان فجأة في عرض الطريق ، لا يتوجع امرؤ لمخطف إبنته ، لا يساق الفقراء إلى الحب ، إلى المقشرة ، لا تقضى أعمار في سجن العرقلة ، لا تنزع يد من جسم لأنها سرقت خياره ، سماح تطل على طريق لم يجس فيه أحد ، يحفضنها بذراعه ، يضحكان ، تمضغ لبنا جاءها من العجم ، في عزلة الليلية ، بعد نوم صحبه في الزواق ، تجبئه سماح ، همسة دفء يجود بها مرد ضنين ، رعشة ريح باردة في أفيظ صيف عفى يخلق الإنفاس ، لا يذكر لون شعرها ، لكنها أمل النجاة من دهر يأكمله ، هاهي ذى الحواري تثقل عليه ، جمال مثقلة بالدريس ، إلى أين ؟ أى مكان يحتويه ؟ يمكن الذهاب إلى الحمزاوى ، العطارين ، يخجل من المعاملة

والتحليات ، يعرفونه ، الآن لا يطبق البقاء في الرواق حتى الصباح ، فراغ خلق
لو بقي وتناول العشاء ، لكنه لكل مرتين في اسبوع واحد ، يجب الا يتقل عليه ، ربما
اصبح موضوع حديث بينها وبين امها ، مجرد تخيله ما يقل يرفعه خجلا ، هل
يذهب إلى نكلن ، حمزة ، يشرب الحلبة المطحونة المخلوطة بالمسسم والحليب ،
يعمل الخلق احبيلهم ، يستقصي حديث الهموم ، دكلن ، حمزة ، يمتلىء بعد
العشاء ، بمدخني الحشيش ، ربما قال الناس ، انظروا تلميذ ابي السعود يستل
ليعرف كيف يصلي الفجر ، إلى اين اين ، يجب استقراره في مكان ، لو تكرر مروره في
نقطة معينة بالمطريق يرصده البصاضون ، يصل اسمه إلى زكريا ، يوقن من وصول
اسمه يوما ما ، يريد تأجيل هذا الوقت إلى حدث يستحق طلوع اسمه هناك ، من
يدري ؟ ربما مئات الصفحات عنه اسم زكريا ؟ هل يغفل رجله عن سعيد ، عموما
زكريا لا يملأ كل شيء كالعادة ، هذا ما يحسه سعيد ، لم يخبره احد ، لم يطلعه كبير
على سره ، إنما هو واقع اقرب إلى الوعي والإسراك ، لأول مرة يطوف منقون في
طرق القاهرة لا يتبعون زكريا ، قلة فقط يعلمون بتبعية كلفة المنادين لتقيب
البصاضين ، بل إن الشعراء في المقاهي وارياب المغاني والطوب ، اصحاب فنون
الرقص ، الحواة ، وغاظ المساجد ، يخضعون بشكل او باخر إلى نقابة البصاضين ،
من هنا يعي سعيد حقيقة مرور منقون سرولا ازرقي واقيصا اخضر حوافه
محلاة بالقصب ، زى جيبه يعلن تبعيتهم لنظر الحسية نفسه ، لم يكلف الزيني
يهذا ، إنما رتب مرورهم ، اول النهار ، بعد الغداء ، قبيل المغرب ، قبيل العشاء ،
ينطلقون بلا حرس ، كل ما يابديهم عصا قصيرة ، يقرعون بها طبلة صغيرة ، يتكلمون
إلى الناس ما استجده الزيني من امور ، يحرضون الناس على كشف كل غشاش لثيم ،
عندما استمع سعيد إلى هذا الغداء بالذات تردد في قبوله وانتكبه شك ، لو تلجر
كبير ، قريب لوزير لو امير ، قريب الزيني نفسه ؟ هل يجري عليه ما جرى للآخرين ،
لم يحدث هذا ولو حدث لبدأ امرا عجبيا ، بعد الغداء بايام ثلاثة ، سمع سعيد
ضجة ، تجمع الناس حول منك يرتدى الثياب الجديدة ، ما الامر ؟ ترزى من ناحية
المغربيين ، ليس خياطها صغير الشأن ، يفصل الفرجيات والقفطين للامراء ، لارياب
الدولة ، تجاوز الأربعين لكن الله ابتلاه بداء مكن ، والغناء مشبه في سوق الخيامية ،
اعجبه غلام صغير ، قال للغلام ما اسمك يا شاطر ؟

قال اسمي كمال ، قال تعال اخذك إلى ابيك في الجامع لانه ينتظرك هناك
وساشترى لك سنموسك ، غير ان اللعين سلكه إلى خرابة قديمة وراء الجامع
الازرق ، مال عليه ، لم يحتعله الغلام فلفترز من ثلاث جهات ، وذهب إلى ابيه
يصيح غارقا في دمه ، طلع الرجل إلى الزيني بكيا ، امر الزيني بإحضار القرزى ،
سأل الغلام ، اهذا هو الرجل ؟ فأوما الطفل بكيا ، زعق الرجل ، الولد كذاب ،
فصربه الزيني على وجهه ، قال : الاطفال لا يكذبون ، امر بشهره

على حمار في القاهرة كلها . وسجنه بالعراقلة . حتى يكون من امره ما يكون . طلع إلى الزينى بعض المشايخ قالوا . ما جرى يحدث كل يوم . ملأوا في كلامهم . لم يصرحوا . إنما لمحوا . الرجل يعرف بعض الأراء ممن يترددون عليه . وهؤلاء ربما .. يعنى .. ربما . قيل إن الزينى قام واقفا . نثر عليهم . امر بإخراجهم . قال إن تحدث فلحشة في زماني أبدا . لذا ما أخشى إلا هو . انثار بإصبعه إلى السماء . قيل بين العامة . انه ضربهم على أكتافهم بمقرعة مقبضها عاجي . مزخرف . يذهب . زعق كيف تفلون ربكم يوم القيامة ؟ سعيد خشى على الزينى . خاصة إن على بن أبى الجود الذى تسلمه منذ عشرين يوما . لم يعلن المنادى خبرا عن اكتشافه المال المخبأ . ما بهم السلطان المال . ربما وجد زكريا الفرصة ليوفر صدر السلطان . عندئذ يقبل الزينى من الحسبة . الواقعة الدائرة الآن بين طاشمتر وخاير بك ربما غطت بعض الوقت . لكن .. ما هذا ؟ أيلقى سعيد من أجل الزينى ؟ أيتمنى سعيد وقوع العذاب بعلى بن أبى الجود ليفشى سر المخبا من ثرواته . أيرجو العذاب لإنسان ما ؟ حتى على بن أبى الجود . طبعاً . وكم إنساناً عفى ما عفى منه ؟ كم ؟ ثم إن يوقع به الله عذاباً أشد ولتكن يوم القيامة . لا ينكر سعيد قرب الزينى من روحه . عندما القرب لإبلاغه طلب الشيخ أبو السعود . كل الوقت ليلاً . خرج إليه الزينى ملثماً . عاملته صغيرة . ثيابه عادية شان فقراء المتصوفة . مشياً صامتاً . ينظر إليه سعيد من طرف خفى . رائحة ثيابه تدفع إليه ذكرى بعيدة لحقه في قرية نزة . الصوف المعتزج بعرق الرجولة . رغبة راودته . لو يراه بعض أصحابه يعيش مع رجل يذكره كل لسان في القاهرة اليوم كله . في أى الملاح يمكن الإياء ؟ القدرة على رفض منصب كبير ؟ كل من صدر مرسوم بتوليته وظيفة من وظائف على بن أبى الجود انتقلته فرحة . بقوا في بيوتهم يتكلمون المهنتين . أما يركض بن موسى المرشح لأخطر وظيفة . رفض . يندر الرفض في زمن بخيل بكل ما يحلم به المرء . بعد سكوت قال سعيد . امرنى إلا أرجع إلا معك . لغت منه وهزة رأس . خجل سعيد . ربما يفكر في أمور خطيرة . فجأة قال . مولانا لا يمكننى أن اعصى له أمراً . وتتابعت أسئلة الزينى . أخبره سعيد بأمره كيف جاء من البلدة . كيف التقى بمولاه . تردده عليه . ولفقه له . أخذ العلم عنه . بقلاؤه عنده طوال وقته . الآن ينكر أسئلة الزينى . ثم صمته المفاجيء لا يدري سعيد ما يجرى بينهما . امره الشيخ بالعودة إلى الأزهر . من يومها لم يقترب سعيد من الزينى . فيما عدا موكب عودته من الأزهر . لكنه مشى منفرداً بين الخلق . لا يدري الزينى بوجوده . لا يصغى إليه . لآخر المتألمين طاف منذ ساعتين . لا يدري مقلقه للناس . في الأسبوعين الأولين يتجمع الناس بقصد الفرجة والاستماع إلى ما يقولون . بمرور الأيام خف زحامهم . أما الأطفال فلا يفارقونهم . الآن . يلف سعيد فجأة يبدو انه اقترب من حارة قصر الشوق . رجل يعضى

مسرعاً . اليس هو ؟ لماذا توقف . تجمد . أى حيرة انتابته . لا يذكر طول القامة .
يذكره ممثلاً ونحيلاً . معتدلاً وذات حذبة . لا تثبت صورته فى الذهن . إنما هذا
العاثى هناك . هو هو بعينه . اجتاز حارة بيت المال . يمضى طريق إلى حارة بيت
القاضي . آخر إلى مسجد الشهيد الحسين . اختفى . لكن أين الحرس . كيف يامن
على روحه ؟ وإذا كان هو الزينى بنفسه . هل رآه . هل عرفه ؟

★ ★ ★

نداء

يا اهالى مصر
نوصى بالمعروف وتنهى عن المنكر
اليوم ..

خرج السلطان إلى الريدانية
بدا لعب الكرة ، وكله عافية
امده الله بالصحة والقوة

يا اهالى مصر
ما زالت الوحشة والقطيعة مستمرة
بين الأمير طشتمر والأمير خير بك
وكل منهم مترصد للآخر .. فانتبهوا ..
يا اهالى مصر ..

العطار صابر بن الحمزاوى غش فى الميزان
وباع الحلبة مخلوطة بالتراب الناعم
غش المغات ، ودس السقنقور الهندى
وعنده منه الكثير ، حتى يغلو ثمنه
لأنه الوحيد تاجر السقنقور

راى الزينى بركات بن موسى ..
ناظر حسبة القاهرة ، والوجه القبلى
منفذ تعاليم الشريعة ، وحافظ حقوق الناس
وخادم السلطان

بتغريمه مائة دينار
والحوطة على مخزونه من السقنقور
وتوزيعه على سائر العطارين
لينتفع به المخاليق ، وتسعيره بثلاثة دراهم للواحد
والله منتقم من كل غشاش لنيم
اتعظوا

يا اهالى مصر
يا اهالى مصر

زكريا بن راضى :

صباح الثلاثاء سابع ذى القعدة ٩١٢ هـ

يخلو إلى نفسه تماما إذ يتأمل طفلا ، يداعبه ، رقة العمر الأول ،
ريش العصافير وسخونة جلدها الرهيف ، لو يبقى الإنسان طفلا
إلى الأبد ، يحرك اليدين كما يشاء ، يضحك فى كل اتجاه ، يحبو ،
يعبث ، يبكى فتهرع نفس حانية تجفف الدمعات ، الأوهام
والمخاوف لا تتخذ من قلبه الصغير خانا أبديا ، يرى الدنيا بعيني
الدهشة والتساؤل ، محال هجرة زكريا عبر الزمان قاصدا بداية
سنينه . أحيانا يوقن أنه لن يمر بمثله أبدا . لا يذكر يدا ملست عليه . أصعب
الظروف لم تمنعه من رؤية ابنه الأول والأخير حتى الآن . يس . يجيئه ملفوفا فى
قماط قطيفة سوداء مطرز بذهب ، يحمله ، أمه زينب ترقبهما ، تحكى أخبار يس . كم
مرة أرضعته . ابتسامته الهادئة عندما راح فى نومه . إذ يستيقظ كان عينيه تبحثان
عن الغالى أبيه . تعثره فى الحروف . تطيل الحديث . يس هو ما يقربها إلى الرجل .
تقباهى وتعلو على بقية حريمه وجواريه . لم ينجب منهن . أما هى فولدت له يس .
تجاهل أحمد الذى جاء منذ أربع سنوات . ذهب بعد شهور . أمه الحبشية لا تزال
تقيم فى البيت . مجهولة لا يعرفها أحد ، لسعة حزن حارقة تغشى قلب زكريا بين
الحين والحين ، لم تطفئها السنون . تخفف حديثها . أشد الظروف فظاعة لم تعطله
عن لحظات يمضى فيها إلى يس ربما يوقظه آخر الليل برغم تحذيرات أمه . يلاعبه .
يناعشه . من شهور أمسكوا فى خان الخليلى تاجرا روميا قيل أنه يكاتب ابن عثمان
بأخبار الدولة أمسكه رجال زكريا . راقب عقابه بنفسه . تعصير أكعابه . حرق جلد
ظهره بنار هادئة . ومبروك قائم على تعذيبه بهمة عالية . بإخلاص وتفان . نزل
الصمت كالجنة على بقية المحابيس فى حفرهم . وهم يصغون إلى صرخات الرجل
التي لا تنفذ إلى الفراغ الخارجى أبدا . يعرف زكريا أى رعب يمتلكهم . ما يقع فى
أرواحهم من رعب والآلام عند سماعهم أوجاع إنسان آخر يجهلون منه الاسم حتى ،
أكثر مما انتزعت أسنان الواحد منهم بكماشة محماة . خاصة حديثى العهد منهم
بالحبس . من يدري . ربما جرى عليهم ما جرى على المنكوب الرومى ، طال صمته .
لم ير زكريا إلا تقلص وجهه ، جحوظ عينيه وتضخم أنفه ، تدلى فكه . لكنه لم يفه
حرفا . ما اغاظ زكريا ، ما كاده . تأكده من وجود شركاء للرجل . بعد مرور نهار
بأكمله . أمسك زكريا بسبخ رفيع طويل كالإبرة محمى ببطء . على مهل راح يدفعه فى
بطن الرومى ، حول سترته ، زكريا يختنق بدخان اللحم المحترق ، خرج ، نفذ الهواء
من أنفه كما يتجرع الماء . عبر الفناء إلى جناح حريمه . طلع السلم المؤدى إلى غرفة

زينب ، سأل : هل نام ؟ أومات .. نعم ، قال : أريد رؤيته ، بالتأكيد غمرتها خيبة أمل ، تأمل قضاء الليل معه ، بقاءه عندها حتى الصباح ، لن يكتمل تظاهرها على بقية الحريم إلا بنجاحها في استبقائه الليلة كلها ، طلب رؤية يس مرة أخرى ، قالت .. نائم منذ فترة يا سيدى ، قال بصوت أجوف أرعشها خوفا أنا لم أقل صحبه .. مشيت لمامه ، بين الحشايا رق وجه الطفل مستديرا مغمض العينين ، قمر بين غمام ، بشرة تفاحة ملساء ، قماش حريرى يشف عن ملامحه ، قرب الشمعدان منه ، تمايل الضوء ، بقى مقدارا من الزمان ، يرحل وجه الرومى مبتعدا ، قالت المرأة : هل أخلع القفطان يا سيدى ؟ اعتدل فجأة ، لم ينظر إليها إنما مضى إلى الباب ، تقارير اليوم لم يراجعها ، ثمة ما يجب رفعه إلى السلطان بخصوص الرومى ، أسرعت خلفه ، خيبة أمل لا تخجل من التوارى فى صوتها .

الآن ، ينزل زكريا السلم الطويل إلى حوش البيت ، ينفذ الريحان إلى صدره ، وشيش سعف النخل ، أشجار غريبة أرسلها إليه كبار البصاصين فى الهند ، فى اليمن ، فى الحبشة ، فى ركن الحديقة الأيمن ، زهور صفراء قليلة ، لا ينسى إحداها ، همسة تجسدت زهرة ، رقيقة صفراء ، حوافها بنفسجية ، قلبها أحمر قان ، به ثلاث ذرات من لون أخضر قاتم ، رآها تنفتح أمامه ، شهد إطلالها على العالم أمام عينيه ، يذكر المنظر متعجبا ، فى الحديقة أقفاص صغيرة تضم عصافير غريبة الخلقة ، صباح بعضها غريب ، الآن لا همس لها ، فى الشتاء يرى عصافير طليقة ، أخبره علماء الطير أنها تجيء من بعيد ، من بلاد ليلاها ستة شهور ونهارها ستة شهور ، تذهب مع الشتاء يجيء الصيف قلحلا منها ، زكريا يؤرخ اليوم الذى يرى فيه أول العصافير فى حديقته ، يتساءل ، أهذه العصفورة بعينها هى التى جاءت فى العام المنقضى ، كم تعيش إذا لم تغتلبها يد صياد ؟ تموت موتا طبيعيا ، أمثل هذه المخلوقات يموت ؟ فكر فى إطلاق المنادين ليأمرؤا الناس بالكف عن صيد العصافير لكنه تراجع ، ربما ظن بعض الأمراء الظنون ، ربما قوبل أمره باستخفاف ، هل خلت دنيا زكريا من المشاغل تماما حتى يأمر بالكف عن صيد الطيور ، فى الأيام الأخيرة يكثر من تأمل عصافيره حبيسة الأقفاص ، مداعبة يس ، لكن ضيقا وقلقا يزحم صدره ، يضيق عليه ، لولا الطيور ويس ، الخروج بين الحين والحين متخفيا ، سفره إلى إقطاعه فى سرياقوس ربما طق له عرق من الغضب ، لكن صبرا ، مثل هذه الظروف تتطلب ليونة وبأسا ، لم يصله رد الزينى ، حتى شك فى وصول الخطاب ، لكنه استوثق من وصوله بين يدي الزينى نفسه ، تعب جدا حتى تأكد من وصول الرسالة ، ما من بصاص واحد يتبعه يعمل فى بيت الزينى ، ومقدم بصاصى القاهرة لم يهتم بدفع بصاص إلى بيت الزينى من قبل ، فلم يكن به شأن يذكر ولا حس يسمع ، وعد بإدخال عين إلى البيت ، حتى خدم الزينى لم يعرف واحدا منهم ، كأنه أحضرهم من

بلد غير البلد ، بينما واصل المقدم إطلاق عيونه في إثر هذه المرأة التي طلعت اسم
 موكب الزينى ، زعقت في وجهه .. يا لنعيم .. إذن هي تعرفه ، ربما أدى الإيقاع بها إلى
 كشف المستور من سيرة الزينى ، قل المقدم في أول تقاريره ، هي امرأة بلا أهل ،
 سكان بين السيلج وشارع أمير الجيوش وباب الشعرية ، يعرفونها ، يرونها أحيانا
 منذ صغرهم ، لا يعرف بيت لها ، قيل انها تنام في أحواش الموتى خارج باب النصر ،
 واسمها أم سهير ، وقال آخرون بل اسمها « مسكة » ، وليس لها بنت اسمها سهير ،
 وحدث أن شتمت الزينى في شارع الصليبية مرتين ، وفي شارع المعز ولكنها لم تظهر
 كان الأرض انشقت ، ابتلعنها ، وقيل في تقرير بصاص موثق به مكين ، أن رجلا
 عجوزا يجلس بجوار سبيل بشتك دائما ، معصوب العينين ، حدث فقال : هذه المرأة
 تذهب إلى الزينى بركات بن موسى ، تعانقه ، يتبادلان البكاء ، تحتضن رأسه بين
 يديها ، تناجيه بأرق اللفاظ ، ثم تخبره بالأمور المقبلة القادمة وكل ما يحدث له
 وما يدبر ضده ، قال العجوز انها تخلو عددا من الجان يخدمونها ، ويأتونها بصديق
 النبوءات ، اما من هي ، فلا يعرف العجوز ، متى تخلو إلى الزينى ، لا يعلم ، لماذا
 زعقت في وجهه أمام الخلق ، فهذا ما لن يطلع عليه مخلوق ، والمج العجوز إلى
 احتمال قيام صلات خفية بين الزينى وعالم الجن ، الزينى تجاهل الخطاب ، كأنه
 لم يقرأه ، لم يطلع عليه ، شهاب الحلبي سأل منذ أيام ، هل وصل رد من الزينى ،
 زعق زكريا في وجهه ، ثار ، منذ متى تسأل عن رد خطاب كلفتك بكتابه ؟ أهذا
 ما علمته لكم ؟ اتعرفون ما عاقبة الثروة الكاذبة ؟ عاقبة الفضول ، الكلمة التي
 تخطها يجب أن تنساها ، إرتعب شهاب الحلبي ، أشد ما يخشاه غضب زكريا ،
 الأدهى من ذلك ، لو ظن شيئا من وراء السؤال ، ربما ارتاب ، هنا لا يدري شهاب
 الحلبي ما قد يفعل به ، عمله الطويل لا يغفر له أى رلة مقصودة أو غير مقصودة ،
 دائما يردد زكريا على مسامعه قصة نائب كبير البصاصين العثماني الذي وصل إلى
 أعلى مراتب دولة البصاصة في دولة ابن عثمان ثم اكتشف أمره بعد العديد من
 السنين ، لم يكن إلا بصاصا وثيق الصلة بدولة الشاه إسماعيل الصوفي ، أحد أعداء
 الخنكر ، شهاب الحلبي حريص دائما على حركاته وسكناته ، ليس هو فقط إنما
 أى إنسان يعمل في ديوان البصاصين ، زكريا تعجب لحدة غضبه ، لكن تأخر الزينى
 بضايقه ، سؤال شهاب الحلبي نغزه ، كل يوم يقول ، ربما أجاب الليلة ، غدا ، لكن
 الزينى تعلد في غيه ، الأمير الجمدار هو رأسه ، قل ، السلطان يوافق الزينى على
 كل كبيرة وصغيرة ، الزينى يطلع إلى السلطان كل ليلة ، يخلو به مقدار ساعة ،
 لا يطلع إنسان على ما يدور بينهما ، زكريا يواجه ظروفًا لم يعرفها أحد أسلافه ، ربما
 يرد اسمه في هذه الخلوات ، ربما تدبر له الملاعبب ، عوده انزعاج ليلة وصول
 تقرير يؤكد استمرار الزينى في إقامة فرقة بصاصين خاصة به ، الأمير منكلى بغا -

وهو قريب الصلة من زكريا - ألمح في لقائه مع الزينى إلى أن الأصول تقضى بوجود
فرقة بصاصين واحدة فى السلطنة كلها ، وأن يتبع زكريا بن راضى المحتسب كما هو
متبع ، لكن الزينى هز رأسه ، قال لا أطمئن إلا لرجالى ، أن توجد فرقة بصاصين
أخرى ، فهذا ما يقلق زكريا ، ربما تسرب أحد إلى بيته ، إلى ديوان السر ، أصدر
أوامر مشددة إلى مقدم بصاصى القاهرة ، إلى مقدم بصاصى الوجه القبلى ، الوجه
البحرى ، مقدم البصاصين ببلاد النوبة ، أن يرصدوا ما يقيمه الزينى ، أن يتعقبوا
أفراد الفرقة الجديدة ، من هم ، أين ، كيف يعملون ؟ لا تزال التقارير بخصوص هذا
الموضوع باهتة ، عموما لابد من العمل فى تان ، لكن بلا توان ، لابد من حسم أمر
الزينى وإلا أصبح تاريخ البصاصين كله مهددا ، استدعى كبير الشعراء والمغنين
فى مصر ، إبراهيم بن السكر والليمون ، إبراهيم من أخلص مستصنعيه ، يشرف على
الشعراء فى المقاهى ، وأصحاب الربابة ، المنشدين فى الموالد والأذكار ، كافة
ما يقولونه من المواليا والدوبيت والأراجوزات والسير ، كل ما ينشد لابد أن يقره
إبراهيم بن السكر والليمون ، يحذف منه ما قد يراه مخلا بأصول الديانة والأخلاق ،
ما فيه من تعريض بوجه كبير أو أمير من أمراء الدولة ، إبراهيم يجيء إلى زكريا يوم
الثلاثاء من كل أسبوع ، يحكى له أخبار المغنين والمنشدين ، أحوالهم وما يدور
بينهم ، وما ينتويه كل منهم ، ما يشرع فيه من أمور تخصه هو أو تتعلق بالمغنى
والطرب ، يسخر زكريا فى سره ، لا يخطر هذا ببال الزينى ، يستمع الناس إلى
الشعراء فى المقاهى ، يرون سيف بن ذى يزن ينبش الأرض بحثا عن كتاب النيل ،
ترتجش القلوب حبا لذات الهمة ، يتابعون أخبار البرامكة مع بنى العباس ، أبو زيد
ودياب والزنادى خليفة ، سليمان وكيف تحكم فى الجان ، استشهاد الحبيب النجيب
فى كربلاء ، لا يدري إنسان أن ثمة خيطا يربط كل أرباب المغانى والمنشدين
والقصاصين فى مصر بعضهم إلى بعض ، خلا زكريا إلى إبراهيم بن السكر والليمون ،
طلب منه إعداد حكاية تروى على الربابة ، عن رجل لا أصل له ولا فصل نزل عليه
الجاه فجأة ، فدعى أنه سينشر العدل بين الناس وطلب أن ينشدها الليلة أربعة
منشدين فى دكان « لانضى » ، « دكان البهجوى » بالحسينية ، ودكان « يونس »
بالفسطاط ، ودكان ، أبو الغيط ، فى بولاق ، الدكان الأول والثانى من أكبر دكاكين
الحلبة والجوزبيل والفراجيل فى مصر وروادهما من ميسورى الحال ، ويبدأ شرب
الكيف فيها بعد العشاء ، أما الثالث والرابع فشأنهما ضئيل وروادهما من أسافل
القوم ، جلهم من الفعلة ، بعد يومين تنشر الحكاية فى عشرة دكاكين ، فى أحياء
مختلفة من القاهرة ، نعم بعد أسبوع لتصبح حديث الناس ويمكن الاستعانة
بالبصاصين المندسين بين البشر لشرح وتفسير ما تتضمنه الحكاية لو تاه مغزاها

عن البلهاء ، غادر إبراهيم بن سكر والليمون بيت زكريا ، قام ، نزل إلى الحديقة ، إنه الآن أكثر نشاطا ، يفكر بسرعة ، تتدافع إلى ذهنه الخواطر ، يذكر عشرات الأسماء ، المواضيع ، يضرب راحته بقبضة يده ، يميل ليشرب جرعة من ماء الورد المخفف ، يفاجأ بخواطر لم يحلم بورودها قط ، ينسى روحه تماما ، تولد مشاريع لا يمضى وقت طويل حتى تتحقق ، إنه لا يغفل التفاصيل ، أدنى مايخص المشروع ، كافة ظروفه وأحواله ، بعد انصراف إبراهيم بلحظات ، فى غمرة نشاطه طلع إلى غرفة امراته زينب ، احتضن يس ، رفعه ، حمله فوق كتفه ، حبا أمامه على أربع ، قلد أصوات الشاه والحمار ، كاد يرمى روحه فى الفراغ مرحا ونشوة عندما علت ضحكات يس ، ضحكات صغيرة كأنها قرقرة نرجيلة نشوى ، دخانها نعناع ، وريحان وبلسان ، فجأة أسنده إلى يدي أمه ، نزل مسرعا ، فارق ولده ، لم تندش زينب ، تعودت منه كل غريب ، أرسل فى طلب المعلم عوض المعروف بين العامة ، بابن كيفه ، لإدماجه الحشيش وطول لسانه وحببه الشديد للنكاح ، جاء ، وقف صامتا ، ينتظر ما يقوله زكريا ، فهو من مستصنعيه ، زكريا سروره زائد عن الحد ، هل يدرك الزينى أن رجالا كهؤلاء رهن إشارتى ، يتبعوننى ؟ ربما بدوا فى نظره تافهين لا شأن لهم ، لكن ما أعظم خدماتهم ، جاء المعلم ، ابن كيفه ، ضخما عريضا ، صوته كالنعير ، مع هذا بدا مرتجفا ، عندما رآه زكريا هجم عليه ، احتضنه مقبلا ، حار الرجل ، أبرد القبلة أم يقف ساكنا فى حضرة كبير بصاصى السلطنة ، تردد لحظات أدرك بعدها أنه لو رد التحية الآن لبدت باردة ، أخذه زكريا ، مشيا إلى مقعد رخامى تحت نخلة عالية كسى أسفل جذوعها بألواح رقيقة من نحاس أصفر براق ، سأل زكريا عن أولاد المعلم ، وحال حريمه ، هل تصالح على امراته الثانية التى أغضبها منذ أربعة أيام وهجرته إلى بيت أمها أم مازالت الفرقة بينهما ، قال بسرعة ، أنه سمع بعزم المعلم على طلاقها ، هذا صوته ، تراجع برأسه ، ألا يوجد عندك حل غير الطلاق يا معلم ؟ أنت تعرف ، أبغض الحلال عند الله الطلاق ، لكنك لو أصرت فلا يمكننى الإشارة عليك بأمر آخر . لم يخف المعلم دهشته وخوفه أيضا . زكريا يعلم كل كبيرة وصغيرة . غرق فى خجل عندما مال عليه زكريا ضاحكا . بينى وبينك الحق عليك أنت . يا معلم أنت لا تعطىها حقها كما يجب . زوجتك الصغيرة الأخيرة أخذت وقتك كله .. لا يا معلم . لا بد من العدل . العدل مطلوب هنا .. آخر مرة ذهبت إليها متى .. أه .. متى ؟ أخبرك أنا ، منذ شهرين وأسبوع ، أنت رجل تفهم الدنيا وترزنها على طرف أصبعك ، وتلقى العيب عليها ! تعالظم خجل الرجل . انقلب نعيه همسا وحشرجة . تبدو منهما كلمتان . معك حق ، معك حق ، فجأة قال زكريا : مهمة صغيرة جدا أتمنى إتمامها . غمز بعينه ، فرد أصابعه ، يثنيتها واحدا وراء الآخر كلما ذكر أمرا أو مطلباً ، يضيق المعلم عينيه ، يصفى ، تروح التفاتة منه هنا أو هناك ، صوت زكريا هادئ ، كأنه يطرق أى باب للحديث ، قد تهيج روحه بالف

سبب وسبب ، لكنه إذ يبدأ الحديث تصبح لهجته منبسطة كلفظة ، صباح الخير ، ،
حتى لو تناول أخطر الأحداث وأكثرها تعقيدا ، ما يريده الآن مجموعة أقوال
وشائعات واحاديث معينة ، تنتقل بين الناس بخفة ويسر ، أصغى المعلم ، قال
، بسيطة لك على الا تجعل حديثا على لسان الخلق إلا ما تريد ، ، تضيق عينا زكريا
، لو خرج ما جرى بينهما إلى مخلوق .. ، يسرع المعلم جريئا في مقاطعته ..
، اشتغنى ولا تقل هذا .. ، بسط زكريا يده ، اعرف .. اعرف ، المهم الا تظهر القصد
في حكايتك ورواياتك ، ، ضرب المعلم صدره براحته ، ، ابن كيفه يعرف شغله .. ،
ضحك زكريا ، تعجبني يازينة الرجال ، قال بعد لحظة ، ولا تنس مراجعة نفسك في
الموضوع ، تساعل المعلم ، اى موضوع ؟ ثم تدارك امره عندما رأى الابتسامة
الجانبية على شفتي زكريا ، ، اى والله ساعمل عقلى يا شهاب .. اعرف ان ابغض
الحلال عند الله المطلق ، .. يهز زكريا رأسه ، يقطب جبينه .. يضيق عينيه وكان الامر
مفروغ منه ، اذهب إليها بقطعة من القماش ، بشيء من الحلوى . النساء عقولهن
كالأطفال ، يؤمن المعلم على كلام زكريا . يتراجع . ينحنى محببا . يتبعه مبروك إلى
خارج الحديقة . صوته العالى يجيء ملقيا بالسلام . كلما صلافا بابا أو شرخا في
جدار أو نبتة زرع يلقي عليه السلام ، الآن يتضح مذاق الشتاء في النهار ، يكسب
حصى الطرقات بريقا هينا لينا خفيفا . النبات الغريب . الطيور حبيسة الاقفاص
لا تكف عن احاديثها الغامضة . فى الليل تخرس . اما الآن فى النهار فتبوح . يدخل
إلى غرفته فى الطابق الاول . اعددها للمقابلات . رطوبة خفية تسرى فى الحشايا
الوثيرة المحشوة بريش ناعم . يحلو له ان يخلو إلى رروحه هنا . تلتصق النباتات
الخضراء الخصبة بالمشربية من الخارج ، حركة النبات كل ما يسمع هنا ، السقف
عال منقوش بالفضة والذهب ، ونقوش ابدعها ، الخسروانى الفارسى ، بجواره طبق
نحاس ، يقرعه بيد قصيرة من الجلد . مرة واحدة . يجيئه ، مبروك ، لو همس سيده
باسمه يجيء فورا كأنه يقف الوقت كله منتظرا لحظات اضطجاعه إلى الوسادة عندما
تدور الأسئلة بعقله . كم عدد التقارير التى تكتب الآن لتدفع إليه ملخصة فى ورقة
واحدة ؟ ربما يموت إنسان فى هذه اللحظة بعينها . هذه اللحظة بالذات . أه
انقضت . حلت لحظة غيرها . مات ، كم إنسان يذكر اسمه الآن ، اى أفكار فى ذهن
الزينى الآن ، الآن تلد امرأة طفلا . ماذا سيصبح بعد ثلاثين عاما باى أرض يموت ؟
ربما يطلق ربلان مركب صرخة فزع تنبئ بالمصير المحتوم فى قرارة البحر الشرقى
الكبير ، أحيانا والليل مسدل . يحاول النفاذ بعينى عقله إلى أحشاء الظلام . كم رجلا
يعلو امرأة فى المدينة الآن ؟ أعداد لا أول لها ولا آخر . لحظات كهذه يدرك فيها أنه
مهما نفذت بصيرته فسوف تظل أمور ممتنعة عليه . لو يجيء زمان . يعرف بصاصوه
كم من الرجال يضاجعون حريمهم ، اى أطفال سيسكنون أرحام امهاتهم .

أى طفل منهم سيولد ويكبر ، يثير فتنا وقلق . لو عرف هذا لمنع الرجال من اتيانهم
 المرأة التى ستحمل الطفل . هكذا يجتز الشرم من جذوره . قبل ان تنبت له جذور .
 لو اوتى فرعون مصر بصاحبا عظيما نفذ إلى حقيقة الطفل الذى القته امه فى النهر .
 لما عرفت الدنيا نبي الله موسى . ولنجا فرعون وجنوده من الغرق . يثق زكريا من
 مجيء زمان يعرف بصاحبه ما يدور فى بر الشام وهم جلوس فوق المقطم . إذا قارن
 اساليبه الحالية . هل تشبه ما استعلن به بصاص الدولة الايوبية . بصاص الاشرف
 قايتباى منذ ثلاثين عاما فقط ؟ الدنيا تتغير ؟ لا يبقى امر على حاله . زمان بمجرد
 إمساكهم مذنباً يوسعونه ضرباً . ربما زهقت روحه . الآن .. لا يحدث هذا .. موت
 المذنب آخر مطلب ، تبدل عليه الآلام وهو واع حى . لو غشى عليه فهناك من
 الاساليب ما تجعله يفيق . كانه صحا من نوم عميق أكثر نشاطا . امور كهذه يجهلها
 الزينى . وإلا اين نتيجة تعذيبه لسلفه على بن أبى الجود ؟ تسلمه منادوه منذ شهر .
 لم يعلن منادوه استخراج درهم واحد منه او تقريره باى ذنب . قيل بين الناس ان
 الزينى يجهل طرق تعذيب المحابيس ، تهامس بعض الامراء عن حقيقة ما اشيع حول
 على بن أبى الجود . قال الامير يلبغا الجاشنكير ، إذا ما شنع العامة والسوقة على
 كبير فى الدولة فهل نصدق ما يقال ؟ لا يصح هذا أبدا . تجاهله الزينى . لم يرد على
 رسالته . فيلذق عاقبة مكروه . تجاهل آلاف البصاصين وهم اطراف جسمه . يسمع
 بهم ويرى . يشط الفكر بزكريا إذ يذكر ان كل إنسان يمشى حاملا ملكين ، ملكا يرصد
 الحسنات فوق الكتف اليمنى ، والاخر يدون السيئات فوق اليسرى ، لا يكفى هذا ،
 إنما ينتظر ناكرو ونكير فى القبر ، يسالان ، يستقصيان ويستفسران ، ينتزعان الحقيقة
 بضرب الميت بهراوات ملائكية لا يعرف ابشع من قسوتها ، كم عدد الناس فى الدنيا ؟
 لكل إنسان ملكان ، هل يوجد اتباع لناكرو ونكير ، لو دفن رجلان فى وقت واحد ، فكيف
 يستجوبانها ؟ كيف يسالان فى وقت واحد ، ناكرو ونكير لا يمكن تواجدهما فى كل
 قبر ، الموجود فى الدنيا كلها هو الله سبحانه وتعالى ، يطيل زكريا التأمل ، نظام
 عظيم وترتيب أروع ، هكذا تمسك الدنيا كلها فلا تفلت حسنة ولا سيئة ، يوما ما
 سيخلو إلى نفسه ويضع مطلبا مفصلا بما يرجوه للبصاصين ، ما يتمنى مجيئه من
 اساليب ، وسائل سحرية تكشف ما يفكر فيه الإنسان ، اخرى تعيد زمنا انقضى برمته
 لمواجهة إنسان ينكر ذنبا اقترفه ، الآن يقوم زكريا ، يقطع الحجرة جيئة وذهابا ،
 يقيس طولها بخطواته ، أربع عشرة خطوة يمشيها متمهلا مطرقا تهاجمه الخواطر
 فجأة ، يد خشنة تقبض قلبه ، هاهو ذا الزينى يبدأ العداء ، حتى الآن لم يخط زكريا
 خطوة واحدة لهدم الزينى وإيذائه ، الآن مضت فترة ظن فيها استسلام زكريا ، هنا
 يبدأ العمل ، ولو تملأى السلطان فى مساندة الزينى ؟ هنا تضيق عينا زكريا ، تسرع
 خطواته ، يصبح طول الحجرة عشر خطوات ، من الذى

ساند الملك المؤيد شيخ الحموى عندما جاء إلى دست الملك من ؟ الزينى لا يعرف ،
السلطان لا يدري ، من الذى دفع به إلى كرسى السلطنة بعد سجنه زمنا طويلا فى
خزانة شمائل ، فى السجن أقسم لو أنه خرج ليهدم الخزانة البشعة ويقيم مكانها
مسجدا تتحدث به الأجيال ، وفعل خرج ، هدم خزانة شمائل ، أقام مسجدا تفخر به
القاهرة الآن ، لكن هل يعلم المصلون فيه والفقهاء من الذى ساند الملك المؤيد ؟ من
السبب فى بناء المسجد ؟ كتب التاريخ لا تذكر هذا ، إنما الأمر محفوظ فى ديوان
البصاصين ، كبير البصاصين هو السبب ، كرسى السلطنة ليس بعيدا عن يدى
زكريا ، من هنا يزحزحه ، لو طال العمر بشعبان حتى يقربا بينه وبين الغورى ، لكن
الضرورة أوجبت قتله ، كان قمرا ، لكن لابد للأقمار أن تغرب وتمضى ، اليوم سيرسل
زكريا فى إحضار المشرف على أبراج الحمام الزاجل ، نظام دقيق استحدثه يتفخر به
على البصاصين فى أنحاء الدول والإمارات ، كل حماسة تعرف أى الطرق تسلك ،
لا تطير فوق بيت فيه إنسان ، فوق قافلة فى الصحراء ، إنما تعبر الخراب إلى أهدافها
ولو طال بها الزمن ، اليوم ستطير الأسراب ، ليعلم المباشرون وأصحاب الإقطاعات
ومشايع البلاد ، حتى العامة من الناس الذين خدعوا فى الزينى ، أى خطأ أتاه
السلطان عندما وُلَّى على أمة الإسلام فى مصر رجل لا يعرف له أصل ولا فصل ،
لم يره أحد يصلى جماعة فى يوم جمعة ، يظهر العدل ، ولا يعرف أحد ما فى عقله ،
أبطأ فى استخراج أموال على بن أبى الجود ، ومن يدري ؟ ربما شاركه خفية من قبل
أن يعرفه أحد فى أذية الخلق ، ستطير الأسراب إلى بيت الأمير طغلق شادى
العمائر ، وبشتاك المعروف بين الناس بفول مقشر ، فتنة واحدة بين طشتمر وخاير
بك لا تكفى ، سيعلم طغلق أن بشتاك فول مقشر يحط من شأن المسجد الجديد الذى
بناه للسلطان فى سوق الشرايشيين ، فى نفس الوقت يعرف بشتاك أن طغلق يضحك
عليه ، يقلده ويلمح إلى بشتاك فى التشبه بالأمراء المقربين جدا من السلطان ، يقول
عنه ، هذا رجل محدث نعمة ، الآن يبتسم زكريا ، خطواته تسرع ، سينتفخ فم طغلق
يرمى زبدا أبيض ، يسلط كل منهما مماليكه على الآخر ، تضطرب أحوال الناس ، ترفع
البضاعة من الأسواق ، يكثر النهب ، يقوم عدد من أشداء البصاصين بخطط عدة
أبكار وغلمان ، الآن يتوقف زكريا عن الرواح والمجىء ، يمضى النهار وأدعا يكاد
يسمع سريانه فى الفراغ ، ما أحب الشتاء إليه ، أمسك المطرقة الجلدية ، خبط الطبق
النحاس ، مرة واحدة لها رنين .

★ ★ ★

مساء الثلاثاء سابع ذى القعدة نداء

يا أهالى مصر
نوصى بالمعروف وننهى عن المنكر
نعبد ونسجد ونحمد
من اذل كل لئيم متجبر
يا أهالى مصر
البشرى لكم
يا امر مولانا السلطان
بعد اطلاعه على أوفى بيان
رفعه الزينى بركات بن موسى
ناظر حسبة القاهرة والوجه القبلى
وشرح فيه حقيقة الأحوال
وما يمس العباد من الرعية الفقيرة
تلغى الضريبة على الملح
وتطلق يد التعامل فيه
من بعد أن كان حكرا على القلة القليلة
يا أهالى مصر
يا امر مولانا السلطان
بعد أن أطلعه الزينى بركات على حقيقة الحال
برفع احتكار الأمير طغلق للخيار الشنبر
وسائر أنواع الخضار
وأن يبيعه الفلاحون فى الأسواق بلا وسيط
حتى تنحط الأثمان
ومن يضبط حارسا أو مملوكا
من القراصنة أو الجلبان
يتقاضى ضريبة على حمولة خيار أو خضار
عند أى باب من أبواب القاهرة
يشنق بلا معاودة .

من نداء طاف به المشاعلية مساء نفس الثلاثاء ، سابع ذى القعدة

يا امر مولانا السلطان

بعد أن أطلعه الزينى بركات بن موسى

متولى حسبة القاهرة والوجه القبلى

على الأحوال

ألا يمشى مملوك ملثما بعد المغرب فى الطرقات

وألا يدخل مملوك بسلاحه الحارات

بعد العشاء

★ ★ ★

من نداء غير عادى شهره رجال الزينى مساء الثلاثاء ، سابع
ذى القعدة ، بين الناس الذين نزلوا الطرقات يسمعون بفرحة ما ينشر
وما يقال :

بعد الاطلاع على رأى الشريعة

واستشارة أهالى الرأى والمشورة

والبحث فيما مضى وانقضى

يا امر الزينى بركات بن موسى

متولى حسبة القاهرة والوجه القبلى

بإبطال عادة نعى الموتى بدق الطارات

ومن ضبطت تدق طارا على ميت

تشهر بغير معاودة

★ ★ ★

نداء أعقب السابق مباشرة :

خصص الزينى بركات بن موسى

متولى حسبة القاهرة والوجه القبلى

بابا من أبوابه

لتلقى المظالم ..

كل من وقع عليه ظلم

من أى كبير أو صغير ..

فليتوجه إلى الزينى بركات

لاسترداد ما ضاع من حقه

(عنوان رسالة ، وصلت إلى دار زكريا بن راضى ، مع رسول خاص .
من رجال الزينى) :

« والتين والزيتون . وطور سينين وهذا البلد الأمين »
إلى كبير بصاصى مصر . ونائب الحسبة الشريفة .
الشهاب زكريا بن راضى له السلام ..

★ ★ ★

نداء فى ليلة الثلاثاء ، نفس الوقت الذى وصلت فيه الرسالة إلى
زكريا :

من الآن فصاعدا
ستعلق فوانيس كبيرة تضىء بالشحم
هندسها وسواها
الأمير طغلق شادى العمائر
بعد استماعه إلى رأى الزينى بركات
متولى حسبة القاهرة والوجه القبلى
على كل باب حارة
تحت كل منزل وقصر
أمم كافة الوكالات
ستعلق الفوانيس الجديدة
وسيقوم رجال الزينى بإضاءتها كل ليلة
وبمعرفتهم
حتى تمام القاهرة أمنة
وحذار أن ينزع مصباح من مكانه
وإلا جوزى وعوقب أصحاب المكان
يا أهالى مصر
لن يكلفكم الأمر درهما
فتعاونوا مع ناظر الحسبة الشريفة
يا أهالى مصر
يا أهالى مصر

★ ★ ★

يأمر مولانا السلطان باستمرار زكريا بن راضى نائبا للمحتسب كما
كان فى كافة وظائفه ويقرن اسمه بلقب « الشهاب » :

يا أهالى مصر
يا أهالى مصر
اهتموا . اعتنوا بالفوائس الجديدة
ومن يضبط مخالفا لأوامر ناظر الحسبة
شنق بغير معاودة ..

من عمرو بن عدوى

إلى مقدم بصاصى القاهرة
تقرير فى وصف ما دار وما جرى
بين العامة والناس . ليلة الثلاثاء
سابع ذى القعدة ..

أجمع العجائز . وكتبة الدواوين . والقضاة . والمطلعون على حقيقة ما جرى
خلال الأزمان الغابرة أن ما شهدته القاهرة ليلة الثلاثاء سابع ذى القعدة لم يحدث من
قبل قط . لم يعرف مثيله فى بلد آخر . سمعت هذا بأذن من مجاورى الأزهر . وعجائز
زاوية الحلوجى وتجار الغورية والباطنية . والحلاقين الجالسين أمام باب المزينين .
وزاوية العميان . بجامع الأزهر . إذ لم يحدث طواف المنادين من قبل . كل نصف
ساعة . يتقدمهم طبل . وفى كل مرة ينقلون أمرا أو خبرا جديدا إلى الناس . ولكثرة
ما قالوه من نداءات لم يكرر نداء واحد قط مع أن العادة جرت من قبل أن يردد النداء
السلطانى أسبوعا كاملا خمس مرات يوميا إلا فى حالة وقوع حدث مهول . رأيت
الزحام عظيما . خرجت الباطنية برجالها ونسائها أجمعين . النساء يطلقن زغاريد
وأيد تلوح وحناجر ترزق . وتفاوت كلام الناس . وحتى لا اطليل وأكرر . أجمل
ما سمعت كما يلى :

أولا : كثر الدعاء بعد النداعين الاول والرابع . للزينة بركات . وكثر الكلام
الطيب من سائر الأفواه . خاصة النساء . اللواتى رحن يهتفن ويهرجن . ويصحن
« إدام الله أيام الزينة » . وأجمعن على معرفة الزينة بما يقرص أبدان الناس
وارواحهم من مواجعهم لأنه ليس متعاليا ولا متغريبا . إنما يعرف أحوال الخلق .
ويشعر جسمه

لذكر المظالم ، يأنف تعذيب الإنسان ، ويركع الصلوات في أوقاتها ، قال الرجل (وهو بائع هريسة متجول ، اسمه شمس الرمضاني ، ويسكن أول ربع في حارة الروم الجوانية عمره فوق الأربعين ، لحيته بيضاء ، أعرف مكانه) انه يرى الزينى بخل متخفيا في النهار والليل يتسمع أحوال الناس ، يجس ما يؤلمهم ، وإن الله أرسله في هذا الزمان نصيرا للفقراء ، وقال انه يعرف خادما في بيت الزينى بركات يقول ان سيده يبكي طويلا قبل نومه لعلمه تماما أن الليل يرخى سدوله على حزانى مظلومين ، الزينى يتعذب كثيرا بسبب هذا ، يطلب من الله السماح في الدنيا والآخرة لأنه لا يمكنه إزالة كل ما يقع من مظالم ، وأشيع بعد النداء الرابع طلوع الزينى بركات إلى السلطان وخلوه به فترة طويلة ، قال فيها للسلطان ، انت مسئول عن هذه الرعية أمام الله تعالى يوم القيامة وسوف تحاسب انت واحاسب انا على كل ذنب ارتكب علمناه أو جهلناه ، ابن نروح يومها من جبروته ، أصغى السلطان طويلا إليه ، كان حديث الزينى مشفوعا بآيات قرآنية واحاديث نبوية ، ونصوص من متن لا يجيدها إلا أفقه العلماء (قال التجار انه يحفظ القرآن كله وله شرح مخطوط لم يطلع عليه احد) ، تحدث الزينى عن الأمير شاريك ، واحتكاره للملح في بر مصر كله ، وانه الوحيد الذي يتجر فيه ، إذا ضبط إنسانا غلبان يبيع بنصف درهم ملحا يعاقبه بقطع ذراعه اليمنى ، واليسرى إذا كانت اليمنى قطعت من قبل أو ساقه اليمنى إذا سبق قطع الذراعين ، واليسرى إذا سبقتها اليمنى ، أو يحضر ابن المخالف أو أخاه أو أمه أو أباه إذا وجد بلا أطراف ، احتكار شاريك للملح جعله يزيد في سعره كما يشاء ، أحيانا يعتدل مزاجه فينزل بالثمن إلى الحضيض ، إذا شط مزاجه وغضب شهر المناداة برفع السعر ، هذا لا يضر إلا بالرعية نفسها ، قال الزينى : الناس لا يجهرون عندئذ إلا بالدعاء على السلطان نفسه وأظهار النقرة عليه والغيظ منه ، قال الزينى الأمر أدهى وأفدح خطرا بالنسبة للخيار ، لأن الأمير طغلق خرج على أحد المتاجرة فيه أو يبيعه أو شرائه إلا عن طريق نوابه ، وأكد التجار أن الزينى أجرى الدمع من عينى السلطان حتى أطلق السلطان يده فيما يشاء ، بشرط ألا تنخفض مالية البلاد درهما واحدا ، السلطنة أحوج ما تكون للفلوس هذه الأيام بعد انقطاع عديد من الموارد ، أبدى الزينى مقدرة على تحقيق هذا ، بعد نشره النداءات تعالت الشتائم ضد الأمير طغلق ولو طالته الأيدي لقطعته حتا ، كما جهر البعض بهذا ، لعن العامة أجداد الأمير شاريك وكثر الدعاء عليه ، وحدث أن رمى بعض الفقراء نقوطا للمنادين إظهارا لفرحتهم وبهجتهم ..

ثانيا : سمعت بأذنى ثلاثة رجال يتحدثون في قهوة (لانضى) ، أحدهم أعرفه واسمه فتوح الاسكندراني من سكان باب الشعرية ، عنده معصرة زيوت ، وله من

العمر خمسة وخمسون عاما ، يقولون كلاما له طعم آخر ، إذ أبدى فتوح الاسكندراني
شكا ورغبة في نداءات الزينى ، قال فتوح ، الأمر لن يستمر على ما هو عليه ، السلطان
لن يسمح باستمرار الأمور هكذا ، إلا .. إلا إذا احتوى الأمر غرضا يتفق مع مصالحه ،
وبذل جهدا فى إقناع الحضور ، أكثر من إشارة يديه ، بلدرت إلى نكشه محولا
استخراج ما فى رأسه ولم يخرج حديثه مع صاحبه عن هذا ، وفى مقهى آخر صاح
رجل اسمه أبو غزالة فى مصبغة بحارة الميضة « حقا .. ومتى كل أحد الحكام يظهر
العدل ؟ »

ثالثا : قرب سوق التبريعة حيث يكثر تردد النساء على محلات التجار الشوام
هناك ، تسأل الرجل عن مغزى منع النساء من دق الطارات حزنا على الموتى ؟
أجمعت أراؤهم على حق الزينى بصفته محتسبا فى منع هذه البدعة ، لكن الأمر
الأخطر من هذا ، الأكثر فداحة ، ما يخص الفوانيس ، قال عبد الحميد رئيس طلائفة
السقائين فى القاهرة (ومجلسه دائما عند هؤلاء التجار) ، قال هذه بدعة ما يصح
نشرها فى أمة الإسلام ، وقال أحد المجاورين فى نفس الموضوع (اسمه جاد الله ،
صعيدى يسكن رواق الصعايدة) يريد الزينى إدخال بدعة جديدة تنسب إليه ، قال
آخر ربما أخذت البدعة البركة من الناس ، كثر الحديث عن تعليق المصابيح ، قال
آخرون ، ربما منع هذا هجوم المنسر فى الليل ، وأجيب على هذا بسؤال ، هل يمنع
الضوء هجوم المنسر ؟ يعنى إذا قصد المنسر أو الممالك الهجوم على حارة من
الحوارى فهل يمنعهم هذا ؟ سيكسرون المصابيح وينفذون ما بأغراضهم ، قال اليهود
مادمتا لن ندفع درهما لا بأس ، وقال بعض المشايخ ، لم يظهر من الزينى إلا الخير
فلا بد من احتواء الأمر الجديد على نفع ، وبعد انتهاء المنادين من الطواف خرج
رجال الزينى طلوعوا فوق سلالم خشبية يدقون المسامير الكبار فى الجدران ، يربطون
إليها الفوانيس ، ثم يشعلونها وعند انبعاث الضوء منها يهلل الجميع ويزعقون
« هيه .. دامت الفوانيس ، هيه عاشت الفوانيس » الفوانيس ، الفوانيس ولم تنم
القاهرة فى هذه الليلة بسبب ذلك ..

رابعا : أثناء دخولى جامع الأزهر عند الفجر ، رأيت طالب العلم الأزهرى ،
سعيد الجهينى (ذكرته مرات من قبل) يجلس بين جمع من الطلبة ، كان يكثر من هز
قبضته ، على وجهه غيظ ، وعدم رضاء وكمد وحقد دفين ، وكلهم مصغون إليه ،
القيت السلام ، وروعت إذ وجدته يشير إلى امر لم يتردد على السنة الناس قط ،
لم أسمع من مخلوق ، سعيد الجهينى يعلق على ما جاء فى النداء الخاص
بالفوانيس بإقرار الشهاب الأعظم زكريا بن راضى نائبا للمحتسب ، تركز كلامه فى
الآتى :

١ - وقوع قهر على الزينى بركات بن موسى من ناحية الشهاب وأعوانه حتى يتم إقراره نائبا للحسبة .

٢ - إنه عليم بالزينى بركات وتأكده عن عدم رضائه عن القرار .

٣ - كل ما أذيع من نداءات متتالية الغرض منه شغل الخلق عن اخطر ما فى الأمر وهو إقرار الشهاب الاعظم وإعطاء الشرعية لوظائفه .

٤ - قال بالحرف الواحد الجمل التالية :

« بدأت الامور تضطرب ،

« هذا فال سىء ،

« اللهم نجنا واسترنا ،

وحتى كتابتى هذا لا يكف عن التنقل بين المجاورين بجهر بنيته فى الطلوع إلى شيخه أبى السعود ، شارحا له الحال ، طالبا تدخله فى الأمر ، وهو مستمر فى سب الشهاب الاعظم بأنتن الألفاظ ، وأقبحها .

خامسا : خطب بعض الوعاظ ، وخطوا فى حق الفوانيس ، من فوق منابر المساجد ، وسخر الشعراء فى المقامى من الأمر الجديد ، وألفوا شعرا قالوا فيه :
« الحق يا متعوس ، وإلا علقوا لك فانتوس .. »

نداء

الجمعة ، عاشر ذى الحجة ، ٩١٢ هـ

يا أهالى مصر
نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر
اليوم ، قابل السلطان
قاصد ملك الحبشة
وقاصد ملك البنادقة
أنعم على كل منهما بخلعة
كاميلية محمل ، بفرو سمور
يا أهالى مصر
وقعت قطيعة مفاجئة
بين الأمير بشتك فول مقشر
والأمير طغلق شادى العمائر
لأن البشتك صنع على المئذنة
الجديدة فى جامع السلطان
قال ، بها بعض الميل

★ ★ ★

سعيد الجهنى :

هذا زمان الحيرة وسيادة الشك وفناء اليقين ، تغيب التفاصيل ،
تطغى رغبة ، أه لو هج فى بيدا لا أول لها ولا آخر ، لا عرض لها
ولا طول ، ينحل شعره ، يبلى جسمه ، ربما عرف ما غاب عنه ،
ما هجره ، ما كساه السحاب ، ما تقنع بالضباب ، كيف يفنى
عمره ، ينوب وجده فى عشق لا أمل فيه ، زاده .. شعوره بوجودها
فى بيت لا يطرقه كل أسبوع إلا مرتين ، إنما يتمنى رؤيتها ، تطلع
الشمس من الشرق ، تنزل الغرب ، كم تبعد السماء الأولى عن الثانية ، عن الثالثة ؟
هل تقاس المسافة بالطول أم الزمن ؟ كم تبعد النجوم عن الأرض ، وأى سلاسل
ضخمة تربطها ، تمنعها من السقوط ، وهذه النجوم التى تهوى أهى أرواح شريرة
مطرودة من الجنة ؟ تبدو لحظات فى العتمة ، تضيق فلا تصل الأرض ولا تستقر فى
سما ، حتى ذيول اللهب التى تسحبها تمحى كحلم ثقيل ، كيف لا تطغى البحار على
اليابسة ؟ كيف يمتلىء النيل ويفيض ثم ينحسر من جديد ؟ عندما ولد الزينى بركات
هل درى بما كتب فى لوحه المحفوظ ؟ يوما سيصبح محتسبا ؟ سينتظره رجل اسمه
زكريا ، كيف ، كيف يقبل استمرار زكريا بن راضى نائبا له ، يحيط الحسبة
باعتى البصائين ، أكثرهم مقدرة فى بث الرعب والخوف ، فى حجارة المباني ، فى
الطيقان ، الزوايا ، فوق وسائل النوم ، وماذن المساجد ، فى أرضية محراب الصلاة ،
هل ضل عندما ذهب إلى بيت الزينى ليصاحبه إلى كوم الجارح ، لكنه مازال يعلن ، من
له مظلمة فليطلع عنده ، ويوميا يتردد على باب كل صاحب شكوى ، الناس
لا يقصدون إلا هو ، عطل أبواب الأمراء والقضاة ، حتى أشيع أن الزينى ينوى
الجمع بين القضاء والحسبة ، ورد الزينى على هذا بركوبه بغلته وتوجه إلى جامع
الأزهر لصلاة الجمعة ، خطب فى الناس نافيا كل ما يتردد عنه ، قال إن الحسبة
تقتضى منه وعيا ويقظة ، فهل يتحمل عبء الجمع بينها وبين مهام أخرى ، هل
الناس له ، كبروا ، حاولوا تقبيل عبايته ، نتر فيهم الزينى وأبدى غضبا وغيظا ،
لحظتها أطبق الهم على ضلوع سعيد ، رأى الشهاب الأعظم زكريا بن راضى ، أول
نواب الزينى ، يمشى وراءه ، يتشح بعباءة زركش صفراء وعمامة علانية بلا علامات ،
ياقوته حمراء فقط تتوسط رباط الشاش المحيط بها ، شكا إلى منصور صاحبه وزميله
فى الرواق همه ، قلق منصور ، الأروقة تشفى من جديد برجال زكريا ، بمستصنعيه ،
لأبد من التزام الحذر فى الكلام ، سعيد لا يجهلهم ، يسمع خطاهم الخفية وراءه ،
انسلاهم من الهواء ، تنفذ إليه نظرات عمرو بن العدوى ، عمرو اشترى عباءة جديدة
ومركوبا ، أشيع أنه يذهب إلى امرأة فى بيت « أنس » يشتري لها اللحم ، والخضار
والسنبوسك ، سعيد يود لو يجالسه بقلب صاف ، ما الذى يدفعه إلى رفع كل أمة

وهمسة إلى زكريا ؟ لكن كيف يصل به الفكر إلى هذا ؟ صاحبه منصور لم يظهر ضيقا
بزكريا ، قال : الزينى لا يتحكم فى الأمور كلها ، هو جديد على المنصب ، ورجل مثل
زكريا لا يستهان به ، ومستحيل تجاهله ومن يدري .. ربما هذه خبطة واعية من
الزينى ، حتى لو عزل زكريا فهو خطر كامن كالحفرة المموهة ، يمسك بأسرار السلطنة
والأمراء فهل يصطدم به الزينى أم يضمه ويحتويه .. لم يقل سعيد حرفا ، أى الأمور
أصبح ، رأى كل أمر فى الدنيا يسلك طريقا لا حيدة عنه ، طريقا ملتويا ، عليه ضباب ،
دخان كثيف ، منصور ينتحى ركنا فى مقهى ، لانضى ، يمد يده ، يسوى الدخان فوق
حجر الجوزة ، يفرق فى لب الدخان ، خلاصة النجاة من الأحزان ، حبيبته النائية
تدنو ، يفتح ذراعيه ، يحتويها ، تقترب إليه ، تجثو عند قدميه ، يهاجر الى أرض واق
الواق ، يغزو جزر النساء ، يرى الزينى رسولا منزلا ، وزكريا تابعه الأمين ، يحمى
الامن ، يقصى البلاء ، يدفع الفتنة ، منصور يقول قبل هجرته الى دنيا النسيان ،
لا امر يعنينى فلماذا اشغل نفسى ، كتبت على سنين اعيشها فى الدنيا ، والدنيا
فانية : فلأنهل من ينبوع اللذة ، اسلك طريق السلامة ، ولا أكون خفيف العقل ،
فاتشنج لحظة ، وانتقلص لحظات ، يدعو سعيد الى رفقة فهو يشعر بالوحدة لحظة
هجرته الى عالم الغيب الأزرق حيث الحور والولدان ، يضيق سعيد ، يمضى خارج
دكان ، لانضى ، الطرقات تضيئها الفوانيس ، حتى الآن لم يحسم أمر الفوانيس ،
فتنة توشك على الاندلاع بسبب الفوانيس ، أهو مع تعليق الفوانيس أم ضده ؟
لا يدري ، لم يطلع الى موله منذ أربعة أيام ، أه لو يرحل الى الصعيد ، يرمى عن
كتفيه ما ناعنا به منذ سنوات مجيئه الى الأزهر ، أه لو يمضى الى جامع الحسين ،
يشد عمره الى الباب الأخضر ، لايفارق الحبيب ، يقلو الأنكار ويناجى الشهيد ، أه لو
يمضى الى سماح ، يفرغ خمارها ، يضمها كنزا غاليا وطلسمًا وشعرا لم ينشد مثله
وجنة ضائعة ، لكنها سراب ظلمى لا يدري مايفعل ، سماح مسخت النساء كلهن فلم
يعد إلا هي ، ما عداها أرض خراب ، الأمان فى بعدها عنها ، تحرقه الرغبة ليلالى ،
يتكد فراشه فى الرواق بنيران هادئة لا تخبو ، يحاول معرفة ما يجرى فى بيت
، انس ، دخول الرجال ، انتقلوهم مايريدون ، لا يعرف الرجل اسم من ينام معها ، قال
منصور : فى أول مرة سألت البنت عن اسمها ، فضحكت منى ، قالت راوية وعرفت أنه
ليس اسمها ، أه لو يذهب الى بيت انس ، الا يستطيع ؟ سماح لا تتجرد من ثيابها فى
مخيلته أبدا ، لا يجرؤ على رؤيتها مضطجعة فى وضع مثير ، أحلم هي ؟ لا يذكر لون
عينها ، مذاق نظراتها ، ملامح وجهها التى تجعلها سماح ، وليست إنسلنة أخرى ،
من أعوام كان سعيد صفحة بيضاء لم يجر فوقها المداد ، لم يخدشها سن قلم ،
تمتلىء الدنيا أمامه بالحروف ، الآن ، علامات التعجب والاستفهام ، ألف سؤال حائر
بلا هداية ، الدنيا كلها سؤال لا أول له ولا آخر ، باق مخلد فى مخطوط عتيق تهرات
أوراقه ، متاكل الحواف ، كشطت حروفه .

« قسم خاص »

به « نتف » مما قيل بشأن واقعة الفوانيس

١ — جزء من خطبة الجمعة التي أقيمت من فوق منابر المساجد ، أخرجها القعدة ٩٠٩ هـ ، وهذا الجزء قاله الوعاظ كلهم على اختلاف مذاهبهم .

« يا أهل مصر ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يستحي العالم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم » نقول هذا لمن أحلوا تعليق الفوانيس ، أمام البيوت والدكاكين يدعون العلم بالتواريخ والأحداث التي جرت وينقصهم القول بما سيجيء ، هنا ندخلهم في زمرة الكافرين ، قالوا سبق لعديد من الأمم أن علق حكامها الفوانيس في شوارعها ، فهل ذكروا لنا مثلاً بعينه ؟ أهل كان رسولنا يمشي على هدى الفوانيس ؟ وفي رحلتى الصيف والشتاء إلى الشام واليمن هل أضىء طريقه بفوانيس صنعها بشر ، نقولها عالية ، نقولها بلا حرج ، نقولها ورقابنا على أيدينا لهؤلاء الذين يدعون العلم بالحكم التاريخية ، والأحاديث النبوية ، والمتون الخفية ، والأصول المرعية ، وهم جهلاء يخفون جهلهم ، نقولها ولا نهاب لا نخاف ، لا نخشى ، يا أهل مصر لم يحدث تعليق الفوانيس من قبل ، لقد أمرنا رسولنا الكريم بغض البصر عن عورات الخلق ، والفوانيس تكشف عوراتنا ، خلق الله ليلاً ونهاراً ، ليلاً مظلماً ، ونهاراً مضيئاً ، خلق الليل ستاراً ولباساً ، فهل نزيح الستار ؟ هل تكشف الغطاء الذي أمدنا الله به ؟ هل نتطاول وتبدد سواد الليل من كل شبر في المدينة ؟ هذا كفر لا نقبله ، هذا خروج عن الحد لانرضاه ، ولولا اقتناع الكل منا بسلامة نية الزينى بركات لقلنا أنه يقصد ما يقصد ، لكنه منذ استلامه أمور الحسبة لم يبدر منه إلا ما هو خير ، ولن تحول الفوانيس ثقتنا عنه ، لن تشككنا فيه ، يا أهل مصر توجهوا إلى بيت الزينى بركات بن موسى أفراداً وجماعات ، زرافات ووحدانا ، قوموا إليه ، إلى بيته طالبوه بمنع الفوانيس التي تهتك السر ، وتشجع النساء على الخروج بعد العشاء ، قوموا إليه ضارعين متشددين ، راجين حازمين ، لا يرجعكم لين حديثه عما انتويعتموه ، لا تغيبوا عن مقصدكم ، الفوانيس علامات آخر الزمان ، من علامات دنيا تخرج عما رسمه البارئ عز وجل ، طالبوا سلطاننا بتوسيط كل من أوحى إلى الزينى بهذا ، بحرقه ، برجمه ، هؤلاء الجهلاء دعاة العلم ، أه من يوم تسود فيه الفوانيس اللهم قنا شره ، اللهم أبعدنا عنه ، اللهم لا تمد أجلنا حتى نراه .
(وهنا تعالى بكاء الناس في الجوامع ، وزعق بعضهم ، اللهم اهدم الفوانيس ، اللهم اسحق الفوانيس)

فتوى قاضى قضاة مصر :

« الفوانيس تذهب بالبركة من بين الناس »

أول محرم ٩١٣ هـ

قاضى الحنفية يقول رأيا مخالفا :

الفوانيس تطرد الشياطين ، وتنير المسالك فى الليل للغرباء ، وتمنع ممالك
الأمراء والمنسرى من الهجوم فى الليل على الخلق الأبرياء .

قاضى القضاة بالديار المصرية :

« خرج أحد كبار العلماء عن الحد ، خالف الأصول ، ونفى الفروع ، بانحيازه الى
صف الفوانيس » .

« الأمراء الكبار يطلعون الى القعة »

« مولانا السلطان ، تسبب تعليق الفوانيس بجميع الحارات فى تشجيع حريم
العامّة على الخزل بعد العشاء والتجول فى الطرقات ، والسهر أمام الربوع
والأسواق وهذا مخالف للحشمة ، وخادش للحياء » .

« خاير بك »

« العيال الصغار لا يرجعون الى بيوتهم الآن مبكرين .. إنما يبقون فى الشوارع
ساعات ينشدون ويغنون ، وأحيانا يقلسون ويرجمون مما ليكنا بالحجارة ، ويتبادلون
قبيح الألفاظ » .

« قوصون »

« مثل هذا الأمر لا يبتدعه إلا إنسان يبغى نشر الفتنة .. والفجور »

« طغلق »

« إنارة المدينة ، وسهر الأهالى على ضوء الفوانيس أمر جرح للهيئة ، ومهين
للسلطنة »

« قذبك »

الزيني يرسل رجاله أول الليل ، يطلعون فوق السلالم الخشبية لينبروا
الفوانيس وينظفوها ، كما ما يقول ، لكنهم يامولانا ويا أمراء ، لا يقومون إلا
بالتجسس على الخلق ، وعلينا ، يهتكون حياة الناس داخل بيوتهم »
« طشتمر »

* * *

« هذا حق .. هذا تمام .. »

« كافة الأمراء »

* * *

« قاضي القضاة عبد البر » :

« سجل قاضي الحنفية سابقة خطيرة لم تحدث من قبل ، خالف رأينا ، قال .. لا ..
وهذا حدث مهول »

* * *

رواق الصعايدة :

أبدى بعض المجاورين إستحسانا لرأى قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة ، قالوا إن رجلا مثله لا يمكن أن يشغل روحه بالفوانيس إلا إذا عظمت أهمية الأمر ليس كما ينهيا للبعض ، قل سعيد ، تبالغون فى الأمر ، أشار الى الطرقات الكبيرة فى مدينة القاهرة ، وإضاءة دكاكينها طوال الليل ، هنا قال أحد المجاورين : كلام غير صحيح ، الدكاكين تغلق بعد العشاء ولا ينتصف الليل إلا والكل فى بيته نيام ، علا صوت سعيد ، ايكره أحدكم إضاءة الحواري والبيوت حتى يأمن الناس على أرواحهم ؟ ما يريد الامراء أن تبقى العتمة حتى يعبث مماليكهم كما يريدون ، علا صوت عمرو بن العدوى .. بالضبط مايقوله سعيد صحيح ، قال مجاور شامى ، أنت ياسعيد تخالف دائما ، قال مهتاجا ، لا أخالف إلا ما أراه خطأ ، تساعل مجاور نوبى ، وهل يخطئ قاضى القضاة ؟ مال منصور الى سعيد ، يخالفه الرأى ، ما الداعى لبدعة الفوانيس ؟ ألا يوجد من أمور الناس ما هو اهم منها واجدر بعناية الزينى واهتمامه ؟ ثم بصراحة ياسعيد هذه البدعة لا تزيد الأمور إلا فسادا ، اطرق سعيد ، من يدري ، ربما تضمنت بدعة الفوانيس أغراضا تغيب عن عينيه هو ، تساعل المجاور الشامى ، الناس تقيم الدنيا وتقعدها ، لكن هل جرؤ كبير أو صغير على إزالة الفانوس المعلق أمام داره ، صاح مجاور من منفلوط ، يهابون الزينى ، قل عمرو ، بالضبط ، سخر منصور ، أيششاه اتابك العسكر نفسه ؟ قرص سعيد طرف شفته العليا ، أه لو يقول لهم ، بدلا من إنهاك أرواحكم أرقبوا مايفعله زكريا ، كيف فرض نفسه على الزينى ، لكن .. أحقا فرض نفسه ، من يدري ، ربما جاء المنصب برضاء الزينى ، قال عمرو بن العدوى ولكن الحكاية ليست حكاية فوانيس .. أبدا ..

* * *

هتف الخلق فى الجوامع والطرقات ،

لعن الله الفوانيس

لعن الله الفوانيس

□ □ □

سعيد الجهيني

من قبل ، سعى اليه ، بعد الفجر صاحبه الى الشيخ أبي السعود ،
هاهو ذا البيت ، البوابة مفتوحة ، لم يزد الزينى فى بقله ، من
حقه كناظر للحسبة الانتقال الى بيت أكبر ، لكنه يبقى هنا ، أمام
البيت يقف رجل نوبى يرتدى القميص الأخضر ذا الياقة والأكماس
الصفراء ، أمر جديد ابتدعه الزينى بالنسبة لنوابه ورجاله فى
الطرقات التابعين له ، لباس واحد ، فى الناحية الأخرى يقف خلق
كثيرون ، يمتد الصف بهم حتى يخرج من الباب الآخر للبيت المطل على الطريق
الخلفى ، تساعل النوبى : هل تبغى مقابلة الزينى بنفسه ؟ أكد سعيد ، نعم ، غاب
الرجل عنه ، أصوات أصحاب المظالم خافتة برغم عددهم الكبير ، إذ يلتقى بالزينى
يفتح له قلبه ، سيقول له أعانك المولى على احتمال ما تتعرض له ، عندما مشى
بجواره فى هذه الليلة البعيدة ، لم يقل الزينى كلاما كثيرا ، لم يخض فى تفاصيل ، لو
رآه الآن ينقطع الحديث بينهما ، سعيد يقول له ما مهد الشك الى قلبه ، الزينى يذكر
كافة ما يضايقه ، ما يتطلبه منصب الحسبة ، ما يجنيه من كلام الناس . عاد الرجل
النوبى ، نزل الزينى من البيت أول النهار ، ربما رجع بعد العصر ، وكان سعيد توقف
فجأة بعد جرى ، تساعل ألا تعرف أين ؟ قال النوبى ، للزينى جولاته التى لا يعرفها
انسان ، ليطمئن على الناس ، لكننى أعرف مهمة واحدة من مهامه اليوم .. كما تعرف
هناك وقية بين ممالك طشتمر وخاير بك ، ناحية حارة الجوانية ، انتهزوا فرصة
الخرناق ونهبوا عدة دكاكين فى الخط .. والزينى قصد الحارة لأحصاء المال المنهوب
وما لحق الناس من أضرار ، ورفع الأمر الى السلطان ، وتساعل سعيد .. متى جرى
هذا ؟ قال النوبى معجبا ، طوال الليل ، كيف حدث ما حدث وسعيد لم يصله خبر ،
ربما لبقائه فى الدرس حتى الظهيرة ، لكن ألم يصبح الصلح وشيكا بين طشتمر
وخاير بك ؟ هو النوبى رأسه ، أبدا ، بعد أن اتفقا على ضرورة التخلص من الفوانيس
كبكية الأمراء ، قال خاير بك ، لا أتفق مع طشتمر أبدا ، وعندما بلغ طشتمر هذا ..
صاح .. أبحرني والله لأقلبها فوق رأسه . فجأة علت ضجة ، فلاحون وجوههم
معفرة ، عيونهم تطير هنا وهناك لا تستقر على حال ، رأى سعيد أطفالا صغارا فى
قريته البعيدة ، رعوسهم ضخمة ، رقابهم نحيلة كالعبدان ، يمضغون تراب الطريق ،
عيونهم أوطان للذباب ، وجد نفسه يحمد الله لأنه لم يخلق فلاحا يشقى فى الغيط ، فى
رفع الماء من التربة الى القنوات ، تفرض عليه الآتاوات ، يجلد الكشاف ، يسعى
الى المدينة ليجهر بالشكوى ، لا يرجع الى عياله أبدا ، لم يقطع مايفكر فيه إنما تملأى
حتى تساعل ، كيف حالى لو خلقت فلاحا ؟ سأل البواب النوبى بعد لحظات صمت ؟

لكن ما الذى تقصده من مقابلة الزينى ؟ ، اكد ان نائب الزينى الموجود حاليا يمكنه الاصغاء الى ما يقوله ، قال سعيد ، الزينى يعرفنى لابد من مقابلته هو ، ، سعيد لايشى باحد لكن امامه أدلة وقرائن تثبت ان برهان الدين بن سيد الناس ، تاجر الفول صاحب عدة مراكب فى النيل ، ومكامير فى منية ابن خصيب ، برهان منذ مدة يشتري الفول من الفلاحين ويخزنه عنده ، أنشأ من الصوامع ما يفوق الحصر والعد فى ساحل اثر النبي بمصر القديمة ، يبرطل على عدد من كبار الأمراء ليفوز فى نهاية الامر باقرار شرعى من السلطان يقضى باحتكاره الفول ، هذا يعيد بلية قديمة يعمل الزينى على إنهاؤها وهى احتكار فرد بعينه أو مجموعة ناس لصنف معين من الخضار أو البقول أو البضائع ، فما بالك والأمر بهم الخلق أجمعين ، ماذا لو طلعت فى دماغ برهان الدين بن سيد الناس ؟ يمنع الفول عن الأسواق حتى يعز وجوده ، والحق إنها حادثة لم يسمع لها مثيل ، لم يحاول تاجر من قبل احتكار بيع الفول فى مصر ، لن يسكت الزينى ، تساعل سعيد : ايقلقه الأمر فعلا ؟ ام ينبغى التاكيد من عدل الزينى ؟ الحق انه لايدرى الآن ، يعبر طريق أمير الجيوش ، المطارق تنهال فوق النحاس الأحمر ، تشكله حلا وأباريق ، مكارى ربط حماره الى وتد بالطريق قعد بجواره يمضغ رأس فجلة وخيزا ، ها هو ذا دكان حمزه بن العيد الصغير يرتاح الى الجلوس فيه لايعرفه مخلوق هنا ، يخلو الى روحه تماما ، حتى منصور صاحبه يبتعد ، أهلا .. أهلا .. يانهار الفل ، ترحيب دافىء من حمزة ، يرده برفع يده ، بسط راحته فوق صدره ، طلب جوزة ، فى الأنفاس الاولى يشعر بدوار خفيف لطيف مع خلو الكرسي من الحشيشة ، يرتاح اليه ، ما احوجه الى تأمل ما راح وما استجد ، استعادة ماسيقوله للزينى بركات لو التقى به فى المساء ، أما رؤيته سماح بعينى عقله ، فلها مذاق آخر ، إذ يجلس هنا ..

مرسوم سلطانى

« يقضى الشيخ سعيد بن السكيت عن منصبه كقاض لمذهب الحنفية ، »

« من قاضى قضاة مصر إلى السلطان »

« حميت الحق ، وأعليت كلمة الاسلام ، أقصيت المارقين ، أبقاك الله حاميا

للديار .. »

مرسوم سلطاني

« تبطل عادة الفوانيس .. ويزال ما علق منها ، وكأنها لم تكن ،

* * *

من أمراء الديار المصرية وأكابرها

« ما قمتم به حق ، ما أثبتموه عدل ، لعن الله الفوانيس »

□ □ □

سعيد الجهنى

« إحك عن دنياك .. »

يچار من أين يبدأ ؟ ؟

« مات الشيخ البلقينى عالم الحديث فى الأزهر .. مات عن ثلاثة وتسعين عاما .

لا يبدى الشيخ جزعا ، إنما يهتز رأسه هذا خفيفا لينا ..

« يرحمه ويرحمنا أجمعين .. »

« زكريا والزينى على اتفاق .. »

« أعرف هذا .. »

يبدى سعيد دهشته ..

« الزينى جاعنى أمس .. بعد سماعى الخبر ، فكرت أن أرسل اليه لأعرف حقيقة

الامر ، لكنه دخل على وشرح الأمر ..

عوده مولاه الا يطيل السؤال او الاستفسار ، إنما يصفى الى مايقال ، يستنتج

ويحاول الفهم ..

« مولانا .. كل شىء يحيرنى .. »

ابتسامة تقطر صفاء

« كل شىء ؟ ؟ »

« مولانا أنا صحبت الزينى إلى دارك ، مشيت امامه فى موكبه كأي ركبدار ، بشرت

به ، تحمست له ، أنا الآن أشك فيه ، أتضرر منه ، من شهر قلت فلامض إليه أنقل

ما سمعته ، ما استوثقت منه ، عن رجل يقال له برهان الدين بن سيد الناس ..

برهان الدين ؟ ؟

« نعم يا مولانا .. برهان هذا شرع فى احتكار الفول ، عرفت أساليبه ، مكابره ،

عرفت أن سعر الفول سيشط فى الأسواق ، عندما جلست إلى الزينى ، بعد مرات عدة

ترددت فيها عليه بدون جدوى ، شكا إلى ما يثار حول الفوانيس ، قال إن الأمراء

غرروا بالناس ، ضحكوا عليهم حتى أثاروهم ضد الفوانيس مما جعل السلطان
 يلغئها ، تحدث طويلا عن موضوع الفوانيس ، قال إنه كان يرجو الكثير من وراء
 الفوانيس ، أبدى نيته في رفع الكثير من المظالم ، تحدث عن ضيقه بمنصب
 الحسبة ، ما يجره عليه ، تصور يا مولانا ، شكا من قلة المال بين يديه ، لأنه قبل
 الحسبة كان يسافر إلى بعض البلاد يتاجر في أصناف بعينها ، يشرف على أرض
 قليلة عنده في دمياط لكنه أهمل الأرض والرزق ، ومرتبته من الديوان خمسون دينارا
 لا يكفي المظاهر التي يستلزمها منصب الحسبة ، حتى لو أبطل هذه المظاهر فلا بد من
 ارتدائه أزياء معينة كلما طلع إلى السلطان وهذا يكلفه كثيرا ، لم يخف عني شيئا ،
 أدق أموره حكاها لي ، والله يا مولانا وجدت نفسي قريبا جدا منه حتى كدت أصرح له
 بما يرعجنى ، لماذا قبل استمرار زكريا بن راضي نائباً له ؟ تمنيت لو أقول له ما يفعله
 زكريا بالناس ، لم تتغير عوائدهم ، يملأون الأزهر ، فهل يقبل ؟ كدت والله يا مولانا ،
 لكنني لم أفه حرفاً أبداً أبداً ، قلت له ما جئت من أجله فعلاً .. هز رأسه وقال ..
 سأكلف نائبى بمراقبته ورصد حركاته ، وعندما يثبت صحة ما يفعله يلقي جزاءه ،
 تصور يا مولانا ، من سيقوم العدل ، من سيمنع برهان الدين بن سيد الناس .. زكريا
 ابن راضي ، لكنني قلت في دماغى ربما يحاول الزينى استخدام زكريا لما فيه خير
 للناس ، رحت أقرب برهان الدين ، لكنه استمر على حاله ، طلعت إلى الزينى مرة
 ثانية ، قال مثل هذه الأمور تستغرق وقتاً ، وذكر حادثة الخياط الذى عاقبه لاعتدائه
 على غلام صغير برغم شفاعته أكبر الأمراء له عند السلطان ، لا أرى يا مولانا ما الذى
 يقصده الزينى ؟ حتى الآن لم يهز أصبعاً فى وجه برهان الدين ، هل أندم على سيرى
 أمامه يوماً ، من ناحية أخرى توجعنى المظالم ، لماذا يجلد الفلاحون وينكر عالم كبير
 من الأزهر أمه التى جاءت من الأرياف تزوره .. لماذا .. لأنها فلاحه ! كيف أصدق
 يا مولانا أن الناس خلقوا متساوين ؟ كيف ، وما حدث ويحدث وما سيحدث ينكر هذا
 ويكذبه ، كيف ، أود لو تقدمت الخلق أجمعين وانتزعنا كل ظلم وفساد ، ليس فى
 الديار المصرية وحدها ، إنما فى الدنيا كلها ، لكن أعمارنا ستضيع وتمضى ولن نقدر
 على هذا .. تصور يا مولانا ، إننى أخاف ، أخاف عندما أرى عمرو بن العدوى ،
 أتساعل عما سيكتبه فى أوراقه عني ، ما يجعلهم يلقون بى يوماً فى المقشرة ، فى
 العرقانة ، أو الجب ، لكن ماذا يفعلون بى ، ربما قطعوا دراستى بالأزهر ، يمنعون
 راتبى ورزقى ، يسدون أبواب الوظائف فى وجهى ، فليفعلوا .. ما قيمة هذا كله ،
 إذا رفعت الظلم عن إنسان ، ما قيمته ؟ لكننى أجد نفسى من جديد أخشى الحرمان
 والسجن والقيد والعذاب ، ارتجف لو سمعت باسم زكريا ، تصور يا مولانا ..
 أنا الذى يعذبني مرأى الذباب على عيون العيال فى بلدنا ، أتمنى .. أحمد الله ..
 تصور يا مولانا .. أحمده ، لأنه لم يخلقنى فلاحاً أعانى قسوة العيش وظلم الكشاف ،

مولاي أعذرنى لأتني وضعت أثقالى كلها عندك .. لكن ما حيلتى والزمان يلجمنى
ويكسر فكى ويخرس البوح فى صدرى ..

الليل يمضى صامتاً ، فى البداية ألوانه خلعة تزداد مع ضياع النهار قتامة
وعمقا ، حتى يغرق الكون فى سواد ، تضيع أصوات العباد ، تدور أصابع الشيخ
حول بعضها البعض ، سعيد يخشى الليل ، لا يلقاه فى الرواق أبداً ، يرى نهاية
الضوء فى الطرقات ، بعد إطراقة تدور عيناه فى الفناء الصغير ، راسخ رسوخ جذع
النخلة المروية بالسنين ، مرتفع من الأرض يتوسط الفناء لم يلحظه ، الشيخ ساكت ،
يشير سعيد إلى كومة القراب ، بروز الأرض .. « لم أره من قبل .. »
بأى سؤال يكسر الصمت .

« من حين إلى آخر أحتاج إلى خلوة .. من أجلها حفرت لنفسى هذا السرداب ،
حفرت له لجسدى أودعه فيه كلما حارت الروح وأعجزها الزمان ..
هذه الفتحة الضيقة تؤدى إلى سرداب الخلوة ، بمفرده انتزع لنفسه مكاناً من
الأرض ، داخله يخف من أثقاله ، من أحماله ، تحلق الروح إلى واد يمكن فيه الوصول
إلى الحقائق الأولوية ، يدق أبواب الكون ، يفصح عن خباياه ، فيبصر القلب ويرى
ما يرى .. »

★ ★ ★

نداء

يا اهالى مصر ..
نامر بالمعروف وننتهى عن المنكر
انكشف المستور
ظهر المقبور
بانّت فضيحة على بن أبى الجود
الليلة قبيل المغرب
سيقرا الفقهاء فى الجوامع
وثيقة تلقون فيها ما تشاعون
لتروا ، كيف امتص الظالم
دماء المسلمين
فحق عليه عقاب مبين .

★ ★ ★



● رسم : جين ليون جيروم - متحف الفنون الجميلة - نانتر

تقف ضد تعذيب البدن ، فلا ترضى لإنسان مهما كان . أن يحرق
عضو في جسمه أو ينعل كالفرس .

السارق الثالث

وأوله ..

وقائع حبس على بن أبي الجود

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحان الذى كشف كل غطاء ، وبسط الارض ، ورفع السماء ،
نتوجه إلى أمة الإسلام ، تكشف أمرا طال به الترقب ، ليكون عبرة
لعم اعتر ، الحى ومن غير ، تفاصيل هذا كما يلى .. منذ عام ، أمر
مولانا السلطان بالترسيم على المدعو على بن أبى الجود ،
وتسليمه إلى متولى الحسبة الشريفة وذلك لعقابه ، وكشف
المخفى وراء أبوابه ، ومنذ البداية اضمرنا الصبر حتى النهاية ،
لأننا نقف ضد تعذيب البدن فلا نرضى لإنسان مهما كان ، أن يحرق عضو فى جسمه ،
أو ينعل كالفرس ، وهذا سبب المدة الفاصلة بين تسلمنا على بن أبى الجود ، وكشف
أمره ، كشفنا من أمواله ما يعجز عن تصديقه إنسان ، وكل هذا امتص من دماء
المسلمين ، وإليك ما وضعنا يدنا عليه .

بلغ دخله اليومى من أملاكه وأطيانه وضماناته وحمانياته ثمة ألف دينار يوميا .
واشتملت تركته على مائة وخمسين ألف دينار ذهباً ووجد عنده ياقوت أحمر ، زنة
الفن رطل ونصف ، وستة صناديق فيها جواهر ، ومن الماس وعين الهر مائة قطعة ،
وعلى ذهب مقدار قنطار ، وطاسات وأباريق فضة نحو ستة قناطير ، ومائة قنطار بفرس
سنباب ، وأربعمائة قفطان بغير فرو ، وسروج ذهب . عشرون سرجا ، وجد لديه
أيضا خمسون فرسا ومائة بغل ، ومائة جبل ، ومن الغنم والجوارى والمماليك شيء
كثير ، ووجد عنده فى المرحاض شبه فسقية ، كشف عنها فإذا بها مملوءة ذهباً ،
ووجد لديه من القمح والفول والشعير مائة ألف أردب ، ووجد عنده سبعون مركبا
سارحة فى النيل .

كان اللعين يخفى ثرائه ويبدل الكثير حتى لا يشعر به أحد من الناس لكن صبرنا
وطول دابنا أوصلنا إلى ما خبأه وأخفاه ، وسيتم طلوعنا بماله غدا محمولا فوق
بغال ، حيث تضم هذه الأموال إلى خزانة مولانا السلطان ، فى وقت نحن فى أشد
الحاجة إلى المال ، لتحرك أعدائنا علينا ، ومن شاء منكم الفرجة فلينتظر فى تمام
الساعة الرابعة عربى وقت الضحى ، أيضا سيعرض عليكم على بن أبى الجود
وسترونه سليما معافى لم يلحقه أذى ولا تعذيب ..

تم الحوطة على ثلاثين جارية ، ومائة وعشرين عبدا ، وأربعين خصيا خصاهم
اللعين بيده ..

يا أمة المسلمين

يا أهالي مصر

أتوجه إليكم برجاء ، أبلغونا حال وقوعكم على أي إنسان يكتنز المال من دم المسلمين ، لا نقبل أبدا أن يجوع الخلق ، وتستمتع قلة ، أبلغونا : مهما علا قدر مكتنز الذهب والفضة والبغال والعبيد والجواري أخذنا لكم الحق منه ..

★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم اللهم اجعل هذا البلد آمنا

وقائع تعذيب على بن أبى الجود ، مرفوعة إلى الشهاب زكريا
ابن راضى كبير بصاصى مصر ، ونائب الحسبة الشريفة ، من مقدم
البصاصين فى القاهرة .

★ ★ ★

بناء على ما أشرتم به ، ونوهتم إليه قامت فرقة من أشداء بصاصينا بتنقيب
الأحوال وإظهار ما جرى لعلى بن أبى الجود ، وقد نفذنا عبر أسوار منيعة ، وعقبات
كبيرة ، لنجتلى سر الأشياء ، وبعد جهد جهيد استطعنا ضم واحد من العاملين مع
الزينى ، لكننا لم نعتمد عليه وحده ، فهو أول رجل ينضم إلينا من ناحية الزينى ،
استوثقنا من مصادر أخرى ، تعرفون بعضها ، والآخر نحتفظ به حتى ننقله إليكم
شفاهة ، أما بعد ..

ثبت عدم وجود سجن فى بيت الزينى الكائن ببركة الرطلى فهذا البيت ضيق
ولا يتسع لوجود سجن به ، وأى صراخ فيه يمكن سماعه من قريب ، لقد نقل ، على ،
إلى بيت قصى قريب من حلوان وهذا البناء تحيطه خضرة كثيفة . لا نعرف متى
انتقل إلى ملكية الزينى ، من شيدته وبناه وجار بحث هذا .. يقع تحته سجن يضم
أربع عشرة زنزانة ، ليست زنازين بالمعنى الدارج ، الواحدة منها حجرة مستطيلة
طولها ثلاث خطوات بقدمى رجل بالغ ، ارتفاعها أزيد من قامة رجل عادية بشبر
ونصف ، عرضها لا يمكن الإنسان من فرد ذراعيه ، يتوسط سقفها فتحة صغيرة تؤدى
إلى الخارج ترى منها السماء قطعة فضية ، لكن الفتحة لا تظهر أبدا من الخارج ،
فوق الباب من الداخل مصباح يضئ بنفس طريقة الفوانيس ، هذا المصباح يواجه
الإنسان أينما استدار أو حاول الهرب ، حتى لو نام تحت الباب مباشرة ، ولو أدار
ظهره فحتما يجدها فى مواجهته ، يثر الضوء ليلا ونهارا ، يحدث وشا خفيفا لا يدركه
الداخل مباشرة لكنه ينقلب إلى زئير فى الأذنين بعد فترة ، ويبرز من الجدران لوح
خشبي قصير يتناول فوقه المحبوس طعامه ..

السجان القائم على أمور المحابيس هنا ، شاب مليح الوجه ، رقيق العبارة ، جميل
الصورة ، وهذا يخالف كل ما اتبع من قبل ، ابتسم فى وجه « على » خاطبه بأدب
« إذا احتجت أمرا أطرق هذا الباب بقبضتك مرة واحدة » ، وعندما أقول من ؟ فلا تقل
اسمك إنما قل « واحد » أنت منذ الآن واحد ، طوال حديثه لم تفارق شفتيه الابتسامة ،
حديثه فى ظاهره رجاء لكنه أمر فى جوهرة ، نظافة المكان لم تطمئن « على » أدركه

رعب خفى ، ليس حادا ، إنما يماثل غرابة المكان ، هدوءه ، الباب يوحى باحتمال فتحه المفاجيء ، ربما انطبقت عليه الجدران ، تتغير الابتسامة ، عندما جاءه الطعام تعجب للغاية وضع امامه ارزا مقللا ، طبق ملوخية ، قطعة لحم وبرتقالة ، وهذا لم يسبق حدوثه فى تاريخ الحبوس ، لكن لابد من توضيح امر هنا ، على بن أبى الجود ، او غيره من المحابيس الذين ساقهم حظهم إلى هذا السجن ، لم يشعر بالشبع أبدا ، إنما يعيش جوعا خفيا ، الأكل فى مظهره أكثر من كاف ، يحدث شبعاً مباشراً ، لكنه لا يقضى على جوع خفى مستور يأكل نخاع الغطاء الدفين .

بقى على بن أبى الجود ثلاثة وتسعين يوما لم يرق خلالها إلا وجه عثمان ، إذا دق الباب فى أى زمان ، يجيئه مبتسما كأنه لا ينام ولا يفارق المكان أبدا ، كأنه يعرف متى ينوى دق الباب فينتظر ، وبمضى الزمن بدا على بن أبى الجود يخشى الابتسامة والعينين الهادئتين حتى صار يزوغ من صاحبهما ، وربما وجد نفسه محصورا بالبول ، يكاد يطق ، لكنه يابى دق الباب .

استعاد حياته لحظة بلحظة مرات ، اختلط عليه الليل والنهار ، بدا له الزمن جسما شائها بلا ملامح ، يعرف وجود آخرين بجواره ، دائما يسمع عثمان يسأل من ؟ ثم تسير خطواته حتى يتوقف عند باب قريب ، فشل تماما فى الإصغاء إلى أصوات المحابيس الآخرين ، بدا يفكر كيف يفكر ؟؟ تمنى لو يحرقونه ، حتى العالم يروح من عقله ، ومثل المصباح يمزق لحمه ويجفف دمه ، وفى لحظة بلغ فيها درجة من الضيق العظيم دخل عليه الزينى بركات بنفسه ..

قال بصوت خال من افتعل المودة .

« أنا الزينى بركات .. »

تطلع إليه على بن أبى الجود متعجبا ، لم يره من قبل ، وما ننقله هنا ، قاله الزينى بالتقريب :

كما ترى يا على ، لم تفعل بك مكروها ، لم نضايك فى بدتك ، أنا أعرف حيازتك لمل طائل ، أنت داهية فى طريقة إخفائه ، أخبرنى عنه وكما تعلم أنا لن اضع منه درهما فى جيبى ، كله سيذهب إلى خزانة السلطنة ، أما حريمك وعيالك فأنا اضمن معيشتهم .

« أين الاموال ؟ »

هز على بن أبى الجود رأسه ،

« اتفكر ؟ »

أكد النفى ، قام الزينى واقفا ..

« اللهم إني برىء من ذنبك »

بعد زمن لم يعرف مقداره ، دخل عثمان ، عصب عيني على بن أبي الجود بقماشة مبللة ، لحظة طال انتظارها ، لا يدري ما سيفعل به ، لكنه يفارق هذا المكان الغريب ، هذا يكفي ، نزل درجات ، عبر أبوابا ، تركه عثمان في قاعة خلاء ، ارتعدت مفاصله . تهب الجلوس ، خطا الوقت ثقيلًا كالخيل إذ تحتضر ، ارتعشت أطرافه ، دب الخدر إلى ظهره ، جسمه كله يهتز ، فجأة هوت يد قوية صفعته فوق عنقه ، أطارته شررا ونجوما زرقاء في فراغ عتيم أحاطه ، ثلاث صفعات صنعت حزاما سلخنا حول قفاه ، وهنا تبدأ الوقائع الفعلية لتعذيب جسد علي بن أبي الجود .

اليوم الأول :

وفيه دهنوا باطن قدميه بماء وملح ، أحضروا عنزة صغيرة سوداء في رأسها بياض راحت تلحق الماء المالح على مهل ، التوت شفتاه ، ارتجفت ضلوعه ، صار يصرخ ، ثم ينقلب صراخه ضحكا حتى غشى عليه ، سكبوا على وجهه ماء باردا .
« أين أموال المسلمين ؟ »
ولم يجب .

اليوم الثاني :

من الثابت الذي لا يدع فسحة للشك أن الزيني بركات لم يفارق الغرفة المجاورة للحجرة التي يتم فيها « استخراج الحقيقة » وفي أول النهار أخذ الغيظ ، لثبات علي ابن أبي الجود ، دخل بنفسه ، راح يمد أصبع يده الوسطى بحركة ثابتة في صدر علي ابن أبي الجود ، في نفس الوقت أمسك أحد رجاله بإبريق ماء رفعه ، بدأ نزول الماء قطرة قطرة ، بفاصل زمني معلوم ، لم يمض وقت طويل إلا انتفضت رقبته ، ارتعش جسده كأنه على وشك الانقصاص إلى قسمين ، صرخ صرخة هائلة خارجة من الحشا ، هنا زعق فيه الزيني « أموال المسلمين يا علي » .
ولم يجب ..

عصر اليوم التالي :

أحضروا فلاحا من المحابيس المنسيين ، نزعوا عنه ثيابه تماما ، نظروا إلى علي بن أبي الجود ، قال الزيني « أنظر سأفعل بك كما أفعل بالرجل » اظهروا حدوتين ساخنتين لونهما أحمر لشدة سخونتتهما ، بدأ يدقهما في كعب الفلاح المذعور ، نفذ صراخ الفلاح إلى ضلوع علي ، وكلما حاول إغلاق عينه يصفعه عثمان بقطعة جلد على قفاه ..

اليومان : الرابع والخامس :

ذبح ثلاثة من الفلاحين المنسيين ، أسندت رقابهم إلى صدر علي بن أبي الجود والزيني يدخل ويخرج محموما مفتاظا يسأل « ألم يقرب بعد ؟ » لا يجيب أحد ، يضرب الحجر بيديه ..

اليوم السابع :

عندما أحضروا خليل ، أصغر أبناء علي بن أبي الجود بدا غائبا قلأها ، لكن عندما صرخ خليل : اتسعت عينا أبيه ولم يسمع صيحات ولده ..

تعليق :

هذا بعض ما وصلنا من وقائع تعذيب علي بن أبي الجود . لكن الثابت فعلا - وهذا محير - عدم إقراره بمكان المال ، إذن من أين عرف الزيني مقدار ومكان الأموال التي نشرها على الناس . العجيب أيضا أنه بعد مدة معينة ، وبعد تنوع أساليب العذاب الجديدة التي يسميها الزيني « كشف الحقيقة » أصبح علي بن أبي الجود معاقى ، للتغيير الوحيد أصاب عينيه ، أصبح لا ينظر إلا في خط مستقيم كالأعمى لكنه مبصر ، إذا ناداه أحد لا يجيب ، إنما ينحنى ويدلدل لسانه . كالكلب ولم تفسر بعد ما خلق به .

(مقدم بصاصى القاهرة)



نداء

يا أهالي مصر
نأمر بالمعروف وننهي عن المنكر
أمر مولانا السلطان
بإعدام علي بن أبي الجود
ضربا بالأكف
سيرقص طوال الطريق
كما ترقص النساء
أضربوه
أضربوه
كلما كف
فمن شاء الفرجة
والقصاص من عدو الله
عليه الخروج بعد صلاة العصر
يا أهالي مصر

★ ★ ★

رجب ٩١٤ هـ

مقتطف « ب »

ويتضمن بعض مشاهدات الرحالة البندقي ، فياسكونتي جانتى
الذى كان يعبر القاهرة وقتئذ لأول مرة ، وكان قادما من بلاد الزنج
والسودان ، قاصدا ركوب البحر ، عائداً إلى بلاده بعد تجوال
طويل .

★ ★ ★

خرجت من الخان ، والحق اننى وجدت الزحام ثقيلًا ، النساء يختلطن بالرجال ،
الصبية الصغار يحاولون التسلل بين الأقدام للنظر ، وعلى جانبي الطريق وقف رجال
أشداء مدرعون يرتدون ملابس زرقاء يياقات صفراء ، عرفت من على مترجمى
ان الموكب خرج فعلا من بيت الزينى بركات محتسب القاهرة وقف عند مدرسة
ابن انزمن ، عرج على جزيرة النيل ، أتى إلى شبرا ، استمر حتى عبر قناطر أبى
المنجا وطلع من قنطرة الحاجب ، دخل من باب الشعرية ، كنت أقف عند بين
الصورين ، (سوق كبير) أمام دكان يبيع أصباغ الملابس ، انتشر قلق بين الناس
تدافعت المناكب ، صرخ طفل ، أطلقت امرأة صوتا طويلا ، بسمونه هنا زغرودة ،
بدأت تباشير الموكب ، عدة خيول مسرجة ، كلها بيضاء ، ثم مرت أربعة خيول يدق
راكبوها طبلا ، يتوقفون ليعلن رجل قصير لم أسمع اقوى من صوته قط ، واخبرنى
على مترجمى انه يطلب من الناس أن يضربوا على بن أبى الجود كلما كف عن
الرقص ، حتى يسقط ميتا ، والموضع الذى سيسقط فيه سينال بقشيشا من الزينى ،
والحق ، هذا أغرب طريق إلى الموت رأيته أو سمعت به ، اخبرنى على ايضا انه يزف
إلى الناس بشرى حسنة ، أمر السلطان بتعيين الزينى بركات واليا للقاهرة إلى جانب
منصبه ، وقبل الزينى المنصب حرصا على راحة الخلق ، ومن أراد الاعتراض على
ولايته للقاهرة فعليه إبداء رايه بعد صلاة الجمعة فى أكبر مساجد العاصمة
(الأزهر) ومنصب الوالى يشبه حاكم الإقليم عندنا ، أما الحسبة فلا مثل لها فى
بلادنا إذ انه منصب يجمع بين السلطة الدينية والمدنية ، ويتلخص فى ضمان
الخير ، وطرد الشر ، والحقيقة لم اصدق ما اخبرنى به على ، فيما يتعلق بحض
الرعية على الذهاب إلى الأزهر لإبداء رأيهم ، هذا تقليد لم أره قط ، سابق لزماننا
لم أسمع به ، على الرغم من سعة تجوالى ، سمعت اسم الزينى يتردد كثيرا يبدو انه
شخص خارق للعادة ، وساحرص تماما على لقائه ، عندما انتهى المنادى طرق اذننى
وقع طبل ، الجمع كانه إنسان واحد ، تزايد الصياح ، تلويح الأيدي ، دفعت الناس

حتى اقتربت من عربة مسطحة صغيرة العجلات يجرها بغلان فوقها رجل متوسط
القامة يقف في غير ثبات مخلوق الحاجبين والحية ، كحلت عيناه كالنساء ، تنافرت
بقع حمراء على وجنتيه ، فوق رأسه طرطور مثلث متعدد الألوان له زر طويل ، يهتز
كلما مال الرجل وتثنى ، إنه يهز وسطه هذا عنيفا غير منسق ، يستمر الطبل ، يميل
بمنتصف جسمه الأعلى إلى الوراء ، يرعش صدره إرعاشا قويا ، يعتدل فجأة يبرز
مؤخرته إلى الوراء ، طوال هذا الوقت تمند أيدي العامة ، تصفعه ، تضربه ، يدفع
أحدهم عصا قصيرة بين يديه ، فوق جبينه يتساقط عرق غزير ، يتدلى لسانه ،
يتفانى الناس في صفعه وضربه ، إذا سقط ميتا سينال من حوله الحلاوة ، عبثا
يحاول رجال الزينى منع الأيدي التي تحمل عصيا ومراكيب من الوصول إليه ،
ابتعدت العربة ذابت في الزحام الكثيف ، ابتلعت لعابى ، وجه الرجل الشلث
المذعور ، جسمه ، يسد الفراغ ، والحق أننى فزعت ..

★ ★ ★

نداء

أمر مولانا السلطان
بتسليم الأمير كرتبای
والى القاهرة القديم
إلى ناظر الحسبة الشريفة
ووالى القاهرة
الزینى بركات بن موسى
لمعاقبته ، وإظهار ما نهبه اللعين
من أموال المسلمين

★ ★ ★

زكريا بن راضى :

يظن زكريا بن راضى أن لقاءه بالزينة تم فى الليلة نفسها ، ساعات الليل الأخيرة عادة لا يزعجه أحد إلا بدافع أمر جسيم ، ليلتها أصغى إلى ، وسيلة ، تحدثه عن بلادها ، ما يحب الإصغاء إليه ، عادات الناس هناك ، ألوان الطعام ، يسألها كيف لم يفض تاجر الرقيق بكارتها منذ اختطافها ؟ عودتها الأسئلة الغريبة ألا تحجل ، قالت انه طمع فيها ، كل من رآها طمع فيها ، وحدث قريب حلب . هنا مد زكريا يده ، لمس شفتيها بأطراف أصابعه ، حدثيني عن حلب ، لم تدركها الحيرة اعتادت منه الانتقال من موضوع إلى آخر ، فجأة بدأت تسترجع المدينة ، الطرق المؤدية إليها ، رجال البريد فى المباني الصغيرة القائمة وحدها وسط الخلاء ، عيون فلاحات الشام المتطلعة إلى القافلة ، إسراعهن بإغلاق بيوتهن ، تذكر ترحيب الحراس بالقافلة ، مسرور التاجر يعرفهم كلهم ، يدفع لهم مجعولا معيناً من الذهب ، لا يتعرضون له أبداً ، بل يتولون حراسته إلى الطريق ، زكريا يمسك كوباً مضيع الحواف ، لا يشرب الخمر أبداً ، لا يحب لوعيه أن يهجر العالم لحظة واحدة ، حدث منذ مائتى عام أن أضاعت الخمر واحداً من أعظم البصاصين الذين عرفتهم مصر ، فى زمن الظاهر بيبرس ، أدمن ابن الكازارونى الخمر ، صار يقول فى مجالسه الخاصة والعامية كل ما يعرفه عن أحوال الناس والدولة ، تسبب هذا فى فضيحته ثم قطع رقبته ، كان قد ابتدع نوعاً جديداً من الخمور ، قيل ، مجرد رائحتها تجلب للإنسان سكراً عظيماً ، نسبت فيما بعد إليه ، وعرفت بالخمير الكازرونية ، أمر السلطان الناصر بن قلاوون - فيما بعد - بإبطالها وإراقة ما تجمع منها فى الدنان ، زكريا يعشق عصير الفلكهة ، استحضر جهازاً من بلاد تلمسان يعصر أقسى أنواعها ، يصفى البذور ، يرشف عصير العنب ، يمد يده إلى جيد وسيلة يمر عليه مرا هينا لطيفا تستمر فى حديثها ، ترتعش الحروف ، فجأة بينما تطلع يده وتخل تقرب أصابعه من صوان أذنيها ، تخرج أنفاسه ساخنة فوق مؤخرة عنقها ، قشعريرة بدنائها تنتقل إليه ، يتابع اختلاج ركنى فمها ، فجأة يحتوى أذننها الصغيرة فى فمه ، يرضع اللحم القاسى ، تشهق ، تتباعد أطراف جسدها ، تحيط ثدييها بيديها تغمض عينيها تروح إلى بعيد ، فجأة بضربة واحدة ، يمزق الثوب ، لا يفك أزراره ، إنما يمزقه ، يصفى إلى تقطع القماش ، تنكشف له بدايات العالم الطرى ، تبدأ حركة من عينيها تجسد - فى السن - تفتح الزهرة ، صبية تطرق أول العمر تدهش إذ تقف عند حدود الدنيا ، أمثل هذه المتعة توجد فعلاً ؟ فى اللحظة ، هذه اللحظة تماماً ، جاءه شهاب الحلبي طرق درع الذحاس المعلق فى الدرقاعة السفلى ، نزل إليه ، أرسل الزينة بركات مبعوثاً يطلب

من زكريا الحضور بسرعة لأمر جلال ، أو ما زكريا برأسه ، طلع إلى خزانة ثيابه انتقى رداء شيخ أزهرى ، منذ إقراره نائبا للحسبة لم يرسل إليه الزينى ، كل صلتها تقرير يومى يرسله زكريا إلى الزينى ، طبعاً تقرير يعد بشكل خاص ، مرات قليلة أرسل الزينى يسأل عن أمور ذكر أنها عامة ، جابو عليها زكريا وهو يضمّر تعجبه لتفاهة هذا المطلب ، مثلاً أسماء الجوارى اللواتى اشتراهن الأمير بشتك فى عام ٩٠٧ هـ ، مقدار الخمر الذى يشربه الأمير قوصون كل ليلة ، اسم والدته بلع مخلل بالحسينية ، أصناف الطعام التى يفضلها قاضى القضاة عبد البر ، أو عدد أمتار الثياب اللازمة لعمل عباءة زركش لخوند زينب زوجة طشتمر ، كم مملوكا له ست أصابع فى كلتا يديه وعددهم فى الأبراج ، زكريا قابل هذا باستغراب ، تدارك رأيه بسرعة ، ليستبعد السخرية والاستهزاء ، مثل الزينى لا يطلبها إلا لأمر جسام ، عندما التقى به أول مرة فى بركة الرطلى ، أدرك قدرته ، كل منا خلق ليلقى الآخر ، نزل السلم بسرعة ، عند الاقتراب من بيته لن يظهر دهشته ، ستحدث إليه بهدوء ، لا شيء يمثل مفاجأة بالنسبة لزكريا ، بل سيوحى إليه أنه ضمن نية الزينى فى استدعائه ، طلع إلى الفناء الواسع ، لأوراق الشجر حفيف مسموع ، ما أذ الرجوع إلى وسيلة ، لم يرتو منها تماماً ، دار بعينيه باحثاً عن مبروك ، مبروك الوحيد الذى يميزه حتى لو اختفى فى زى الجان ، يبدو للغرباء أحرص لكنه يتحدث قليلاً جداً ، أحياناً يعنف زكريا ويلومه لوما قالسيا ، زكريا يقبل هذا ويصغى إليه ، ويتقذ ما يقوله مبروك ، سأل زكريا ، « أين رسول الزينى ؟ » تقدمه مبروك ، همس زكريا « إذا لم أرجع حتى ظهر اليوم التالى فقل لمقدم القاهرة أن يهتدى بما يقوله شهاب الدين كاتم السر .. مفهوم ؟ دخل زكريا إلى حجرة الجلوس بالديوان ، قأم رجل بدوى ملثم ، أهلاً بالشهاب الأعظم زكريا .. » نظر زكريا إلى الوجه الملثم ، الحزام العريض المرصع بفصوص معدنية بارزة ، زكريا يتفحص رداءه ، هذه الأمور الصغيرة ، تبدد دهشته عندما رأى الزينى بنفسه ، دخل الزينى مباشرة فى غرضه قال : بدون لف أو دوران ، باختصار شديد أريد أن أعرف بالضبط .. أين أخفى على بن أبى الجود أمواله ؟ أسند زكريا جبهته إلى أصبعين من يده اليمنى ، باختصار كعناوين البطائق ، لا أعرف ، زعق طائر غريب الحس فى السماء ، الليل يشيخ ، قام الزينى مرة واحدة ، على مهل اقترب من زكريا « أنت يا زكريا تعرف تماماً أين موجودات على بن أبى الجود ، أنت لا تخفى عنك شيء ، ولو خفى لما خاطرت بسمعتى وأقررتك نائبا للحسبة ، أنت تعرف ليس لأنك شغلت منصب نائب على بن أبى الجود إنما لأنك زكريا ، أتفهمنى ، لأنك زكريا بن راضى أعتى من تولى منصب كبير بصاصى مصر ، لم يرد زكريا ، ليقل الزينى ما يريد ، أمر دفين يوشك الإفصاح عن نفسه ، الضوء خافت غامض مرعوش ، يوشك على توهج

لكن يدا قوية تحبسه ، توشك على إلغائه ، قال الزينى بركات بن موسى ، أنت تعرف
 مكان أمواله يا صاحبي كما أعرف أنا قبر شعبان ، الآن بعد مضي زمن على مجيء
 الزينى آخر الليل لم تبرد حرارة ما قرره زكريا بعد انصراف الزينى ، ربما امتد الزمن
 سنين طويلة ، لكن ما قرره لابد أن يتم ، يتحقق يوما ، يراه مجسدا ، أى قوة
 استطاعت فى أى زمن منع كبير البصاصين من تحقيق غرض أضمره ، لن يمنعه إنس
 ولا جان ، ولا ألف طلسم ، أبدا لن ينسى أيام العزلة التى فرضها على نفسه فى اليوم
 التالى لزيارة الزينى ، أمر بالآ تدخل إليه تقارير ، طلب من مبروك ألا يريه ملامح
 أى إنسان ، الطعام مضغه بضيق عندما اضطر إلى تناوله ، عندما أنهى عزلته ، جاءه
 رجاله مهنتين ، لكنهم ارتدوا عنه خائبين ، قابلهم بوجوم وضيق ، سرفى نفسه عندما
 أخبره شهاب الحلبي باستعداد كبير أطباء السلطان للمجيء إليه طوال أيام عزلته ،
 فى الأسبوع الأول ، التالى لمجيء الزينى ، دخل مبروك قال « الزينى بركات جاء » فى
 الغناء وقف ، يتحسس بعصاه جذع نخلة ضخمة مغطى برقائق نحاس ، قال ، أفضل
 لو جلسنا فى الشمس ، بيتى فى بركة الرطلى لا تدخله الشمس ، الزينى ينكت
 الأرض بعصاه الرقيقة ، زكريا يسند جبهته إلى يده اليمنى ، أرجو أن تسمعنى ،
 أن يتسع صدرك لى .. زكريا يهز رأسه ، جاء الزينى بثيابه العلية ، لا يرتدى
 الملابس البدوية ، أفكار كثيرة تدور فى عقله ، لكنها لن تتم إلا بعرضها عليك ،
 أرجوك أن تخطئنى إذا بدا لك هذا ، أنت أكبر منى علما وتجربة بما سأقول ، التردد
 واضح فى ألفاظه ، ارتياح خفى يتسرب إلى زكريا ، أردت أن أفضى إليك بما أوده
 وأرغبه لنظام البصاصين ، هل يمكن لإنسان أن يتخيل الأمر بالمعروف والنهى عن
 المنكر بدون عيون قوية مخصصة ترى فى كل مكان ما أراه أنا .. قال زكريا بسرعة ،
 عندك رجالك .. نفخ رأسه بسرعة ، سرور فى صوته ، ربما لاستجابة زكريا إلى
 الحديث ، أعرف أنك ستقول هذا ، لكنك يا زكريا تهول من أمر رجالي ، اليس من
 الأفضل للإنسان رؤية الدنيا بعينين بدلا من عين واحدة ، صحيح ، ستقول ومعك
 الحق كله ، لدينا آلاف العيون ، صحيح ، لا أعترض ، ولكن لو وجدت مجموعة
 أخرى لها نظام مخالف ، طريقة ثانية ، ألا يصبح هذا مفيدا ، أولا .. أعذرني لأننا
 لا نلتقى بما فيه الكفاية مشاغلي كثيرة جدا يا زكريا ، تصور إنسانا يقر بالعدل بين
 الناس فى مثل هذا الزمان ، أنت تعلم ما ينويه ابن عثمان ومهما طال الزمن فالحرب
 واقعة لا محالة ، مهما طال يا شهاب ، لقد أخبرت مولانا بهذا ، وأقولها لك صريحة ،
 بل إن ثقتى بك تدفعنى إلى التصريح بما هو أكثر من هذا ، المشرق لا يحتمل دولة
 بنى عثمان ودولة المماليك فى مصر ، إمانحن وإما هم ، لا تندش يا زكريا ،
 أو بمعنى آخر لا تصنع الدهشة ، أنت أدري منى بهذا ، من يعطس فى

القسطنطينية تسمعه أنت هنا ، كل حركة هناك أنت تعرفها ، وبإذن الله سوف يتغلب عليهم ، ببركة البيت الذي يحميه مولانا ، فكما ترى ، الأحوال صعبة ، لأبد من لقائنا كثيرا ، ننظم أمورنا معا ، ما ينقله رجالى سأقدمه لك ملخصا كل يوم ، عندك تجربة مهولة ، عندك أدق نظام فى الدنيا لاستخدام الحمام الزاجل والبريد ، وأنا وأنت نشهر سيف العدالة ، أنا وأنت نقيم الميزان صحيحا لايميل ولا يخل ، ما أريده يا زكريا أن يصبح رجالنا أداة العدل بين الناس كل الناس لأبد أن تعرف هذا ، كف الزينى فجأة عن الكلام ، بقى زكريا ناظرا الى الأرض ، قال بعد لحظات « أه .. وبعد ؟؟ » ، وكان الزينى لم يتوقف قط ، قال بسرعة « حتى لا أعطلك جئت اليك بأوراق فيها ما أتخيله ، أرجوك إبداء الراى فيها » .. عند الباب شد على يد زكريا ، أدعوك الى الغداء عندى .. أى وقت تختار ؟ ، قال زكريا « لا أفارق البيت إلا نادرا .. » اتسعت ابتسامة الزينى ، « سوف أمد لك مائدة حافلة .. » قال زكريا إذن سارسل لك وثلثتى قريبا ، عاد إلى الحديقة ليرجىء التفكير فيما قاله حتى الليل ، بعد قراءة هذه الأوراق ، لأبد من النفاذ الى باطن كل حرف ، الأمر ليس هزلا ، ما قدره منذ هذه الليلة ، يزداد رسوخا فى عقله ، لكن الحقيقة ، الزينى رجل لم يعرف له مثل ، أحيانا يفكر زكريا ، بضرورة مجيئه بعد هذا الزمان بسنوات ، لا يدرى مقدارها تماما ، ولكن أليق به العيش فى زمان بعيد ، يلقي فيه أدوات يحلم بوجودها ، لا يدركها لعجزه ، وعجز زمانه عن تجسيدها ، هذا الزينى جاءه أيضا من العصر الغامض النائى الذى يود العيش فيه ، مثله لا يستهان به ، مع مجيء الليل أدرك زكريا خاطر مزعج عند زيارة الزينى الخفية ، يعود الى ممارسة وظيفة لم يشرع فيها من قديم ، تقريبا منذ توليه منصب مقدم بصاصى القاهرة ، قبيل إرتقائه الى منصب كبير البصاصين ، الليلة يرتد الى زمن بعيد تعقب فيه الخلق بنفسه ، كان يتخفى فى ثياب أرباب المهن والطوائف ، وقتها استحدث طريقة جديدة فى اقتفاء الأثر ، تعقب الانسان بالسير أمامه ، وهذا لايقوم به إلا عتاة البصاصين ، زكريا ابتداء العمل بصاصا من أصغر الدرجات لم يسبقه أحد فى هذا ، الليلة يرهف حواسه التى خدمته بصاصا صغيرا مبتدئا ، لكن أين ؟ هنا فى بيت ، كيف عرف الزينى أمر المملوك شعبان ؟ كعادته عندما يتفحص أمرا محيرا ، يمسك قلما ويرسم أشكالا وخطوطا ودوائر ، لا معنى لها فى ظاهرها ، لكنها تساعد ، تركز فكره ، من رافقه عند ذبح المساجين ودفن شعبان ؟

مبروك ..

لن ينفى عنك الشك ، لايعلو مخلوق عنده على الشك ، أبدا .. يوضع مبروك فى الدرجة الأولى حتى يثبت عكس مايطننه ، ثم ، من يفترض أنه تابعهما ، أو راقبهما خلال الدفن ؟ ، فى هذه الليلة خلا البيت تماما ، لكن ليحصر المترددين على البيت .

— شهاب الدين الحلبي .

— مقدم بصاصى القاهرة .

رجال الديوان ، وكلهم معروفون لديه .

ربما نفذ أحدهم ، استطاع رؤيتهما بطريقة ما ، لم تتضح حتى الآن ، نقل ما رآه الى الزينى ، هذه فعلا مصيبة ، كيف يظل الغريب عبر الأسوار ، لابد من مراجعة مكتب عن رجاله واحدا واحدا ، أصولهم ، أحوالهم ، أمزجتهم ، أفكارهم ، ثم تضيق الحلقات ، يمد الخطوط ، يضع الدوائر ، حتى تضيق الحلقة حول عنق بعينه ، ثم ينتقل الى معارفه وأقاربه خارج رجال الديوان .

— الحريم .

(أ) نسأله الأربع

(ب) الجوارى

من الليلة ، سيرى كلا منهن ، ليبدأ بأقدمهن ، حكمت ، أولى حريمه ، هجرها منذ وقت ، ولم يزرها ، الليلة يبدأ بها ، وعندما يشم عبير المسك ، يرشف عصير العنب ، يأكل الدجاج المسقى بالسمن وماء الورد ، تخرج الأسئلة منه تائهة بلا قصد ، الباقيات لكل منهن وقت يلى الليلة ، الجوارى ، « وسيلة » لكنها طفلة لا تكاد ، جاءت قبيل تولى الزينى بأسابيع ، من يدري ، لن يخرج أحد عن دائرة الشك ، يبقى احتمال لجوء الزينى الى حيلة جديدة يجهلها زكريا ، هذا ماسيحاول الوصول اليه ، لابد من ذهابه الى « بركة الرطلى » ، الزينى يقترح عليه بحث الوسائل والخبايا يريد معرفة طريقه ، لا يغيب عن زكريا الضيق الذى جاءه ، صحيح أنه يأخذ حذره من جميع الناس بما فيهم أقربهم اليه ، العاملون فى بيته ، حريمه ، فليات الذين يشهرون به ، الذين يلعنونه ، ليروا أى هم يعانيه ، أى متاعب تحل به ؟ خط عدة دوائر ، منذ الآن سيكون كل واحد فى بيته عينا على الآخر ، كل امرأة ستقرب الأخرى ، الرجال ، يذكر بعض التواريخ الخاصة بالبصاصين ، تمكن ملك المغول - أحد أحفاد كبيرهم جنكيز خان - استطاع أن ينفذ إلى بصاصى بغداد ، انسان واحد فقط اعتلى منصب نائب كبير بصاصى دولة الخلافة العباسية ، وهكذا وقف على أسرار الخلافة كلها ، راسل بها المغول زمنا طويلا ، حتى اجتاحتها بغداد وهم على علم بأية أرض يخطون فوقها ، وكان ما كان ، قلم زكريا تحن روحه الى التجوال فى المدينة والليل مطبق فوقها لكنه لن يخرج أبدا ، عندما يتبين له الانسان الذى أبلغ الزينى بما تم ، يتخيله الآن ، الغل يعتمل فى بئر قلبه ، يرى بعينى عقله ألوان العذاب التى سينوعها لصاحب تلك الفعلة ، أى طريقة مستحدثة لا تخطر ببال جن ولا انس يختارها لانهاء حياته ، أى طريقه ، أما ما قرره بخصوص الزينى بركات بن موسى فلن يتراجع فيه أبدا حتى لو أفنى عمره كله .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى : (ادع الى سبيل ربك بالحكمة ، والموعظة الحسنة ،
وجادلهم بالتى هي أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله
وهو أعلم بالمهتدين) .

« ما أقدمه إليكم ليس الا مجموعة خواطر وأفكار تراءت لنا ، اذا ما رأيتم صلاحيتها
أرجو ان نعمل معا على اقرارها ، حتى يستقيم العدل ويستقر ولن نبالى فى هذا إلا
إلا مرضاة رب العالمين ، وكما تعرفون فإن أشرف الخلق عليه الصلاة والسلام ، قال
(من أَرْضَى الله بسخط الناس كَفاه الله شرهم ، ومن أَرْضَى الناس بسخط الله وكله الله
إليهم ، ومن أحسن فيما بينه وبين الله - تعالى - أحسن الله فيما بينه وبين الناس ،
ومن أصلح سريره ، أصلح الله علانيته ، ومن عمل لآخرته كَفاه الله شر دنياه » .
وبعد ،

كان أسس عملنا - أنا وأنت - اقرار الامن والعدل فى ربوع السلطنة ، وسأقصر
حديثى الآن على دائرة اختصاصى (القاهرة والوجه البحرى الذى أضافه السلطان
الى نظارة حسبتى أخيرا) أما فيما يخص ربوع الشام ، فهذا أمر أنت عليم به ، خبير
فيه ، ولا أقر عليه ، وحتى يستقر العدل فى بر مصر لأبد من اقامة أسس قوية ،
ودعائم متينة ، وكما هو معروف لدينا ، فهذه وظيفة مكروهة عند الناس ، فمن سبقك
لم يظهر الا جانبها الوحشى ، حتى غاب عن الخلق ضرورة وجودها وعدم استمرار
الدنيا بدونها ، من هنا فلا بد من وصولنا الى لحظة يصبح فيها كل بصاص محبوبا
مبجلا من الجميع ، رجال الدنيا والدين ، وسيتم هذا بوسائل عدة سنناقشها معا ،
لكن ما يهمنى الآن تقسيم الجماعات والفئات التى سنعمل خلالها ، وتحديد أهمية كل
منها ، وضرورة التركيز على بعضها دون الآخر .

تنقسم مصر الى فئات (وجعلنا بعضكم فوق بعض درجات)

- ١ - السلطان والأمراء الكبار
- ٢ - المماليك والأمراء الصغار
- ٣ - أولاد الناس ، المتعممون ، والفقهاء أرباب الطوائف والحرف ، التجار .
- ٤ - العامة من الناس .

بالنسبة للفئة الأولى ، يجب النفاذ الى خباياها ، عن طريق بصاصين متخصصين
على درجة عالية من الرفعة والإلمام بالعلوم والقدرة على المناقشة ومعرفة تقاليد
هذه الفئة وعلومها ، وغرضنا هنا حماية مولانا السلطان والامراء الكبار ، وارى

ان يكون البصاصون المخصصون للتوغل داخلهم من نفس الفئة (على خلاف المتبع حاليا) .

- الممالك والأمراء الصغار وتخصصهم فرقة تتبعك وتقوم بعملها خير قيام .
- الفئة الثالثة لأبد من التركيز عليها ، والاهتمام بها اهتماما كبيرا فلهم تأثير عظيم على الفئات القريبة منهم ، الجماعات العلوية (الأمراء والأكابر) أو السفلية (العامّة والأوباش) .

● عامّة الناس وهم دائما مثيرو الفتن ، ربما حركوا بعض المتعممين والفقهاء في ظروف عدة ، واجدني مضطرا الى تقسيمهم .

(أ) طلبة الأزهر والكتاتيب ، وهؤلاء لأبد من تتبعهم باستمرار ، وإثارة بعض الفتن من حين الى حين لكشف من ضل ومال الى جانب إثارة الفتنة والغم ، وتحريض الأوباش على سادتهم ، هؤلاء لا يجزرون من بين الناس فربما أثار هذا سخط العامة ، إنما يعاملون بطرق مختلفة وأساليب متنوعة سنتفق عليها معا .

(ب) بالنسبة للعامة فهؤلاء قطع يتجه كيفما توجهه انه بحر زاهر طوع الرياح ، وحش بلا عقل تسوسه فيطيعك ، والأعمار في هذه الفئة لا قيمة لها ، فكلما ضاقت سبل العيش ، قلت قيمة الحياة ، وذهب عناء الحرص عليها ومن هنا فلا بأس من اختفاء بعضهم من حين الى آخر ، بطريقة لا يعرفها أحد ، وهذا يرهب الباقين . أرجو مساعدتي في اعداد كشوف تضم اسماء جميع العاملين في الحرف والمهن والصناعات والتجارة ، كشف يحوى اسماء القصاصيين وآخر به البنّاءون ، والمرحّمون والصباغون ، والنقاشون ، والعقادون ، والصدفجية ، والنساجون ، وباعة الحلوى والمشبك ، والشربتلية ، وغيرهم .

لأبد من حصر المواليد الذين يجيئون الى الدنيا وكل أب ينجب طفلا لا يبلغ عنه الى نائبى في المنطقة التى يقيم بها يعاقب بالجلد ، وبإذن الله أنوى شئق عدد منهم فى البداية حتى يرتدع الباقي وهكذا يمكننا معرفة اعداد القادمين ، من سيخلفوننا فى دنيانا ، ندرجهم فى كشوف ، نتابعهم فى نموهم ، تلقىهم التعليم ، سواء أكان التعليم دينيا أو دنيويا ، فى طائفة أو حربيا بالنسبة لأولاد الأمراء والممالك ، تقدم عنهم التقارير كل فترة بعينها ، بحيث نعرف ميولهم وأهواءهم ومكانم الخطر فيهم ، حتى اذا ولينا عن الدنيا ، حانت أجالنا ، وهذا الامر لا يعلمه إلا الله ، تركنا لمن يأتى بعدنا سجلا نافعا جامعا لكل ما عرّكناه ، وما رأيناه فى زماننا ، وبالنسبة لهذا الامر قررت شهر النداء به والعمل به بعد أن وافقنى السلطان عليه .

أرى ونحن مقبلون على عصر كله محن ، وفتن ، ونظرا لتعدد الطوائف والأجناس في بر مصر ، أن تعد بطائق صغيرة من الجلد ، يحملها الصغير والكبير والبصير والضريير ، يوضح في كل بطاقة رقم معين هو ما يقابل الرقم المدرج ، بالكشف أيضا المهنة التي يزاولها الشخص ، الجهة المقيم بها . تختتم هذه البطائق بخاتمين أحدهما من عند نائبى في منطقة الاقامة ، والآخر من مقدم البصاصين في نفس المكان ، ومن ضبط بدون بطاقة جلد ، عوقب معاقبة شديدة ، وعند وفاة الانسان تقوم أسرته بتسليم بطاقته الى مقدم البصاصين لترفع الى الديوان فيشطب اسمه من الاحياء ، وينقل الى كشوف الأموات ولا يستثنى الجريم .

في المدة المنقضية على ولايتى للحسبة ، لاحظت طلوع حكايات بين الحين والحين تنتقل بين الناس الغرض منها التشهير بأحد كبار رجال السلطنة ، ومنى شخصيا ، وهذا أمر تتفق معى على ضرورة مقاومته وإزالة أسبابه حفاظا على هيبة الامراء ، والرجال الاكابر ، وأضرب مثلا بسيطا ، عندما أردت انارة القاهرة بالفوانيس ، تردد كلام كثير حول الموضوع واعتبر واقعة عظيمة أدرجت في كتب التاريخ ، مما اضطرني الى الرجوع عن أمر انتويته ، وشرعت فى البدء فيه ، هذا لم يغضبني قط ربما أخطأت الوقت ، لكن ما ألمنى وأوجعنى هذه الحكايات التى تردت على السنة العامة ، وهم يحبوننى ، مما دفع بى الى الظن باختلاق هذه الحكايات والنوادر ، وانت كنائب للحسبة ونائب لى فى جميع ما أتولاه من مناصب (قررت هذا اخيرا) ، وما يلحق بى اليوم ، يلحق بك غدا ، ومما يمسنى بمسك ، لهذا أرى أنك الوحيد القادر على مقاومة واخفاء هذه النوادر والحكايات حال ظهورها ولن أقبل عذرا ، فلا مستحيل يحول بينك وبين ما تريده .

واقبل منى السلام ، وأدعو معك أن يجعل الله هذا البلد آمنا .

(متولى حسبة الديار المصرية)

والى القاهرة

الزينى بركات بن موسى

عمرو بن العدوى

لا يدعه يغيب عن عينيه ، اذا بعد عنه ، عرف اخباره من اصحابه المجاورين ، يجلس هادئا بينهم ثم يسأل عنه سؤالا عارضا بلهجة يعرف الآن كيف يلونها تماما ، ألم ير احدكم سعيد الجهيني ؟ ، يقول احدهم « خرج منذ الصباح » ، يجيب آخر « سعيد تعود الجلوس في مقهى قريب من جامع قلاوون » ، يقول عمرو « سعيد ابن حلال » ، يسكت ، منذ ايام خرج عمرو الى الطرقات يرى اياما نائيات يمسك فيها بجلباب امه ، خرجا الى الحقول لينتزعا البطاطا ، رائحة الضباب لم تفارق أنفه رائحة الخبيز ساعة الظهيرة ، البوص ، وهج الاقران ، جريه مع الأولاد عند مجيء نائب المحتسب ، نظرات الحريم المذعورة من الطيقان الضيقة ، خوف يضم القلوب ، عند سوق النحاسين يشم دخان المستوقد المجاور لحمام قلاوون تسوى فيه قدور الفول المدمس .

صباح الخير .. يرفع حمزة بن العيد الصغير يده .. « أهلا .. أهلا بالقمر .. » منذ ثلاثة أسابيع يمر يوميا على حمزة ، يشرب القرفة بالحليب ، يدفع درهما كاملا بدلا من نصف درهم ، في أحد الايام تغيب عن المجيء ، في اليوم التالي أبدى حمزة جزعا ، تمنى ألا يكون لحقه مكروه ثم دعا له بطول الستر ، عمرو يجيء هنا في أوقات معينة ، يعرف من تتبعه لاخبار سعيد ، مواعيد حضوره ، قال مقدم البصاصين ، تردد سعيد الى مقهى حمزة ، أمر جديد لم تبلغ عنه الا أنت ثم قضاؤه وقتا في تدخين المعسل هذه علامة جديدة ثم ما الذي دفعه الى اختيار هذا المقهى بالذات ، تلك أمور لابد من ايضاحها ، في البداية حامت حوله الظنون ربما يتخذ الدكان مكانا للقاءات مريبة ، لكن الرقابة الصابرة المحكمة ، أثبتت أنه يقضى الوقت كله منفردا لا يتحدث الى أحد فيما عدا حمزة بن العيد الصغير ، حامت الظنون حول الألفاظ المتبادلة بينهما ، لكن ثبت أنها لا تعدو طلبه الحلبة ، أو تحية ، أو تبادل المودة ، وكلها ألفاظ لا تخرج عن حديث زبون وصاحب مقهى ، وإن تميزت بود رائد ، أيضا طريقة طلبه للحلبة لا تدعو للريبة ، لا يقرن طلبه بأية اشارات خفية أو رموز سرية ، ربما تضمنت معاني دنيئة تغيب عن اللبيب الفطن ، أما المحير فهو موضوع تفكيره خلال جلوسه بالمقهى مقدار ساعة أو ساعتين ، في مرة أخرى قال مقدم البصاصين « لابد من وجودك على مقربة من سعيد الجهيني ، عمرو يعرفه ، ينام في الرواق بالقرب منه ، عالم بطيئته ، بلحظات سروره ، ولحظات كآبته ، وما يصاحبها من علامات ، أو انقباضات وجه ، من هنا يمكن لعمره لو راقبه جيدا تتبع اختلاجات وجهه ، ارتعاشات عينيه وحركات يديه ، ربما توصلوا الى شيء ، لكن لابد من الحذر ، بحيث

يجلس عمرو في مكان لا يمكن لسعيد أن يلحظه ، تساعل عمرو «كيف يمكن هذا والمقهى ضيق على صاحبه ؟ ، هنا فرد مقدم البصاصين بين يديه ورقا عريضا ، به رسم للمقهى وما احتوى عليه من اوان ، ومقاعد منحوتة في الجدار ، أشار الى فجوة في الحائط قريبة من نصبة الفحم والحلبة والسحلب ، «هنا ستجلس» وسعيد لا يدخل إنما يبقى في الخارج ، تستطيع رصد حركاته بدون أن يراك ، لكن يجب ألا يأتي جلوسك هنا مرة واحدة من اليوم ، اذهب الى حمزة بن العيد الصغير ، عامله بمودة ، أجرل له العطاء ، كوب الحلبة عنده ثمنه نصف درهم ، اعطه درهما كاملا ، هل تحب الحلبة ؟ ياه .. نسيت عشقك للقرقة بالحليب ، الثمن واحد ، عموما ستأخذ مصاريك كاملة أول كل أسبوع ، من اليوم ستذهب الى الدكان لمدة خمسة عشر يوما ، بعد صلاة المغرب في أى وقت بعد العشاء يمكنك أن تجلس في أى مكان تشاء . سعيد لا يأتي في هذه الأوقات ، في اليوم السادس عشر إذهب مبكرا الى الدكان ، أطلب الى حمزة بن العيد الصغير أن يبقيك جالسا في هذه الفجوة ، هنا .. ابق ولا تتحرك ، أظهر الحزن ، وعدم الرغبة في الكلام سيجيء سعيد .. سيجلس هنا ، هل ترى ؟ ومن مكانك ستراه تماما ، لن يتمكن من رؤيتك .. هل فهمتني ؟ أبدى عمرو تعجبا لدقة التفاصيل . سخط الدكان ومسح ليبقى بهذا الحجم فوق الورق ، قال المقدم «توكل على بركة الله .. اسمع .. هل تحتاج نقودا ؟ ، هز عمرو رأسه «خيرك يغرقتني ، بقيت يده معلقة بين يدي المقدم ، «ما أخبار الوالدة ؟ ، كان قصا مر الطعم ذاب في ريقه ، لا يعرف لها خبرا ، عندما رجع شيخ زاوية العميان ، أسرع اليه ، يعرف انها لابد سترسل اليه شيئا من البلد ، ربما أرغفة بتلو ، قدر مليء بالمش والجبنة القديمة تصل به الزمن الذي قطع المسافة بينهما ، عمرو لن ينسى أبدا صوت الرجل قال «لم أعثر لها على أثر ، قالوا في البلدة انها لم تمت ، منذ مدة بدأت نتحدث عن مجيء هاتف في المنام أنذرها بقله ما تبقى من عمرها ، لابد من رؤية عمرو ولدها ، وحتى لا تشغله عن طلب العلم قالت لصاحبها سكيته الدودة التي تصنع اواني الفخار ، الدودة هي التي تلقت عمرو عند ولادته ، فوق كوم برسيم أخضر قطعت حبل خلاصه «يا دودة أنا سأسافر الى مصر لأرى كبدى ، قالت الدودة «مصر بعيدة وانت مارحت اليها أبدا ، لكنها أصرت ، قالت لكل رجل في البلدة والنساء ، حتى الأطفال ، توقفهم في الطرقات وتحكى لهم عن ولدها عمرو ، ضرورة رحيلها إليه وتتمنى لهم أن يكبروا ويصبحوا مثله . اعطتها الدودة زوادة اكل ، في يوم صحت فلم تجد أم عمرو ، داروا عليها في غيطان البطاطا ، وملقة البطيخ ، لم يعثروا لها على أثر ، ولم يذكرها أحد ، بعد وقت قليل لم يحتجها أحد يوما ، إنما هي التي احتاجت الناس دائما ، تعجب شيخ زاوية العميان قل «ظننت أنها جاءت اليك ، غامت عينا عمرو ، رأى أمه فوق طريق مترب مهجور يصل بين

قريتين ، تقطعه قرع ، حفر ، غابات نخيل ، ينزل عليها الليل لا تلقى ما تدفىء به معدتها ، تسأل القادمين والذاهبين عن الطريق الى مصر ، أحيانا يوقن عمرو بقربها منه ، ربما يلتقى بها فجأة ، هل سيعرفها ، ربما غيرتها المسافة ، ربما ضعف بصرها . فلا يمكنها رؤيته ، ثلاث سنوات لم يسمع لها حسا ، لم يلحظ ارتعاش هديبها ، هو تغير ، تجيء لحظات يلوم نفسه لوما عظيما كيف انقطع عنها ثلاثة أعوام ، كيف .. لا فائدة ترجى ، جرح غرس نفسه فى كليته فى قلبه لكن ماذا يحدث لو مرت فى الطريق أمامه ، اثناء مراقبته لسعيد ، هل يقوم منتفضا ، كاشفا نفسه ، يعانقها ، يدرك سعيد ما يحاك له ، يعلم مقدم البصاصين بإفساد ما تم تدبيره ، عمرو ليس بمفرده فى المقهى ، يعرف هذا تماما ، هناك عين أخرى ترقبه ، ربما حمزة ابن العيد الصغير نفسه ، ربما غيره ، شخص واحد ينفى عنه الشك هو سعيد الجهينى نفسه ، ومن يدري ، ربما يتعرض لاختبار رهيب تمهيدا لتصعيده فى سلم البصاصين ، أبدى المقدم تأثرا واضحا ، قل هذه حالة أصعب من الموت نفسه ، قل انه سيوصى النواب فى سائر البلاد بإبلاغه عنها . لابد من كشف أمرها ، فى لقائه مع المقدم رأى تغييرا ملحوظا لا تخطئه عين فى طريقة حديثه ، معاملته ، لهجته أرق ، يبدى اهتماما زائدا عن الحد بشئونه الخاصة ، لا يهدد كالعادة ، هذا أفضل . عمرو أكثر قربا منه بعد اللقاء ، الآن يجلس منكشبا فى الفجوة ، تعلم من المقدم ألا يمل ولا يزهد من مرور الزمن ، ربما دفعته الظروف إلى النظر من خلال ثقب مشربية يوما كاملا ، يرقب وصول إنسان بعينه قد لا يجيء ، عليه ألا يدع للضييق سبيلا إلا روحه ، بالفجوة رطوبة ، وفى القلب حنين إلى عجوز لا يعرف مكانها ، إلى أى أرض تمضى ، بأى أرض تموت ، لكن الحنين يجب أن يتوارى ، الآن يعمل ، يسعى من أجل عيشه ، لم يقربه حمزة كما رجاء ، جاء ثلاثة من مشايخ الكتاتيب التى تحفظ القرآن للصبية ، أحدهم يرشف السحاب بصوت مسموع .. تضايق عمرو ، ترحم أكبرهم سنا على أيام زمان عندما كان الصبية يسعون بأرواحهم إلى حفظ القرآن وتلاوته ، لكن الزمن ما عاد الزمن ، الصبى ابن العاشرة يجلس أمامك وكأنه قاعد على فرخ جمر ، ما يصدق الحصة تخلص حتى يهج ، قال أحدهم « والشقاوة .. أعوذ بالله منها .. » ، قال ثالث « هذه علامات الساعة » ، تسأل عمرو بينه وبين نفسه « ما الذى يقصده بعلامات الساعة ؟ » ، لينتبه ، صحيح أنه هنا من أجل سعيد ، لكن لابد من الإصغاء إلى ما يجرى ، ربما طلع بحديث له قيمته ، ربما وقع مصادفة على ما لن يقع عليه بالترتيب والتدبير . قال أكبرهم « أى والله .. لا أعجب لو أخبرنى أحد عن بغلة أنجبت » ، قال الثالث : أقصرهم قامة « نستعيد بالله يامولانا .. لو حملت بغلة وأنجبت لكان هذا علامة على انتهاء عمر الدنيا » قال غليظ الصوت ، « وما أدراك أنها

لا تنتهي ، أصغى عمرو ، حديث طريف لكن له مغزى .. بأى سيم يتخاطب العجائز؟؟ ، ليفتح أذنيه تماما ، عندما قابل مقدم البصاصين أول مرة قال له ، « البصاص المكين عبارة عن أذنين وعينين ، يسمع ويرى ، يحفظ وينقل ، حتى فى ساعات نومه ، ، عشنا وشفنا بدعا لها العجب ، يعنى الآن لا يقدر إنسان على الحركة من بيته إلى الجامع إلا بقطعة الجلد هذه .. والله عجيب ، ، قال قصير القامة « لم نسمع بهذا من قبل ، أه لو يعرف عمرو أى الكتاتيب يديرون؟؟ سيسأل حمزة عنهم آخر النهار أو غدا حتى لا يثير ريبتهم ، وحتى يثبت التزامه بقواعد البصاصة الصحيحة ، لو صح أن حمزة عين ترقبه ، انتبه عمرو إلى وصول رجلين من التجار ، دخل أولهما ، أشيب الشعر وهو يسأل ؟ « يا ترى هل خلع السلطان عمامته الخفيفة ، ولبس الكبيرة » قال الثانى ، « لو تم هذا فمعناه شفاؤه من مرضه لكن البشائر لم تدق بهذا ، ، تسأل عمرو ، من أى حى هما؟؟ فى الناحية الأخرى أكبر الشيوخ « ومن علامات الساعة ظهور المسيح الدجال » ، التاجر أشيب الشعر ، « أنا متأكد أنه ارتدى العمامة الكبيرة وقابل الأمير طومانباى » ، يقول ثانى المشايخ ، والله أشعر أن المسيح الدجال يسعى بيننا ، يدق قلب عمرو ، هذا خطير ، التاجر الصغير : لا أصدق أبدا أن السلطان ارتدى العمامة الكبيرة ، وإلا .. فأين البشائر ، أه .. أين البشائر؟؟ « الشيخ أشيب الشعر ، « أى والله ينقصنا طلوع الشمس من المغرب » التاجر الصغير « عموما .. أنا لا أستبعد هذا .. ربما ، دخل رجل رفيع أسمر حول رأسه عمامة صغيرة زرقاء نصرانى من أهل الذمة ، حمزة بن العيد الصغير حدث عمرو عنه ، لا يتحدث كثيرا ، إنتظار الكلام منه كنزول المطر فى يؤونه ، كل يوم يجىء أربع مرات ، مرة بعد طلوع الشمس بمجرد فتح الدكان ، وفى الضحى ، ثم العصر ، وقبيل إغلاق الدكان ، أه .. يضحك المشايخ ، هل فلقه شىء ؟ أشيب الشعر يقول ، سيمد الله فى أجلى حتى أشمت فى زمنى « يضحكون ، لابد أن يتذكر الجملة جيدا ، التاجر الصغير « اشترينا الأردب بدينار ونصف اضطررنا إلى هذا .. ، تغير موضوع حديثهما ، النصرانى فى كل مرة يشرب كوبا من اليافسون بلا سكر ، يدخل كرسيين من الدخان ، لا يدخل تبغ الدكان ، إنما يحمل معه كيسا جلديا متشققا مليئا بالتبغ الأصفر الجيد ، له رائحة لا مثيل لها لا يعرف حمزة من أين يحضره ؟ يتناول مقدارا معينا لا ينقص ولا يزيد ، يطلب من حمزة رص الكرسي ، يتابعه بدقة ، يبدأ التدخين ، ينفث الدخان من أنفه كأنه يقالم أو يعانى وجعا ، يحرك رأسه يمينا وشمالا ، يشكو شكوى صامتة إلى الشيشة ، يحدثها عن ظلم فلاح حل به ، قرب انتهاء الكرسي ، ينظر إليه ، يسوى الفحم ، يضغطه ، يحيط الحجر بيديه ، يميل عليه ، ينفخ بفيه ، رجاء أخرس ألا تنتهى أنفاس الدخان ، يقول الشيخ قصير القامة

« أى والله .. أى والله » ، يرد أشيب الشعر ، لكننى لم أصدق قط .. أقسم الإيمان
المغلظة لكننى لم أصدق ، حمزة حكى ما يعرفه عنه ، يسكن فى وكالة الفراخ ،
قرب خان الخليلى ، لا زوجة عنده ولا أولاد ، مرة رآه حمزة يبكى ، يبكى بدموع
تنسال من عينيه سهلة لينة بلا ملع ، بلا تشيج ، تساعل عمرو ، من أين يأتى
بالتبع ؟؟ ما الذى يجعله مهموما ؟؟ كأنه يتحدث إلى رجال اختفوا عن العيون كلها
إلا عينيه هو ، أه .. سعيد يجلس أمام الدكان ، حضور مفاجئ لم ينتبه إليه ،
لم يذكر رؤيته المفاجئة : هذا أمر يحسب عليه ، يقعد فوق الدكة ، أطرق ، عمرو
يحاول تهدئة دقات قلبه ، حقا لا يزال الشوط بعيدا حتى يصل إلى حد الكمال ،
أن يرى مهما يرى ، لكن مشاعره لا تتغير ، لا تتبدل ، هذه درجة راقية لا يصل إليها
إلا كل بصاص مكين ، أه لو هناك حيلة يتفذيها الإنسان إلى ما يدور فى عقل الآخر ،
لعرف البصاصون دلالة رعشة العين ، أى الخواطر دفعت الأنف إلى اختلاجة
سريعة ، تراجع عمرو حتى ألصق ظهره بجدران الدكان .

★ ★ ★

نداء

يا أهالى مصر
أأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر
أنكشف المستور
منذ ستة شهور
تسلم الزينى بركات بن موسى
ناظر الحسبة الشريفة
ووالى القاهرة
تسلم الأمير مامى الصغير
وبعد أن قرره ، احتاط على موجوده
وظهر لديه ما قيمته ،
تسعون ألف دينار
وهذا يزيد عما طلبه السلطان
بعشرين ألف دينار
وقد سلمت الأموال ، جميعها
إلى بيت المال ،
يا أهالى مصر
أمر الزينى بركات بن موسى
ناظر الحسبة الشريفة
ووالى القاهرة
بفرض ضريبة على بيوت الخطأ
ومنع تردد من هم دون العشرين عليها
حفاظا على الخلق ، والشريعة
يا أهالى مصر
بعد يومين ، يسافر الزينى
إلى جهات دمياط ، والدقهلية
لكشف أمورهما

ودفع العربان عنها
وإقرار النظام بها
وسوف يقوم بأعماله في غيبته
عبد العظيم الصيرفي
صراف الحسبة
ونائبها لشئون الأموال
وجميع الأمور ستبقى على حالها
وسيعاقب المخالف
يا أهالي مصر
تعهد الزيني بركات بن موسى
ناظر الحسبة الشريفة
ووالي القاهرة
إلى مولانا السلطان
باستلام الأمير بكتمر الساقى أمير عشرة
واستخراج أموال المسلمين منه
ويقدرها الزيني بخمسين ألف دينار خالصة
غير ما يظهر
من المخبأ ..

★ ★ ★

عاجل :

إلى مقدم بصاصى القاهرة

فى يوم الإثنين ، فى الصباح ، حيث خرج الخلق يحتفلون بشم النسيم ، يمارسون اللهو والفرجة ، رأيت سعيد الجهنى ، وفى الحال تواريت عنه ، لم يكن بمفرده ، إنما تصحبه امرأتان ، إحداهما كبيرة السن ، اقتفيت خطواتهم ، من باب الخلق إلى حدائق بولاق ، وهناك لحق بهما شيخ معمم إسمه ريحان البيرونى ، أعلم بتردد سعيد على بيته ، وبدا سعيد - وأنا أقطع الشك باليقين ، والتردد بالثبات - مولها ، مدلها ، غارقا حتى أذنيه فى عشق إبنة الشيخ البيرونى ، وعرفت من أصحابى المجاورين أنه كثيرا ما يلفظ باسم « سماح » أثناء نومه وسماح هى إبنة الشيخ وقد أمضيا اليوم كله فى حدائق بولاق ، انفرد سعيد بها مرتين ، حدثها وحدثته ، وسوف أتابع ما يستجد .

عمرو

نداء

يا أهلى مصر
يعلن عبد العظيم الصيرفى
صراف الحسبة
إن كل شىء على حاله
والأسعار كما قرر الزينى
وأى قاجر يتلاعب
دمه مباح
حتى يرجع الزينى من غيبته
★ ★ ★

نداء

يا أهلى القاهرة
أمر عبد العظيم الصيرفى
بشنق بائع بيض على باب دكانه
لأنه زاد سعر البيض
★ ★ ★

نداء

يا أهلى القاهرة
أمر عبد العظيم الصيرفى
بقطع السنة ثلاثة شبان
ضبطوا يشيعون البلبلة
★ ★ ★

نداء

يا أهلى القاهرة
أمر عبد العظيم الصيرفى
بتسليم ثلاثة مغاربة
إلى الشهاب الأعظم زكريا
النائب الأول للحسبة ، ولوالى القاهرة
بعد ثبوت اتصالهم بابن عثمان
★ ★ ★

نداء

يا أهلى القاهرة
يأمر عبد العظيم الصيرفى
بأن يفتح كل إنسان أذنيه
ويدل على من شك فى أمره
بوجود صلة له مع ابن عثمان
وله مكافأة
يا أهلى القاهرة
غدا ..

يتوجه الشهاب الأعظم زكريا
إلى جامع شيخون
ليؤم الصلاة
ويخطب فى المؤمنين
والجامع مفتوح أمام الراغبين
★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم اللهم اجعل هذا البلد آمنا

« ديوان سر الشهاب زكريا بن راضى »

نبذة مرسلة بالحمام الزاجل

إلى الزينى بركات بن موسى متولى حسبة القاهرة والديار المصرية ، ووالى
القاهرة ، إلى دمياط .

١ - من هو الشيخ ريحان البيرونى ؟؟

هو الشيخ ريحان بن زيد محمد الأسيوطى بن عامر الفاضل أحمد بن إبراهيم ،
أما البيرونى فلقب لصق بالشيخ ، منذ أن درس علوم المنطق على يدى شيخ ضرير
أتى إلى الجامع العتيق فى أواخر عام ٨٠٥ هـ . جاء من بلاد الشاه إسماعيل
الصوفى ، اسمه الشيخ البيرونى ولم يكن شيعيا ، أو منتبيا إلى أى طائفة من
طوائف الرافضة ، إنما هو سنى متعمق ، عاش بمصر ولم يتزوج حتى مات
عام ٨٨٣ هـ . دفن بالقرافة الشرقية مع العلماء الصالحين .

عمل الشيخ ريحان كاتبا صغيرا بديوان سر قاضى القضاة ، وفى هذه المدة قلم
بصياغة الحجج والفتاوى التى تصدر عن قاضى القضاة ، وأتقن عمله ، كما أتاح له
هذا فرصة مشاهدة الأمراء وكبار رجال السلطنة عن قرب ، ومن قبل لم يرههم إلا فى
المواكب ، وعندما كن يلمحهم يتساعل ويروح عقله إلى بعيد ، هل يضحك هؤلاء
الأكابر كبقية الناس ، هل يتبادلون النكات ، والقفشات ، هل يداعب الواحد منهم
صاحبه ، يناديه بألفاظ الألفة والمودة ، تساعل كثيرا عن طريقة أكلهم وكيف يقدم لهم
الطعام ، يغمض عينيه ، يرى نفسه مقربا إلى أمير كبير ، وقريب من مجلس السلطان
نفسه ، لكنه لا يدرى ما يقوله لهم ، بل من الثابت فعلا ، وهذا دلت عليه شواهد
وقرائن ، أنه تساعل إلى أحد أصحابه - فى الفترة ما بين عامى ٨٦٣ هـ و ٨٧٥ هـ -
عما إذا كن شخص مثل الأمير تمرىغا أتابك العسكر وقتئذ ، يبول ويفعل كبقية
الناس ؟؟ بل قال لصاحبه ، كيف يتعزى السلطان ويلفح الفراغ مؤخرته الضخمة
عندما يعلو امرأة من حريمه ، يسيل ريقه ، يغمض عينيه وترتجش اطراف حنكه
شهوة ورغبة ، واعتبر البيرونى مثل هذه الأسئلة أمورا كبيرة ، تستحق مؤلفا
ضخما ، تمنى لو نفذ إلى الأكابر العظام ، صاحبهم بادلهم الرأى فى الزمان ،
ما يأملون فيه ، ما يحلمون ، رأى نفسه يجلس إلى أتابك العسكر ، يدخلان سويا بعد
عشاء هنىء ، يميل عليه الأتابك ، يسر إليه بسر لا يعلمه إلا هو ، أو الأمير الجوكندار

المحمدي ، يقص عليه حكاية خاصة جدا تتعلق بالسلطان ، ثم يطلب منه الا يفضي بها إلى أحد من الناس ، لأن السلطان لو عرف بتسريبها لأطاح برقبة من حكاها ومن سمعها ، لا يتخيل مدى سروره وفرحته وعظمته بهجته عندما تفضي إليه اسرار لم يسمعها غيره ، أن يمشى في شارع الصليبية ، سوق الليمون تحت باب الفتوح ، حوله الخلق ، باعة ومشترون ، في عقولهم مشاغل الدنيا الصغيرة والتافهة ، أما دماغه هو فيعج بالأسرار ، وعندما يجلس بأحد الدكاكين ، يشرب الحلبة أو السحلب المخلوط باللبن ، يرى نفسه وقد قضى الليل كله في قصر أمير كبير ، لم ينام ، لم يأخذ راحته وحقه في النوم ، يضطر مع هذا إلى الذهاب إلى ديوان المكاتبات ، يصوغ الفتاوى والحجج ، هنا ، يشعر بعينيه مجهدتين فعلا ، بل يتقاعب عدة مرات ينظر إلى المحيطين به ، يلحظون كسله وتراخيه ، لو سألوه فسيوضح لهم فورا طوال الليل يجالس الأمراء ، ينادم الكبار العظام ، فيعذرونه ، ينتهزون لحظات راحته فيسعون إليه ، يطلبون منه رفع أمرهم إلى نوى الشأن الذين يعرفهم ، يرجونه في الوساطة وقضاء شئونهم ، فهو طيب القلب لا يرد محتاجا عن بابه .

تتكرر عنده الفتاوى التي يعمل في صياغتها ، يضيق بطلبات عبد البر أن يسرع ، يرى نفسه داخلا على الشيخ عبد البر قاضي القضاة ، يقف أمامه ، عبد البر تأخذه الدهشة ، ما الذي غير حال مستخدمه ، نظراته جامدة ، عمامته كبيرة ، عطر وطيب يفوحان منه ، بهدوء يميل عليه الشيخ ريحان يطلب منه ببساطة الا يتعجله ، حسه منخفض ، لا بل مرتفع ، أبدا الأفضل أن يكون منخفضا واثقا ، الفاظه بليغة ، سيقول لعبد البر أنه يطيل السهر مع الأمراء ، أنه من خاصة الأمير بكثر ، ونديم منطاش ، ومستودع سر الأمير طومانباي نفسه ، أما الأمير تمرغا فلا يتوكأ إلا على كتفه ، سيفزع عبد البر ، تغشاه رهبة ، يخشى على نفسه ، يأمر الشيخ ريحان بأن يعمل على مهله الا يتعجل أبدا ، أن يحل ويربط على هواه ، ليس بعيدا أن يأمر السلطان بخلع القاضي عبد البر ، فيسعى عبد البر إلى الشيخ ريحان ليرجوه أن يشفع له عند السلطان حتى يرده قاضيا .

حدث حوالي عام ٨٧٦ هـ ، وعمر الشيخ ريحان حوالي خمس وعشرين سنة ، أن عرف الطريق مع أحد أصحابه إلى بيت « سنية إبنة الخبيرة » قرب القسطنطينية ، هناك قدمت له صبية فلاحية إنقطنها من الطريق وعلمتها عمل الفاحشة ، والثابت فعلا أنها المرة الأولى التي ينام فيها الشيخ ريحان مع امرأة في حياته ، في أول مقابلة ، قال انه يشغل وظيفة خطيرة ، وظيفة وثيقة الصلة بالأمير أقبغا ، سألتها الصبية من هو أقبغا ؟ فقال « أقرب الناس إلى السلطان ، فضربت البنت صدرها الجامد الناهض وشهقت « يا خراب أسود » ، ضم شفثيه حنرها من البوح بهذا السر

إلى صاحبة البيت ، رقيبها ستطير عندئذ ، وظيفته السرية ، تمنعه من الظهور علانية مع الحريم ، أو السعى إليهن ، وامرأة أى أمير أو كبير فى تناول يده ، بل يوقن أن الكثيرات منهن يرغبنه فعلا ، لكنه لا يستطيع ، وظيفته السرية تحوشه عن هذا ، وقبل الوظيفة هناك ضميره ذاته ، أثناء حديثه توقف مرات ، هز أصبع يده اليمنى محذرا إياها من البوح بما يقول إلى نفسها حتى ، خافت الصبية ، صدقت مقالته ، خاصة أنه أعطاها بقشيشا محترما تنذر تناولته من أى واحد يخلو بها .

« فى كل يومى اثنين وخميس يمضى الشيخ ريحان إلى الفسطاط ، ومرة وجد الصبية متغيبة ، رفض مضاجعة أخرى برغم تحايل المعلمة سنية ابنة الخبيرة ، عاد ليجد الصبية متزينة فى انتظاره ، عندما تجرد من ثيابه ، تمدد بجوارها خبط جبهته بيده ، قال .. ياه .. خافت الصبية ، مالك ؟ أجاب ، نسيت أمرا مهولا كلغنى به الأمير منطاش ، يسكت لحظات ، مجرد سماعها هذه الأسماء ، طريقته البسيطة فى النطق بها ، تخشى وتخاف ، يتأسف قائلا والله أخطأت فى حقه ، منطاش كريم معى جدا ، جدا تصورى ، ويراعى حقى لكننى لا أعيره التفاتا ، لا أهتم به ، لكنه يجب أن يعذرنى ، مشاغلى لا تحصى ، أى والله لا تحصى .. وينفخ بفمه ، يضرب ركبته بقبضته ، الصبية لا تعرف ما تقوله ، وعندما تأخذها الحيرة تزحف إليه تلتصق به تقول « لا عليك يا حبيبى ما تغتم يا حبيبى » مرة ثانية يتمدد جوارها راضيا يضحك « يا سلام على طومانباى .. أما ولد ، ، تتسع عيناها ، يحكى عن الأمير الدوادار كأقرب الناس إليه ، يذكر اسمه بلا تفخيم أو تعظيم ، تسأله « ماله يا حبيبى ؟ » ، فيقول « سهر معى طوال الليل .. يا سلام .. أما حكايات غريبة غريبة جدا ، يصمت لحظات ، يقول ، لكننى لا أعرف كيف جرى هذا ، كيف ؟ » ، وفى مرة تلقى حلما ثديها الأيسر ، يمر على حوافه بشفتيه ، عادته المفضلة ، قالت الصبية وجسدها يختلج : سنية ابنة الخبيرة تعاني ضيقا وعسرا من متولى الحسبة - كان فى هذا الوقت على بن أبى الجود - قرر عليها زيادة فى الضريبة ، وتمنت لو أن الشيخ ريحان تحدث إلى أحد أصحابه المقربين الأكابر العظام ، هنا انتفض الشيخ ريحان عاريا ، وعرق الغضب يطق من جبينه ، « أنت مجنونة .. ضاعت رقيبنا الآن ، هل قلت شيئا يا مجنونة مما أقوله لك لابنة الخبيرة ، إرتعش جلدها وقففت ، أقسمت بحياته عندها ، بالبيت ، برحمة أبيها الذى لم تره قط إنما الصحيح أنها فكرت فيه ، هى لا تعرف من الأكابر غيره ، وبكت بين يديه ، حتى هدأت ثورته ، وخفت حديثه ، فقال أنا لا أمانع ولو كان الأمر معقولا لا يمسنى ، لكننى ماذا أقول لأى أمير من أصحابى ؟ هل أقول له إننى أريد إنصافا لابنة الخبيرة .. سيسألون ، وما الذى عرفك بلبنة الخبيرة ؟ أه .. عندما يتعلق الأمر بالعظام الأكابر أصحابى لابد أن توزن الأمور .

ألا تؤخذ كما هي .. ، وبقي الشيخ ربحان مبلبل خاطر ، عندما يقابل ابنة الخبيرة ينظر إليها ، يحاول تلمس أى دلالة على معرفتها بما يقوله ، يخشى مفاجاته بسؤال ترجوه فيه التوسط لدى الأكابر ، ويقلت لسانها بحديث أمام المترددين عليها ، يفهم منه شيء عن أحاديثه المستمرة إلى الصبية ، عرف منها شخصيات بعض المترددين هنا ، موظفين فى دواوين الأمراء عند المحتسب ، مشايخ ، بعض الأمراء الصغار يجيئون خفية .

حدث فى هذه الفترة أن استدعاه القاضى عبد البر ، وعندما مضى إليه دارت فى أسه الدوائر ، ربما وصلت أخبار أحاديثه إلى عبد البر ، سيجازيه القاضى مرتين .. الأولى لذهابه إلى بيت من بيوت الخطأ ، الثانية لكثرة تخريفه ، راح يجهز ما سيقوله ، سيرجو القاضى العفو عنه بسبب التردد على البيت فاللسن لا ترحم ، لكن ماذا يقول عن الأحاديث ، واختلاق الحكايات حول الأمراء ، قابله عبد البر مرحبا ، ابتسم فى وجهه ، طيب خاطره ، وهذا ما لا يحدث أبدا ، فعبد البر عبوس دائما ، فظ اللسان ، غليظ القلب ، أخبره بمجيء الأمير سلامش الجمدار المختص بإلباس السلطان ، إذ يقف السلطان ويوليه ظهره ، يفرد ذراعيه فيقوم سلامش بإدخالهما فى كم الرداء ، ثم يسويه ، وهذا منصب لا يصل إليه إلا صاحب ثقة عظيمة توفر الاطمئنان للسلطان ، بحيث يدير ظهره إليه ، ويسلمه نفسه ، قال القاضى عبد البر ، الأمير سلامش طلب منه شخصا موثوقا به ، ليحرر مكاتباته ، وبحث القاضى عبد البر كثيرا فلم يجد أخلص من الشيخ ربحان ، لكن حتى يتم الأمر ، عليه أن يبحث عن عروس صالحة يتزوجها ، فالأمير سلامش لا يقبل عزبا فى قصره ، وقال القاضى عبد البر : ثم إنك لست صغيرا يا شيخ ربحان .

قلم الشيخ ربحان وقبل القاضى عبد البر ، مشى فى الطرقات يرقص فرحا وطربا ، أخيرا سبرى الأمراء والضيوف ، يحرر المكاتبات ، يطلع على أسرار الدولة ، تمنى لو قال هذا للصبية لكنها ستتعجب ، ألا يخبرها دائما بقربه والتصالقه بالأمراء والأكابر ؟ !

مضى فى تفكيره وفتنذ إلى قصر الأمير سلامش ، بلغ كثيرا فى إظهار علامات الأدب واللياقة ليوحى أنه خدم طوال عمره فى بيوت أكابر ، انتظر مقابلة الأمير ، لم يلتق به ، قال لنفسه ربما انشغل الأمير بشيء عنه ، وعندما سأل نائب الأمير عن زواجه أخبره ، تزوجت منذ أسبوعين ، وفعل كان قد مضى إلى أحد أقاربه واسمه المعلم محمود بن سلامة ، أحد تجار العدس فى أثر النبی يمتلك ثلاثة مراكب سارحة فى النيل تنقل له المحصول من الصعيد ، غير القل والأزيار (مات عام ٩٠٩ هـ) المهم أثنى المعلم محمود على الشيخ ربحان حافظ كتاب الله وحارس البخارى ، وبعد أسبوع دخل على ابنة المعلم فى داره بالفسطاط حتى يبحث له عن بيت يستقر

به ، وصار المعلم يقول : زوج إبنتي رئيس عند الأمير الجمدار .
في قصر الأمير سلامش اتخذ الشيخ ريحان حجرة صغيرة في مبنى منعزل عن بناء
القصر الأصلي ، حجرة مظلمة تضاء بقنديل ليلا ونهارا ، ثاني وثالث يوم لم يقف
الشيخ بين يدي الأمير ، كذا الأسبوع الأول ، والثاني والشهر الأول والثالث فعلا
عدم مثوله بين يدي الأمير قط .

عندما يلتقي به المعلم محمود بن سلامة يسأله عن صحة الأمير الجمدار
وأحواله ، يهز يده ، يقول : والله .. صحته بالأمس كانت على غير العادة .. صحا من
نومه فوجد عينه اليمنى ترف .. وهذا عنده فال سيء ففضى بقية يومه مفتما .. ،
يبدي المعلم جزعا ، يزعم بصوته ليسمعه زملاؤه التجار يتحدث عن أمير كبير ،
يتسائل : « ألم يقصده الطبيب ؟ » يقول الشيخ ريحان : وجاءه وفصد دمه .. هنا
يطلب المعلم محمود - بصوت عال - من زوج إبنته أن يبلغ سلامه إلى الأمير ،
أن يخبره بدعواته الصالحات من أجل شفائه ، فيهر الشيخ ريحان رأسه ويجيبه -
بصوت عال أيضا فهو يعرف قصد المعلم : سأقول له .. والله حملني سلاما خاصا
إليك .. أي والله .

كثيرا ما يجيء إلى المعلم ، يزعم من بعيد : الأمير سلامش يهديك سلام
الإسلام .. ، يشرق وجه المعلم ، يبرم شربه ، يتخلل لحبته بأصابعه ، « والله
عندما ترى الأمير أبلغه سلامي » .

بدا هذا القول يؤلم الشيخ ريحان ويورثه حسرة ، لم ير سلامش بعينيه ، حتى
نائبه لم يلتق به إلا مرة واحدة ، عندما تسلم وظيفته ، كل المكاتبات تجيئه يوميا مع
أحد الطواشية ، والثابت فعلا أنه لم ير الأمير قط حتى عندما أنجب إبنته الأولى
« سماح » (أنجبها عام ٩٠٢ هـ بعد ثلاث سنوات من زواجه . لم ينجب بعدها ،
وهذا أمر يتكرر وقوعه بين قلة من الرجال) بل أرسل إليه الأمير سلامش مع نائبه
دنانير وكسوة (بالضبط عشرة دنانير أشرفية وقماش اطلس ، وقميص زركش لطفلة
صغيرة) .

بعد مجيء سماح بعامين (٩٠٤ هـ) غضب مولانا على الأمير سلامش - وهذه
واقعة معروفة - عندما لم يحكم لف الشاش حول العمامة السلطانية الكبيرة مما أدى
إلى فكه لحظة جلوس مولانا السلطان إلى قصاد الحبشة مما أوقعه في حيرة ،
وتسبب في حصول كسفه للسلطان مما جعله يستدعي سلامش وحقق معه ، وبطحه
أرضا وضربه حتى كاد يهلك لظنه أن واقعة عدم إحكام لف الشاش أمر مدبر ، وأمر
بالقلعه في المقشرة ، ولا يزال سلامش محبوسا حتى الآن بعد مضي ما يقرب من
عشرين عاما على الحادثة .

يشاء حظ الشيخ ريحان ، أن الأمير سلامش أرسل - قبل حدوث واقعته - إلى الأمير طغلق ليحرر مكاتيب صادرة إلى بلاد اليمن ، واثناء تواجد الشيخ ريحان عنده ، وقعت حادثة الشاش ، هنا عرض عليه طغلق البقاء عنده ، وارتضى الشيخ ريحان بالحال ، وتزايد سروره ، لاتصاله مباشرة بطغلق ، وخروجه معه أكثر من مرة . وأفضى إلى المعلم محمود وبعض خاصته أن بعض أصحابه من الأمراء والكبار أسروا إليه بما سيحدث مع سلامش ونصحوه بالابتعاد عنه ، وتوسطوا له عند طغلق الذى لم يكن غريبا عليه ، فأخذه عنده ، وعند ركوبه مع طغلق يحاول الاقتراب منه ، ويجول بنظراته فى الطرقات متمنيا أن يراه أحد ممن يعرفهم ، وهو معتظ بغلة بسرج عال فى موكب طغلق ، وهذه مرتبة قل أن يدنو منها إنسان . منذ سنوات جاء من بلدة جهينة ، شاب صعيدى يمت إلى الشيخ ريحان بقرابة بعيدة ، أقام فى بيته فترة من الزمان ، حتى التحق برواق الصعايدة ، وللأمانة فلا نقطع بخلوه إلى سماح إبنة الشيخ ريحان خاصة أنها وقت وصوله لم تتجاوز سن العاشرة .

طبقا لما هو تحت بصرنا وسمعنا حتى الآن لا يمكننا تحديد التاريخ الذى بدأت محبتها تدب فى قلبه ، ولكن بعد تحليل طريقة مشيته وأحاديثه معها يوم شم النسيم فى حدائق بولاق ثبت عشقه لها والأيام لا تزيده إلا وجدا وصليبة مع أنه لا يراها إلا نادرا جدا (وهذا نثق به) .

الثابت أيضا جهل الشيخ بما يكنه سعيد لإبنته ، وجار الآن لم تفاصيل أدق تصل بنا إلى لب الحقيقة وجوهرها الخفى .

(ديوان سر كبير البصاصين ونائب المحتسب)

ونائب والى القاهرة

« ختم »

(زكريا بن راضى)

نداء

يا اهالى القاهرة
يعلمن عبد العظيم الصيرفى
عن قرب وصول
الزيفى بركات بن موسى
متولى حسبة الديار المصرية
ووالى القاهرة
بعد عودته من بلاد الصعيد
فعلى اصحاب الدكاكين
والمغنين
واصحاب الربابة ، والرقاصين
الخروج لمقابلته
عند دخوله من الجيزة
ظهر يوم الثلاثاء بعد غد
ومن تخلف ، وقع عليه عقاب شديد
★ ★ ★

كوم الجارح .

مسافات لا أول لها ولا آخر في عيني الساعي ، والمسافر على قدميه ، زاده عشق الذات العليا ، وجد يشده إلى أقاصى الأرض يعبرها متاملا العبر ، يرثى المبتدا والخبر ، ما أوجع احزان القلب فى بيوت خراب ، فى بلاد عامرة نسي أهلها الأول والآخر ، ما أعذب وقفة الملاح عند رأس قارب مفرود القلوع ، الكون بحر ، كله بحر ، المركب يميل ليعتدل ، يعتدل ليميل ، يزعق الملاح زعقة نابعة من فص الحنجرة ، اعمق الأصوات ، خلاصة الآمال ، ونهاية الآلام ، صرخة ملاح فى وجه خلاء لا برله ، ولا يابسة تبدو ، لا يذكر الشيخ أين غالب الدوار ، احاط فمه بيديه ، ومن شرايين القلب ، من حدقتى العين ، من خلاصة سر الكبد ، من لوعة المشتاق إلى آخر الأفق ، من سنى العمر ، من بئر القلب الدفين ، من عذابات وجد قديم ، من بقايا عشق يتيم ، صاح زعقة واحدة ، ألغت الحشا ، خففت حمل البدن ، ولاح سر الباطن ، وكادت الحقيقة الأولية ان تفصح عن نفسها ، وسوست النجوم ، وألقت السماء دمعاً ضئيلاً .

يا واحد .. يا احد .. أين انت .. نجنى ..
نجنى ..

لا يذكر اسم البحر ، عند طوافه بالدنيا لا تعنيه معرفة أسماء البلاد ، الدار كبيرة ، لا عرض بلديا لها ولا طول ، وتعليل النفس بالوصول إثم عظيم ، لا هذا العام ، ولا العالم الذى يليه يحمل البشرى ، فى زعقته طرح السؤال ، عبر البحار السبعة ، الأراضى السبع ، تجاوز قاف ، واق الواق ، جزائر النساء ، ونفذ عبر بطن الحوت ، يرى بعيني وجده سدرة المنتهى ، غاية الأمل ، صوته الضعيف المخزون سمع هناك ، أه لو حوله بحر الآن ، أه لو يقف فوق الصلارى الكبير يزعق ملقاعا ، تتجسد صرخته فى الهواء حبلا طويلا من هيام ووجد لكنها الآن همسة ، حيرة مقطرة ، استغلة نجاة يهمس بها طائر ضعيف الجناحين ، هاجر وحيدا فارتماى بلا رفقة ، لحظات كثيرة رآها فى حيلته ظن الخلاص وشيكا وما يفصله عن الحقيقة الأولية ، خطوات قصار ، لكن الأحداث تعيل فتعكر صفو الرؤية ، تחדش حياء النفس ، عبثا ، تلوح الأنوار الإلهية فى زمان كهذا ، محال أن يرق الجسد حتى يخف ، يشف ، الآن يرى أيامه البعيدة ، عندما رأى العالم مال بخده على الحجر الأسود ، مداعب النمر الوحشية ، مص الرلظ مقلما رشقة رطوبة تنزع حراشيف العطش عن حلقه ، حديثه إلى برابرة غزاة يحلون لحم الإنسان ، أه لو يودع الثبات إلى الحركة ، يترك الركود

إلى ديمومة لا تنتهي ، طوال عمره لم تلجئه الأحداث إلى الخلوة الطويلة وهامى
ذى سنوات قليلة فى موطنه تدفعه إلى حفر سرداب حفره بأصابعه ، فيه يغمض
عينيه عن رؤية السجن ، يسد أذنيه عن أصوات البشر ، فى أول العمر يكشف
الإنسان عوج الدنيا فيحاول تقويمها ، لكن فى آخره ، عندما يبدو كل شيء على
حاله ، ولا أمل فى تحول ، فى انقلاب ، حتى أولاده لا يتركهم ، عندما يربط ظهر سعيد
البلكى ، يراه واحدا منهم ، لم ير أحدهم شابا ، فى أول خطى الحق تزوج فى
خوارزم ، لم يكمل العلم ، إنما رحل فى وجه الجبل مخلفا وراءه أثرا ، لا يدري ، هل
جاء الدنيا أولا ؟ فى مدينة بشرق الصين ، فى قرية فوق جبل شاهق العلو فى الهند ،
فى جزيرة صغيرة فى المحيط الشرقى الكبير ، كل ساكنيه أربعون نفسا ذكرا وأنثى ،
لم يضم واحدا من بنيه إلى صدره ، لا يعرف تعدادهم لكن قلبه خفق بحبهم ، بأى
أرض مر عنده ثقة ، أنه عالم بأحوالهم يعرفون بأى أرض هو ، فالعالم كله واحد ،
ربما رأى أحدهم فى أسواق فارس المزدحمة ، فى ميناء البصرة ، فى ربوع كالزخستان
لا يعرفهم ويعرفهم ، لولا أن الدمع جف وهجر المأقى من زمن لشارك سعيداً البكاء ،
أول مرة يراه بلكى ، طفل آنوه ، أمور السوء توائم متلاصقة ، تأتي مع بعضها ،
البصاصون لا يخفون أنفسهم الآن عند اقتراف أثره ، منهم من يصيح بصوت عال بعد
الاقتراب منه ، أمثل هذا يتزوج بقمر ؟ ، يسمع هاتفا ينتهك إسمها ، سماح ، يلتفت
برأسه مفزوعا ، الكون كله يصغى ، أربع مرات أرسل مقدم البصاصين يطلبه ، أوامره
لا ترد ، أما زكريا بن راضى ، الآن أمام المصلين بجامع شيخون ، يقرأ الفاتحة
بصوت عال ، الناس تقبل يده تبركا ، تيمنا ، ومن القلعة ، رأس الدولة ، نخاعها
الأمين ، تسرح البطائق إلى بلاد ابن عثمان ، عرف ما يجرى فى السر ، ما من همسة
أو كلمة تقال ، إلا ويرسلها خاير بك وجان بردى الغزالى ويونس القاضى إلى ابن
عثمان ، ليلة زواج سماح ، طاف سعيد ، طير لم يكتمل ذبحه ، كل هؤلاء الأكابر
جاءوا إلى حفل العرس ، العريس ابن أمير كبير ترك الخدمة ومات منذ عامين ، شاب
وأمامه مستقبل ، أحاطوا الشيخ ريحان ، الدنيا لا تسعه من الفرحانة يتمازحون
معه ، يتباسطون ، والزينى بركات يمد مدة حافلة لعشاء الفرح ، أما برهان الدين بن
سيد الناس ، فهو محتكر الفول الوحيد فى مصر ، إذا سأل إنسانا قيل له ، وهل تأثر
سعر الفول ، لم يزد طفافة من درهم ، ما من سؤال صعب إلا ورده المقنع جاهز عند
الزينى ، وتبدو الأمور معقولة ، وما الإنسان إلا خلاصة زمانه ، لكن يحدث أن تتركز
خلاصة الزمان فى شخص بعينه ، يجمع الحسنات والسيئات ، الشيخ يرى خلاصة
العكارة ، عندما يثأر أشجانه للشيخ الزاهد العابد بهاء الحق علوان (لم يتوقف بعد ،
ومازال طوافا عظيما ، فى كل ليلة يذكر إسم الله كل ليلة فى موضع مختلف

بين آخرين ، السكون عند موته) ، قال الشيخ بهاء الحق كلما ظن نفسه تخفف من
الأعمال والأثقال ، يرى الوهم ، كثيرا ما فكر في اعتزال الكون ، قضاء ما تبقى من
عمره في السرداب ، لكنه يلوم روحه ، كيف يحوم الأذى في أرض هي أول ما لامست
رأسه . اختارها راضيا لقضاء وقت ما قبل الخلاص الأبدى ، أن يرى البلد آمنا ،
محال ، ما يراه بسيطا كالحروف ، مشروعا كالأنفاس ، في حقيقته محال ، هز الشيخ
بهاء الحق رأسه .

« كلنا نحترق .. أنت في ثباتك ، وأنا في طوافي ، لكن إن مالت الروح عما رماه بها
الزمان فقل علينا السلام .. »

★ ★ ★



● رسم : لودج دويتش

السراقة الرابع

وفي يد الزيني ولشهاب زكريا
أمورًا شتى !

زكريا بن راضى :

سرح البريد بالبطائق والرسائل ، الى بلاد المغرب ،
وصاحب فاس ، وملك الحبشة ، وامير البندقية ، والهند ،
والصين ، فيما عدا دولة ابن عثمان ، الامور الآن لا تسمح
لكبير البصاصين هناك بالمجيء الى القاهرة ليحضر
اجتماعا كبيرا يضم كافة كبار البصاصين العتاة فى هذه
البلاد ، إذ يجتمع شملهم هنا ، يتدارسون الامور
والواجبات ، يتبادلون ما جرى لكل منهم ، ستتحدث كتب التاريخ عن هذا الاجتماع ،
سيذكر فى سطر ، ما يدور به ، سيظل خفيا مستورا ، لكن آثاره ستعم العالمين .
لا يعلم اخبار الاجتماع فى مصر إلا إثنان ، زكريا بن راضى ، والزينى بركات
ابن موسى ، صاحب الفكرة ، لأول مرة يحدث امر كهذا ، لم يخف زكريا فرحته ،
الزينى ألمح الى انه سيتعرف عند جلوسه إليهم ، طريقة كل منهم ، وأسلوبه ، طبعاً
لن يقول أى واحد منهم عما يتبعه ويطبقه ، على زكريا استكشاف خباياهم بما يروق
له من طرق ، حتى إذا ما دب العداء بين الديار المصرية وصاحب أى مملكة منهم ،
يجد زكريا نفسه عليماً بأدق اسرار البلاد التى يعمل فيها ، مطلعاً على طريقة
بصاصيها ، مما يتيح له النفاذ الى ادق الامور ، وهو بمجلسه هنا ، بالقاهرة ، عندما
سمع زكريا افكار الزينى تساعل ، من أين له هذه الخواطر ؟ لكنه قال بعد إطراقة
قصيرة ، هل تعرف .. منذ عامين انتويت تنفيذ هذا . ان اجمع كبار البصاصين فى
العالم ، لكن المشاغل الهتني ، خبط الزينى ركة زكريا ، طبعاً .. امر كهذا لن يفوتك
ابداً .. الآن يطوف الزينى بلاد الصعيد ، ينزل كل قرية فى جمع من رجاله الأشداء
ونوابه حاملاً الميزان والصنج . الزينى الآن يحتسب على الديار المصرية كلها ، يقيم
العدل فيها ، اخبار جولاته تصله يوماً بيوم ، نجح فى ضم رجلين من رجال الزينى ،
لكنه لم يعثر على مخلوق واحد من بصاصى الحسبة ، بعد جولة الزينى فى
الصعيد ، سيسافر الى دمياط ، من شهور تعهد للسلطان بدفع مبلغ معين من المال ،
عن دمياط والمنصورة ، لا يذكر زكريا مقداره الآن ، إنما فى حدود ثلاثين ألف دينار ،
بعد التعهد توجه عدد من الأمراء الى الزينى ، قالوا فيما بينهم ، لو نجح الزينى
وجمع الثلاثين ألفاً لأظهر لنا السلطان عين الغضب وقال : انظروا الى ذمم المسلمين

وكيف تكون ؟ ؟ قبلوا الزينى ، ابدوا إشفاقهم عليه ، دمياط والمنصورة لا تدر أكثر من عشرة آلاف دينار سنويا ، كيف الحال لو انتهى العام ولم يدفع الزينى مال السلطان . ثم ما الذى يدخل جيبه ؟ هل يرهق روحه ؟ يطارد الفلاحين عندما يسافر ، ويصرف ، ويشنق أرواحا ، مقابل ماذا ؟ رد الزينى قائلا لن أقتل ولن أشنق أى إنسان لأنه تأخر فى دفع ما عليه ، إنما ساعذر كل مخلوق ناعت به الحال ، سكت لحظات ، قال أعاننى الله على جمع مال السلطان وإذا كنت دمياط لم تدر فى جميع العصور أكثر من عشرة آلاف دينار ، فساصلح أمورها ، واستخرج منها ما لن يتخيله انسان ، خرج الأمراء من عنده وهم فى غيظ عظيم ، أرسل زكريا خفية الى كل منهم ، لن ينسى ما قرره يوما ما قط ، ألمح اليهم بنية خبيثة يضمورها الزينى ضدهم ، هاجوا وطلعوا الى السلطان ، إتكوا عليه فى الحديث ، ابدوا تعصبا ضد الزينى ، لكن السلطان خاطبهم بكلام يابس ، قال .. انتم هكذا إذا ما ظهر انسان يبغى العدل ، حاربتموه ، ولما زادوا عن حدهم قام الغورى هائجا ، رمى العمامة ، قال : « والله أخلع نفسى وتسلموها انتم خربة بورا ، الخزائن خلوية وابن عثمان متحرش بنا ، العامة لا يهداون ، وتجار الفرنجة ما غادوا يعبرون من الاسكندرية الى دمياط ، خسرونا دخلنا ، وعندما يظهر انسان يتفنن فى جلب المال ، نقف ضده ، ونمانعه ، والله هذا كلام لا يرضى مؤمنا ولا كافرا ، زكريا نفسه حار ، كيف يجمع الزينى ثلاثين ألفا من دمياط والمنصورة ، فى الليلة نفسها قرر ان يمد مقدم البصاصين بدمياط برجال أكفاء يرصدون اساليب الزينى ، وما يستحدثه من بدع ، فى الشهور الأخيرة ، لا يتكر زكريا إعجابه الخفى بخطط الزينى وتدبيره ، زكريا يقدر الناس حق قدرهم ، مهما بلغ كرهه لبعضهم ، كبير البصاصين فى بلاد ابن عثمان مثلا ، عدوه الاول الآن ، لم يره قط ، لكن عنده أوصافه كلها ، ومزاجه ، درجة عشقه للغلمان والنساء ، قدرته على اتخاذ القرارات فيما يتعلق بالمصائر ، فى ديوان السر دفتر كامل عنه ، كان زكريا صاحبه دهرا طويلا مع انه لم يره ، زكريا يراه بصاصا من أعظم البصاصين قدرة ، منذ عامين انشا فرقة خاصة ، بعضهم يتحدث بلسان العثمانية ، كانهم ولدوا فى القسطنطينية نفسها ، قسمهم الى فروع ، منهم من اختص بتاريخ أبناء عثمان وامزجتهم واحوالهم ، آخر تخصص فى امور الجيش العثمانلى وما يستجده من اسلحة ، زكريا يقدر تماما كبير بصاصى الدولة العثمانية خاصة بعد ثبوت امر قاطع كحد السيف وهو اتصال عدد من امراء المماليك بدولة ابن عثمان ، زكريا عندما علم بالأمر انزعج انزعاجا شديدا ، ليس لوجود ممالك يتصلون بابن عثمان ، هذا طبيعى ، سهل اكتشافه ، وإن لم يستطع كبير البصاصين العثمانيين هذا فلا يستحق منصبه ، زكريا انزعج لرتبهم ، منهم مثلا خيربك ، وهو من أشد الأمراء قربا الى السلطان ، زكريا لم يبلغ السلطان ، لا بد

من جمع أدلة أكثر ، أمر بفك رسائل الأمير خاير بك لكنه لم يعثر على إشارة ، إذن توجد طريقة خفية تخيب عن بصاصيه حتى الآن يرأسل بها العثمانلية ، الأدلة كلها شفوية ، حتى بعد توافر الأدلة القاطعة ، سيبقيها زمنا تحت يده ، ربما تجيء لحظة يشهرها سيفاً فوق رأس خاير بك إذا بدرت منه بادرة ، السلطان بلا أدلة ملموسة لن يصدق ، خاير بك تقرب جداً منه ، بل أعطاه ولاية حلب القريبة جداً من ابن عثمان ، لكن لا بد من التلويح لخاير بك بالأمر ، زكريا يحوم حولهم ، صحيح سيأخذون حذرهم ، لكن لابد أن يعلموا ، زكريا يعرف ويسكت ، ثمة فكرة بعيدة في قرارة العقل .. من يدري ربما دارت الأمور واعتلى واحد منهم كرسيًا ، زكريا يكره طفو الخطرة الى وعيه ، يكره ما وصلوا إليه من خيانة استأذهم ، والبلد الذي رضعوا خيره حتى صلبت عظامهم ، يقدمون ما فيه مطبوخاً جاهزاً ليأكله ابن عثمان ، هذا جرم يعلم به زكريا ، قليلة المعلومات التي تثير في نفسه شعوراً معيناً بعينه ، طالما تمنى بخول واحد من أمراء ابن عثمان في خدمته ، سيرحب به ، يجزل له العطاء لكنه بينه وبين نفسه سيحتقره ، لكن حتى الآن ، يتفوق عليه كبير البصاصين العثمانيين في هذا ، ضم من عنده أكثر من أمير ، وزكريا لم يضم أميراً واحداً مشابهاً لخاير بك وغيره ، عندما وصل إليه ما يفيد باجتماع الأمراء الباغضين للزيني ، تساعل عما يريدون ، هل يلتقون مع زكريا فيما قدره ، ما يسعى إليه بتآن عظيم ، لكن الخلاص من الزيني لا يتحقق بضربة خنجر ، ولا سائل يدس في طعامه ، ولا فرسان يقطعون عليه الطريق في الصعيد ، أو فوق مدق زراعي بدمياط ، أبداً ، الزيني تحدى عمره ، ما أسهل أن يتخلص منه الزيني بنفس الطريقة ، أمر لن تمنعه احتياطات زكريا ، عندما قرر القضاء على الزيني لم يقصد ذبحه ، قتله ، إنما الخلاص منه وهو حي يرزق ، يأكل وجباته ويضاجع نساءه ، يقتله لكن يبقى على حياته في الوقت نفسه ، هذا أشق وربما استنفد عمراً ، لكن الخلق لا يعاملون كلهم هكذا ، رجل مثل الزيني لا يجود الزمان بمثله ، زكريا يزن قدره تماماً ، يدرس أساليبه ويأخذ ما يخدمه منها ، حتى لو استعملت هذه الأساليب ضده هو ، راح زكريا يرقب الأمراء ، أطلق البصاصين في ركاب كل منهم ، كيف سيتخلصون من الزيني ، الأذان تنقل إليه أحاديث القاعات المغلقة ، العجائز يسعين إليه بالأخبار ، تزايد ضيق الأمراء عندما تسلم الزيني الأمير أردمر الصغير ، تعهد باستخراج مائة ألف دينار ذهباً خالصاً منه ، فيما بينهم قالوا ، لو تركناه يفعل ما يشاء لدار علينا واحداً واحداً ، ننقضح في عيون العامة ، وتنزل هيبة المماليك في مصر ، وتذهب حرمتهم . أيقن زكريا بخطورة الحال في الليل التالي . خرج متخفياً الى بركة الرطلى . وقتها كان الزيني يستعد لبدء رحلته الثانية الى بلاد الصعيد . عند باب الفتوح . تلكأت خطواته . كيف قرر هذا ؟

أحقاً يمضي الى الزيني يحذره من القتل ؟ يقترح عليه تغيير أماكن نومه كل ليلة في

بيت يحدده زكريا . يبت حول العيون والأرصاد . في الوقت الذي يرصد فيه حركات
الأمراء وسكناتهم . لا ينسى ما الحقه الزينى به من مضايقات . هل ضعف أمامه
الليست فرصته ؟ أبدأ هذه طريقة سريعة الخلاص اذا ما ذبحه الأمراء فسيبكيه
العامه . ويتحسرون عليه . سيخطو بينهم ميتا أكثر من خطوه حيا يرزق . عندما قام
الأمير طيغا في زمن الناصر بن قلاوون . ونادى بالعدل وصار ينصر الفقير على
الغنى . ضايق الأمراء مضايقة شديدة . دسوا له السم البطيء . لم يخف الأمر على
العامه . بكوه بكاء مرأ . لطموا الخدود . شقوا الثياب زمنا . صاروا يقولون في كل
صغيرة وكبيرة . لو طيغا موجود بيننا . حتى عندما قام كبير البصاصين في ذلك
الوقت بتكليف العلماء لوضع كتيب ورسائل تدم فيه . إزداد العامه تمسكا به .
صنعوا له بلاليق من الحلوى . تباع في الموائد ولا تزال بلاليق طيغا ترص في
دكاكين الحلوى كلما اقيم مولد لسيدنا الحسين . او سيدى إسماعيل الامباجى او
سيدى الليث او أى ولى آخر . لكن الأمراء اغبياء مناكيد لا يدركون هذا . هل الحق
الزينى ضرراً بأحدهم كما الحق بزكريا ؟ زكريا لا ينسى أبدا ليلة تجمع الأدلة القاطعة
حول امر طال تردده في قبوله . رفضه الاقتناع بصحته . ليلتها دخل عليها القاعة
مكروش النفس . مبهدل الثياب . وعندما واجهها في ضوء النهار الخائن المتسلل من
ثقوب المشربية . أيقن صحة ما تردد في الاقتناع به . عرف أنه خدع . هذا شعور لم
يطأه من قبل . حتى عندما بدا بصاصاً صغيراً ينقل كافة الأخبار . كل الأدلة لم تقنعه
لكن نظرة عينيها في تلك اللحظة أنهت التردد . ذبحت الشك . وتذكر بصاص مصر
الأعظم الكازرونى عندما أمسك بأحد أمراء الظاهر بيبرس . وفصل أعضاء عن جسمه
مبتدئاً بذكوره . اطل عذابه حتى لفظ الأمير روحه في خمسة وأربعين يوماً . بدا بحلق
شعره الناعم المتسلل كالحدق في عروقه . شوه الوجه . حتى لا يرق القلب لتضاريس
العمر البكر . أدخل سن خنجره المحمى فيها إداره على مهل . لم تتحمل فخدمت
انفاسها بعد ليلة واحدة . حزن عفى أوغل في قلبه . والحزن إذ يعرف الطريق إلى
قلب رجل مثله علامة ضعف غير مستحبة . لام نفسه إذ تسرع بقتلها . لكنها لم تحتل
قط . بالغ في تعذيبها كل لبد أن يعرف منها . أين ومتى نقذ اليها الزينى . واستطاع
ضمها الى صفوفه . أدخلها بيت زكريا قبل توليه الحسبة بأسابيع . كان لابد أن يعرف
ملكها أية أدلة على جماعة البصاصين التابعة للزينى . قال مقدم القاهرة . جماعة
الزينى هذه اما محكمة البناء بحيث لا يمكن النفلز اليها أبدا . أو غير موجودة
بالمره . زكريا يثق من وجودها . وإلا فإلى أى النفس تنتمى . وسيلة ؟ فعلا تسرع
في ذبحها . هل يوجد آخرون في البيت يسهلون اتصالها

بالزيني ، كيف كانت تنقل المعلومات الى الزيني ، لابد من رصد أهل البيت ، مراجعة
المرات التي خرجت فيها وسيلة ، محاولة التعرف على بككين القماش والعطور التي
قصدها ، مع أي الباعة تحدثت ؟ أمور كلها سيتابعها زكريا بنفسه ، أمر « وسيلة »
يجب ألا يشيع ، سبة في تاريخه . سيصير نادرة لبصا صي الأزمنة المقبلة ، أه لابد
أنها أخبرت الزيني بطريقة نومه معها ، قشعريرة سرت في ظهره ، كأن الزيني ثالثهما
في كل خلوة ، عيناه اللامعتان تتأملان مؤخرته العارية ، من يدرى ، ربما واحدة من
حريمه الآن على اتصال بالزيني ، كلما خطر له هذا لا يقربهن . يتراجع عنهن ، هل
الحق الزيني اذى بأحد مثلما الحق به ، مع هذا يطرق بابهُ ليخبره بما دار بين
الأمراء ، ليحميه ، عندما يقدم على حمايته يسن نصلا خفيا ، نصل لا يفتنى ، الى
قلب الزيني ، قلبه الزيني بذراعين مفتوحتين ، بدأ الحديث عن أمور تحدث في
الأزهر ، مجاورون كثيرون يجهرون بكلام في حق السلطان ، بل يتحرشون بسمعة
زكريا والزيني نفسه ، قال الزيني « سأرسل لك أسماء المجاورين المشاغبيين ، وبهذه
المناسبة ما أخر أخبار هذا الولد .. اسمه . قال زكريا (سعيد الجهيني) . صاح
الزيني « تمام . تمام .. » ابتسم زكريا « لا تفوتنا حركاته ، نحن أدري به من نفسه ،
بعد زواج حبيبته كان حزينا جداً ، قلنا إنه سيلقى نفسه في النيل ، أو يشرب فصا
ساماً ، ثم بدأ يكثر من الخلوة الى نفسه في مقهى حمزة ، أحياناً يجلس معه واحد
الزيني « منصور ؟ » قال زكريا « منصور الركليبي ، عندي معلومات كافية عنه ، إنه
أكثر تعقلا من صاحبه ، ويجيء منه الخير .. » أشار الزيني بيده « المهم .. لنرجع
الى الولد سعيد » قال زكريا « إدمان الدخان ، والمشروب الجديد الذي وصلنا من
اليمن .. القهوة ، وبعد زواج حبيبته بشهور بدأ يتردد على بيت سنية إبنة
الخبيزة .. يروح هناك كل يوم ثلاثاء ، ولا ندري السر في هذا » مال الزيني وأسند
ذقنه الى يده ، « أكثر من إطلاق رجالك في أثره بحيث لا يكون الهدف رصد حركته ،
إنما إشعاره أن هناك من يرصدها .. » هز زكريا رأسه « فعلنا ما هو أكثر .. أمرت
رجالي باقتفاء أثره ثم النداء باسم سماح بصوت عال ، كاد يجن .. » ضحك الزيني
« عال .. عال .. وأخبار الصلاة ؟ » ابتسم زكريا ، « يدى قبلة الشفاه .. » تزايد ضحك
الزيني ، إسمع يا زكريا .. لابد أن تحتل مكانة في قلوبهم أكبر ، غدا اركب حصانك ،
دع رجلا من رجالك يرتدى ملابس فلاح ، وآخر من رجالك في ملابس مملوك ، ليضرب
الثقل الأول ضربا فظيعا ، وطبعاً يتصاف عبور موكبك هنا ترجل أنت أنصف الفلاح
واقبض على المملوك ، أكثر من أشباه هذا يحبك الله الى قلوب الخلق ، وعندما يصل
البصا صون يجدون لأول مرة في تاريخ الإنسان بصا صا عظيما لا يتقن عمله فحسب
إنما يحبه الخلق ويحترمونه ، هذا يساعدنا في نشر العدالة وإقامة الميزان .

سكت زكريا ، الفكرة أعجبته ، كاد ينسى ما جاء من أجله ، هل يدرك الزينى غرضه
فأثر شغله بالحديث ، هل يؤجل الحديث عن الأمراء ، وإذا جهل الزينى قصة مجيئه
سيضطرب ويحار ، ويتساعل عن السبب فى مجيء زكريا ، تأخذه ظنون هنتى ، غير
أنه قال فجأة بعد لحظات صمت أثقلها ضوء خافت من شمعدان وحيد ، أنت يا زينى
ستقتل .. ، ، أصغى الزينى ، بعد يومين ، عندما تجول زكريا فى حديقة بيته ، تراءى
له وجه الزينى ، ثم قيامه المفجئ ، عنقه لزكريا ، لمح فعلا دموع القاتر فى ركنى
عينيه ، قال « مثلى لا يمكنه العيش بدونك يا زكريا » ، فى البيت لاحظ زكريا ميلا خفيا
الى الزينى ، خاصة بعد قبول الزينى الذهاب الى المواضع التى حددها زكريا ،
ونومه تحت حمايته ، لكن ، هل يصفو قلبه تجاه الزينى ، أبدا . الاستسلام
او الرجوع عن القرار القديم مذبحة يعدها زكريا لنفسه ، حتى يؤكد لنفسه ثباته على
قراره القديم ، بدأ فى استنبات بذور مشروع قديم مدفون فى عقله ، ارسل فى
استدعاء « أبو الخير المرافع » ، أبو الخير بصاص قديم عمل زمنا فى أقصى
الصعيد ، منذ أيام وصل القاهرة ، يقول متباهيا ، فى حيلتى خربت عشرات البيوت ،
هدمت عائلات ما ظن احد قط أنها ستهدم ، إذا حام أبو الخير حول إنسان فلا بد أن
يطرحه أرضا ، خاصة إذا وصل الى علمه استقرار أمر هذا الانسان أو فرحته بعياله
وامراته ، يهوى إحالة الفرح حزنا ، والسرور قهرا ، والغنى مذلة ، دعوب فى اغلاق
البيوت وإفساد سعادة الناس وفرحتهم ، يرقص طربا لحظة طلاق امرأة ، زكريا يتأمل
وجهه المسحوب بحديثه ، ينظر الى تقوس ظهره ، عيناه تنظران الى فوق دائما ، من
لحظة الى أخرى يدفع أبو الخير الهواء الى أنفه بقوة ، كأنه يعانى ضيقا ، يتساعل
عما سيحدث فى اللحظات التالية ..

★ ★ ★

نداء

يا اهلى القاهرة ..
نامر بالمعروف وننهى عن المنكر
ينهى اليكم
الزيني بركات بن موسى
متولى حسبة الديار المصرية
ووالى القاهرة
والمتحدث عن الوجه البحرى كله
انه سيخطب يوم الجمعة
ويكشف للخلق فى اركان الارض
حقيقة الحال ، وسر ما قبل وما يفل
فاذا شئتم الاطلاع على الحقيقة
فلذهبوا الى الجامع الأزهر
يوم الجمعة
بعد الصلاة ..

□ □ □

من مشاهدات الرحالة البندقي ، فياسكونتي جافتي ، الذي وصل القاهرة للمرة الثانية عام ٩١٧ هـ وأقام بها ثم رحل الى الشام وبلاد الحجاز ، ثم عاد الى القاهرة ، وأقام بها ، وفي هذه المرة كان قد تعلم لغة اهل البلاد ، فلم يعد بحاجة الى مترجم عربي .

★ ★ ★

« لم ارتد ملابس تاجر تركي ، خاصة ان الاهالي والشرطة يتعقبون كل عثمانى ربما امسكوه ، يسلمونه في احسن الاحوال الى كبير بصاصى الدولة ليعاقبه عقابا مريرا ، ليقر اى معلومات كلف بجمعها وإرسالها الى ابن عثمان ، نزلت ممسكا عصا قصيرة ادفع بها اذى الكلاب عنى ، رايت المدينة تغلى . من النادر جدا تواجد الاهالي خاصة النساء بعد العشاء فى طرقات المدن الشرقية خاصة القاهرة التى يشرف على نظامها رجل قوى ، متمسك بالدين وفروضة ، له هيبة عظيمة عند الناس ، وهو محور هذا الغليان ، لا اقصد الزينى بركات . لم يعمر رجل مثله فى وظيفته مع ان الأوضاع هنا سريعة التقلب ، وهناك من يتولى منصبا فى المساء ليخلع فى الصباح ، رايت المشاعل معلقة امام الدكاكين فقط ، رايت عجوزا يجلس بجوار جدار قديم ؟ اراه فى الليل والنهار ، لا يرعش طرفا . كانه بروز حجرى على هيئة إنسان واذكر اننى رايت فى زيارتى السابقة ، لا يتغير ، بودى لو ارقبه ، اعرف متى ياكل ، متى يفك قبضته عن العصا ، امرأة بديئة تجلس امام قفص كبير ، فوقه البقدونس والجرجير ، رجل يبيع حلوى لذيذة الطعم من الدقيق والسمن والسكر ، يحبها اهل الشرق ، اسمها بسبوسة ، اشتهر فى القاهرة عدد من الباعة يتقنون صناعتها اذكر منهم رجلا قصير القامة ، اعور قبل المغرب يخرج من بيته الى ناحية حارة لا يسكنها إلا العطارون ، يقف جامداً يتوافد اليه الناس رجالا واطفالا ونساء ، لا يزق احداهم ، اذا علا صوت رجل يطلب الإسراع لتلبية طلبه ، هنا ينظر اليه ويشير اشارة واحدة موجزة « امش .. » ، ولا يمكن ان يبيع له ابدا حتى لو تردد عليه مرات ، وعندما يقطع البسبوسة ، يمد يده بسكينة قصيرة سلاحها عريض مثلث ، حركات يده مرسومة محددة ، كانه يشكل الذهب ، ينحت المرمر ، تخلو الصينية الا من فتات حلو متناثر يلعب فوق طبقة رقيقة من السمن كالاشعة الصفراء ، بالسكين يجمع الفتات ، يلمه الى حافة الصينية ، فى اللحظة التى ينتهى من تجميعه ، يجيء رجل عجوز طويل رفيع معصوب العينين ،

يمشي منسربا لا حس له ، يحمل طفلا صغيرا لا يبكي ، يعطيه البائع الفتات ملفوفة في ورقة صغيرة ، يضم الحامل الخشبي المثلث تحت إبطه ينصرف ، احببت الوقوف قريبا منه ، أراقب يديه ، وجهه الجامد ، لم أذهب اليه بعد ، محلات الأكل كلها مفتوحة ، تسمع وانت تسير امامها اصطدام الأطباق والأوعية ، تتصاعد روائح الطعام ، السمك المقلى ، الفراخ المحشوة بالبصل ، السنبوسك . وهو نوع رقيق العجين . يشكل في مثلثات محشوة باللحمة . تقلى في السمن حتى يحمر العجين . من بعيد . ترتفع اصوات . تدور وتتجه جماعة نجارين يركبون عربات تجرها الدواب . يصفقون . يكبرون مهللين . يرددون في إيقاع منظم ، ابن موسى . ابن موسى ، لم أميز بقية ما يقولون . من أن الى آخر ترتفع صيحات هادرة عن جماعة . تبتعد كلماتهم شائهة مضطربة . تغيب ، فجأة سمعت من يقول . « ابن موسى لا يأتي مرتين في زمن واحد » . رد آخر « لو جاءهم من يصلح أمرهم لأبد أن يخلقوا فيه العيوب » ، العجيب أنني سمعت بالأمس رجلا عجوزا يقول عند دكان عطور قديم في الحمزاوي ، ظهور ابن موسى علامة من علامات خراب الدنيا . أنا أعرف عنه ما يقشعر الأبدان ، لكن الحضور نظروا اليه ، سكتوا لحظة . تسابقوا في الثناء على ابن موسى . كأنهم يدفعون عن أرواحهم أذى مكتوما . ينفون استماعهم الى العجوز . أي أمر محير هذا . لم أر مثله في أي البلاد . الناس تحب شخصا بعينه ، كل لسان يحمى سيرته ، يثنى عليه ، في الوقت نفسه يسرى شيء خفي . شعور لا يبين في الأرواح والجماد رهبة خفية من الزينى ، لا تبدو على وجه بشر إنما ترى بعيون خفية . هذا أمر حيرنى فعلا وأريكنى ، سمعت طبل المنادى ، إذن سيخطب ابن موسى في الناس غدا . المدينة ساهرة ، لم أر فارسا مملوكيا واحدا ، عرفت من خادمي أن ضررهم بلغ حدا فظيعا لا يحتمل ، منذ عام كامل الخروج بعد العاشرة مغامرة ، أهالي الحارات يخلقون أبوابها ويعينون منهم من يجلس وراءها ، وعندما تزايد الأذى ، طلع ابن موسى الى السلطان وشفع في الناس ، قال : « الدنيا ستخرب إذا استمر الحال على ما هو عليه ، من خطف نساء وذبح أبرياء ، واستجاب السلطان لرجاء الزينى وأمر بمنع الممالك من مغادرة ثكناتهم العسكرية والنزول بعد العشاء إلا بإذن خاص ، أمر بمنع أي مملوك من ارتداء لثام حول وجهه ، لم أعاصر هذه الفترة في مصر ، لكن أخبرنى خادمى باستمرار الدعاء ثلاثة أيام فوق منابر الجوامع للزينى بركات ، ولم يحدث هذا لأي إنسان من قبله ، حتى أمر ابن موسى بمنع هذا . أخبرنى خادمى بذبح ثلاثة شبان في هذه الفترة بسبب ذمهم ابن موسى ، ذبحهم العامة بأيديهم عندما قال الشبان ما يفعله الزينى مشكوك فيه ، هو الذى أثار الممالك ، حتى يطلع الى السلطان ويشفع في الخلق ، وعندما يمنع السلطان ممالكه ، ينادى ابن

موسى بالكف عن الدعاء له . رجعت الى بيتي وفي رأسي دوار . بلا شك هناك أمن
 يعيش بين الناس وادعا . لم تفارقني ضجة الناس . لهوهم . في اليوم التالي قمت من
 نومي مبكرا . صعب على دخول الجامع . لو فرض وأمسكوني فساطلب عون الزيني .
 ما من أجنبي خاصة الفرنجة يدخل مصر إلا ويسجل اسمه والناحية القادم منها . هذا
 نظام جديد لم يتبع في زيارتي الاولى . لو سألني عما افعله في المسجد ساخبره
 بطوافي . برغبتي في رؤية الدنيا . ابن موسى سيفهمني . لابد من لقائي به هذه
 المرة . لم أره إلا في موكبه يوم مشيه في موكب اعدام سلفه بأغرب طريقة قتل
 رايتها . الرقص حتى الموت . قلت لن يفوتني سماعه . فلادخل المسجد . لمحت رجالا
 يرتدون ملابس زرقاء يلقاها صفراء . يقفون بين المصلين . يرقبون حركاتهم . يزداد
 عددهم كلما اقتربوا من الصفوف الامامية وحتى أمن على نفسي جلست ملاصقا
 لاحدهم لم اخطيء في القيام والركوع . اعرف الصلاة هنا أهون من قرى الهند
 والمعابد والعبادات التي لا تنتهي . بين الناس سرت مهمة . دوائر تتسع . تتسع
 بعد إلقاء حجر في مياه ساكنة . تعلقت العيون بالمنبر الخشبي . وفوق السلالم
 الخشبية طلع حاكم القاهرة . محتسب الديار المصرية . الزيني بركات بن موسى .
 اصغيت مرهقا . حديثه عامي اللهجة . وهذا يخالف الأصول على حد علمي .
 اضطررت الى إحاطة أذني حينما بيدي حتى أسمع ما يقول . بدأ ليئا ثم علا . سمعت
 مجيء الزيني الى وظيفته . حرصه على إقامة العدل . وإقامة العدل في العالم أمر
 محبوب للبعض . مكروه لآخرين . كانت الفرصة مفتوحة أمامه . ينهب الأموال
 ويكسب اليواقيت . اللؤلؤ والمرجان . كما فعل الأولون . وكما يفعل الآخرون . لكنه
 أبى خوفا منه وحده (يقصد الله) . وما هو ذا لا يملك أكثر مما يقيم أوده . وقال إنه
 تعهد بتقديم المال عن جهات معينة . وتمكن من استخراج أضعاف الأموال التي تدرها
 هذه الجهات عادة ولم يشك إنسان . أو يتضرر . لم يصدر فلاحا فقيرا يعمل بها . لم
 يتسبب في خروج بعضهم عن بلاده . وضع حدا لهجمات العربان على بيوت
 الفلاحين . هذا ما تم في الريف . أما الضرائب هنا فهل شكنا منها مخلوق ؟ لقد اغنى
 العديد من الضرائب . وهنا تعهل صوت الزيني . استمع الناس الى سر من أسرار
 السلطنة لا يجروا مخلوق على قوله . كان السلطان ينوي فرض ضريبة جديدة (وهنا
 علا صياح الناس . حمك الله .. حمك الله) . لقد شاعت رحمة السلطان وعدله أن
 يستجيب لشفاعة ابن موسى . فيلغى ما عزم عليه . (حمك الله .. حمك الله) . وما
 قيمة الشفاعة إذا لم تجد صدرا رحيمًا كصدر السلطان يتقبلها . وبعد نزول الزيني من
 القلعة . نزوله يوم سبت وسفره الى الصعيد للاطمئنان على الأحوال (هنا توقف
 الحديث وبدا التأثر في لهجة الزيني) . سرى هياج بين الناس . لاحظت صدور

أصوات من مكان قصي في المسجد ، أما الرجال المرتدون الملابس الزرقاء فبدأوا يقتربون من بعضهم البعض ، ثم يتفرقون ، لكن ليقفوا في مواضع غير أماكنهم الأولى في الظهيرة ، ظهيرة السبت طلع إلى القلعة هذا الرجل ، سامحه الله أبو الخير المرافع ، أبو الخير الذي خرب في عام واحد ثلاثا وثلاثين أسرة ، ابن موسى لا يذم أبا الخير ، إنما يذكر وقائع مدعومة بدلائل لا تقبل الشك ، الذين خربت بيوتهم أحياء يرزقون ، أما اليتامى فيشهدون على آباء رحلوا قبل الأوان ، من أخبره بهذه التفاصيل ، من أوضح له حقيقة أبي الخير المرافع ؟ إنه نائبه المخلص الأمين ، نائبه الذي يغار على العدل كما يغار على أهل بيته (أشار بيده إلى أول الصفوف) انه زكريا بن راضي ، وتطلعت أعناق الناس ليلمحوا زكريا لكنهم لم يستطيعوا فرزقوا (أبقى الله زكريا ، أبقى الله زكريا) اقترب الرجال ذوو الأردية الزرقاء من ركن المسجد ، يبدو أن شغيا يجري . علا صوت ابن موسى ، رأيته يضرب صدره بيده ، أبو الخير المرافع افتري عليه ، تعهد أمام السلطان باستخراج ستين ألف دينار من الزينى بركات ، بعد أن يتسلمه ويجري عليه العذاب . (زعق الناس .. لعن الله أبو الخير .. لعن الله أبو الخير) . لكن السلطان بما أوتي من قوة بصيرة ونفاذ سريرة . هل يدري الناس ما قاله السلطان . أولا .. أمر بزج أبو الخير المرافع في القيد الحديدى ، قال له هل تظن أنني لا أدري ما يملك ابن موسى . سأحكى لك حادثة بسيطة . عندما انعقد مجلس السمر الليلي . تأسف الأمير ملامى الطبردار (أى حامل الطير والفأس) . وقال ، حتى اليوم كنت أظن ابن موسى واحدا من الأثرياء والمال عنده كاللؤلؤ يديره كيفما شاء لكنه جاعنى . وكان مضطربا زائغ العينين . طلب منى قرضا قيمته .. تساعل السلطان عن قيمته . تأسف السلطان ثانياً وقال خمسة دنانير .. أى والله خمسة دنانير . قال السلطان ، هل تظن شخصا يرسل فى طلب قرض كهذا تستطيع اخراج آلاف الدنانير منه . ثم لماذا ستون ألف دينار . أه .. ابن موسى أدخل إلى خزانتي آلاف آلاف الدنانير . لم يأخذ منها درهما لنفسه وعندى عيونى التى تخبرنى بكل كبيرة وصغيرة فى بيته (هنا علت همهمات من أقصى المسجد ، وسرت همسات بين الناس) فوق المنبر وقف ابن موسى صامتا .. رأسه مطرق ، يداه تضمان طرف عبايته السوداء . وصاح الناس مطالبين بعضهم بالسكوت ، رأيت الناس فوق سطح المسجد المطل على الصحن الداخلى يروحون ويجيئون . ثم ظهر ثلاثة رجال يلبسون الملابس الزرقاء يدفعون الرجال الذين يختلسون النظر إلى أعلى . أيقنت جمال المنظر لو صعدت فوق المئذنة الجديدة التى بناها السلطان الحالى هنا ، تشبه مئذنة ذات الأربع رؤوس والمنبثقة من جامع الجديد فى أول سوق الشرايشيين . هذه المئذنة أدمنت النظر إليها . المرور من

تحتها . يتساقط فوق روى وهج رخامها الملون . عصور سحيقة أراها في الصباح .
أعود إليها وغبار العصر يغطيها فألقى منظرا جديدا . أجلس في دكان مشروبات
قريب من الأزهر ، أرقبها تغوص بقمتها ، برؤوسها الأربع في الليل . حتى تندمج
بظلامه . أخشى عليها من ضياع . أرجع إليها من جديد . لم يتحدث ابن موسى
إلا بعد هدوء الضجة . « أعذروني إذا رويت لكم فيما رويت بعض أسرار بيتي . »
أنتم أخوتي .. يا أخوتي ..

هل سرقت واحدا منكم ؟
(تألفت الحناجر .. تسد الفراغ ..)

حاشا لله ..

هل أتيت فاحشة ؟؟

لا ...

هل ظلمت واحدا منكم ؟؟

وتداخلت الأصوات . علت ، رأيت ابن موسى يشير بيديه ، عندما هدا الناس تقدم
رجل قصير يرتدى قميصا من الجلد ، أجهدت نفسي محاولا سماع الرجل ، لم أستطع ،
عندما رفع ابن موسى يده كان هذا الرجل يشكو ظلما وقع عليه ، أحد رجالي ضربه
لأنه كان يمشي حاملا قربة من الماء فهو سقاء وسط الطريق وهذا يعرض ثياب المارة
للبلل ، وتساقط الماء فوق الأرض يغطيها بالطين ، وهذا يخالف الأصول التي وضعها
المحتسب بالنسبة للسقائين ، ومع هذا لا بد من رد حق السقاء ، اعتداء رجل من رجال
ابن موسى على أي إنسان بضرب غير شرعي . مرفوض . لن يقبله المحتسب أبدا .
« بعد الصلاة تعال عندي ، أخبرني عن المكان الذي مشيت فيه . وسأحضر أمامك
رجالي كلهم المتواجدين فيه ، ولا بد من رد حقت إليك . »

وفي لحظة بعينها ، قبل تهليل الناس ، انطلقت صيحة من أقصى المسجد .
انطلقت في هفوة صمت ، تخللت حديث الزيني ..

« كذاب ... »

هنا لم يصدق ابن موسى ، صوت نشار ، لم أخف تعجبي ، الحق أنني لم أر مثل
الرجل طوال سني عمري التي قضيتها راحلا عبر البلاد ، تزايد إعجابي بابن موسى ،
عندما عاد إلى إطراقته ، لا يتكلم إلا إذا ساد هدوء ، لمحت ضيقا خفيا حل به ، طبعاً
لا بد أن يضيق بهذه الصفاقة ، ربما وصل أعداؤه ليفسدوا عليه حديثه إلى الناس ،
مرة ثانية أشار بيده إلى الصف الأول ، تابعه المخلص الأمين الشهاب زكريا
بن راضي (دام زكريا .. دام زكريا) هو الذي قبض بنفسه على أبو الخير المرافع
تسلمه وحبسه ، لا لأنه طلع وترافع في حق الزيني ، ابن موسى فكر في العفو عنه .

يكفيه معرفة السلطان بالحق وأهله ، لكن الشهاب الأعظم سيذيقه ما اذاق الآخرين ،
ابن موسى لن ينتفى ، لن يتراجع عما يراه عدلا ، السلطان معه . وقلوب الناس
تحميه ، فليات أعداؤه بما يشاءون . كل ما يرجوه ، أن يمضى اليه صاحب المظلمة
وإذا ثبت أنه ظلم مخلوقا ، فسيقبل أى قصاص يقع عليه كأي مخلوق . (علت ضجة
من نفس المكان الذى انطلقت منه الصيحة) . بدا ابن موسى فى نزول درجات المنبر
الخشبي . صاح البعض « الله أكبر . الله أكبر . الزينى . زكريا . قواك الله وحمك » ،
دق بعض الدراويش كنوسا نحاسية وضاعت الأصوات التى علت تشوش على
الزينى . لم أخف بهجتى . وازداد إصرارى . لأبد من لقائى به قبل سفرى ..



نداء

يا أهلى القاهرة
نوصى بالمعروف وننتهى عن المنكر
اليوم نبشركم
بقلع السلطان الصوف الأسود
وارتدائه اللباس الأبيض
مع دخول الحر
يا أهلى القاهرة
أمر الشهاب الأعظم ، زكريا بن راضى
نائب محتسب الديار المصرية
نائب والى القاهرة
بشنق أبى الخير المرافع
وسوف تبقى جثته ثلاثة أيام
عبرة لمن اعتبر
ودرسا لمن جاء ومن غبر
يا أهلى القاهرة
ممنوع على دكاكين المشروبات ، والحدوى
السهر بعد العشاء
ومن ضبط مخالفا
عوقب بخمسين جلدة
يا أهلى مصر
جاءت الأخبار
بوقوع معركة
بين فرساننا الأشاوس
ورجال ابن عثمان
وقتل فرسان سلطاننا
أربعين فارسا عثمانيا
وهذا أول دم يسيل
فانتبهوا يا أهلى مصر
يا أهلى مصر

نداء

يا أهالي مصر
نأمر بالمعروف وننهي عن المنكر
أمر من مولانا السلطان
بتعيين الزينى بركات بن موسى
ناظرا للذود خلفاه
ونائبا للدوادار الكبير
الأمير طومانباي
فلزم التنويه والتنبيه
يا أهالي مصر
من سمع أحدكم بعض أعداء الدين والملة
يقع بالكلام في حق السلطان
أو حق واحد من الأكابر
فعليه بإبلاغ الأمر
إلى نائب الحسبة
الشهاب زكريا بن راضى
وله الجزاء ، والمكافأة
ومن سمع وسكت
قطع دابره بغير معاودة
فاعلموا
وعوا ..

□ □ □

سعيد الجهنى

فى القلب جراح صعبة الاندمال ، النفس غابة أسنة وحراب ،
مرشوقة لا تنتزع ، لاسد يوقف الأسى المنثال ، يذوى الأول
والآخر ، يضيق المثنى والمفرد ، التاء المفتوحة نهاية النهاية ،
موت الآمال وليد فراق الأحبة ، أما الأمانى فتناى ، فى أول العمر
يهتف خاطر خفى دفين ، جبيبك لم تدركه الغضون ، صدى
وسوسات النجوم ، يشد الأرض الى السماء ، قلوب الخلق تنهج
بالمر والبلوى ، لكن صبرا ، مهلا ، بعد سنوات ستجىء الأيام السعيدة ، لن يستقر
الأمر على حاله ، أول العمر يغمض عينيه فيرى أياما مقبلة ، وربيعا فتيا يخرج
الخلق بمامن من عبث الممالك ، لا يدركهم خوف من هجوم المنسر ، أو كبسة مفاجئة
من بصاصين يسعون فى أثر إنسان ، لا يحب الإنسان مرتين ، أول من يخفق لها
القلب ، لا تنفى ضرباته ، لا تصرع خفقاته ، لا تنتزعه من الصدر وتسلمه الى منقار
طير جارح ، يلهى به أفراخه الصغار ، فى الزمان المرتجى أطفال صغار لا تعرف
لغاتهم لفظ الخوزقة ، قطع رقبة ، وباء ، فى الوجوه صفاء اعتاد رؤيته فى وجه مولاه
الشيخ أبو السعود ، لن يطول انتظار هذا ، يقول لنفسه خمس سنوات .. خمس
سنوات لاغير ، وتمضى الأيام وتناى ، يسأل ملذعا ، ألم تمض السنوات الخمس ؟
ربما بعد خمس أخرى ، أبدا أبدا ، حتى أمنيته العذبة ، أن يصبح له سكن مستقل
يفلق ضبة بابيه ، دورة مياه لا يشاركه فيها أحد ، حتى هذا صعب ومحال ، يقول
منصور صاحبه : جئنا الى الدنيا وسنمضى عنها فنحن لسنا بمعمرين وسنترك
آخرين يأملون فى قدوم الأيام السعيدة ، يا سعيد لماذا نخدع أرواحنا ؟ لماذا نصدم
رعوسنا بالصخر ، ياسعيد إنما نأتى شيئا إمرأ ، بعد خمس ثم خمس أخرى ،
الأصابع تنثنى لا تلاحق ما يمضى ، وسبع وعشرون سنة مضت ، عطن الدنيا أبدى ،
عبث الجان بالخلق لا ينتهى ، الظلم كثيران المجوس لا ينطفئ ..

* * *

الطريق الى بيت الشيخ ريحان لايعرفه الآن ، فى الأيام الضائعة انغلق ، ضبة
المفتاح تلغ فى قلبه ، قال منصور ، فى الزمان دواء عظيم اسمه النسيان ، أحيانا
تمضى أيام معدودات تخف فيها حدة الأسى ، يهتف بالله المكشور ، هاهو ذا الدواء
يسرى لكن فى لحظة بعينها ، أى وقت من أوقات النهار أو الليل ، ربما فى جلسته
الصباحية المعتادة عند حمزة بن العيد الصغير ، فى رشفة معينة من كوز الحلبة ،
فى صحن الجامع عند إصغائه الى الدرس ، فجأة يحط عليه ثقل عظيم أوردة قلبه

يندفق منها دم معتم يظلم الروح . يذكر لحظة بعينها تنفر ألامه جامحة . يهب واقفا .
 ما العمر إلا حلقات نحاس محمية . تكوى النفس . ما العمر إلا ذكرى طويلة اليمه .
 تدثره . تزملة . ترى فى أى الأفلاك منقذه ؟ أى العوالم الأرضية تخفيه ؟ أى النجوم
 تخطف البلوى . أو تنبئه بها قبل مجيئها من بعد قصى . أى قمقم يغوص فيه هربا من
 عصره . من دنياه لا يفتح إلا فى الزمن السعيد الآتى . يفتحه صياد بسيط فيخرج
 منه شعاعا . يخرج منه روحا وصفاء . يهبه الحياة . والحب الضائع . يؤويه
 الصياد . تضمهما الأبدية . لا يضل الطريق إلا من أحب . أما زمانه هذا فلا يقبل
 ما يجود به القلب الحنون . لا يجفف دمة أم على ابنها القليل . لا يبدد الهجر .
 لا يحيى موات الأمل . لا يجفف الجراح الطرية . أبدا . أبدا . يقول سعيد . ستأتى
 الأيام السعيدة . يصبح منصور . متى ؟ لماذا نصدم رعوسنا بالصخر العنيد ؟
 يا سعيد لا شفاعة للخلق ترجى . حتى لو اتلفنا الحبيب المصطفى . وحاول ملء
 الأرض عدلا وسلاما . من بعد أن ملئت ظلما وجورا . يا سعيد انا مقطوع الأمل من
 المهدي المنتظر . لو قام ناطق الزمان . لو ظهر . لو جاء من الكعبة يشهر سيفه
 الذهبى . سيتصدى له زكريا . سيحرمه دخول الديار . سيقبض عليه ويرميه فى
 المقشرة . الحقيقة الوحيدة فى الدنيا . الحقيقة الأولى والأخيرة هى المقشرة .
 المقشرة . وما عداها باطل . لابل والشهاب والزينى وسنيه إبنة الخبيزة . أه .
 يصغى سعيد كثيرا الى منصور يتأمل كلماته . يلغها يقلبها ويعدل حروفها . منذ أيام
 طلع الى المئذنة الجديدة . رأى السواد يلف المدينة لا حس فى العلو الشاهق .
 الفراغ بحر بلا قرار . خل من المحار والأصداف . رأى نفسه وحيدا . أول الخلق فى
 الدنيا . رأى نفسه ينتزع ضلعا من ضلوعه . تجيء سماح . حلقه ضلق بلعابه .
 وانفاسه . أرسل الما كالصهد . شفت روحه وخفت . تحررت من أسر الجسد . علت .
 جناحاها دموع صافية . نجوم الأعلى خرساء . تقول حديثا خفيا غير منطوق .
 لا يسمعه مخلوق . أه . اليس على حق ؟ إذن لماذا لا يتجسد دعلؤه صاعقة منزلة .
 تزلزل الأرض زلزالها . ينكشف الزبانية الملتحفون بقفاطين ملائكية ظاهرها الخير
 وباطنها الأذى . سداها الشر ولحمتها الضرر . يؤمون الصلاة . يعتلون المنابر .
 أرسل دما صائقا . كطلوع النهار . رأى بعينى عقله سماح الرقيقة . التى تساعل
 يوما . أحقا تمضغ وتاكل . وتأتى ما يأتىه البشر ؟ رآها عارية تماما . يخور فوقها
 لوطى عارى المؤخرة . يصول ويجول فى أرض كانت حراما . يحرق عشبها . يجتز
 التين والزيتون . يحصد غلتها . يطفىء وهجها . تذكر يد سماح . يدها الصغيرة .
 رقيقة كهمسة . كبيت شعر اتقنت صياغته . احتواها فى يومه اليتيم النحسك . عند
 خروجه معهم للنزهة . شم النسيم . هذه اليد الرقيقة لأبد أن تتحسس الظهر الخشن

المنحنى فوق النبع الغزير ، أما الشيخ ريحان فلا حديث له إلا عن زيارة العظماء
 الأكابر ، ليلة العرس همس إليه الأمير سودون ، ضحك الشيخ ريحان ، جاءه بعدها
 الزينى بركات ، يسأله عما قال الأمير سودون ، ضحك الشيخ ريحان ضحكة متواضعة
 وبسط راحته فوق صدره ، « إعفنى يازينى من البوح بما قاله ، لا أبوح بما
 استوثقنى عليه » ضحك الزينى ، قال ، أتعرف أنها المرة الأولى التى يميل فيها الأمير
 سودون على إنسان ويهمس إليه بسر ، طاش عقل الشيخ ريحان ، طفت عليه
 الفرحة ، إبنته زوجة لنجل أمير قديم ، فى عروقه تجرى دماء الأمراء والعظماء
 والأكابر ، أه ، أى فائدة ترجى من اجتلاب هوام الأفكار ؟ أى نفس خربة ، معطبة
 يضمها بين ضلوعه ، أهذه روح لم تعش إلا سبعة وعشرين .

* * *

لا يبالغون فى إخفاء أنفسهم ، يجهرن بالظهور أمامه ، يعبرون الطريق أمام دكان
 حمزة . كثيرون يروحون ويجيئون ، لكن سماتهم الخفية لا يخطئها إنسان ، ربما
 ظهروا فجأة ، ربما فى هيئة عجوز فلاح فقير يمشى الهوينى ، نظرة خاطفة من
 عينيه ، تشى بحقيقته ، تقول من هو ؟ ما الذى دفعه الى المرور من هذا المكان
 بلذات ؟ ربما امرأة شابة ، ربما عجوز بلغت من العمر قصيا ، الأطفال حتى ، أطفال
 لا حصر لهم ولا عد يخدمون الشهاب ، يفسد الابن على أبيه ، لا يصدق إلا شهادة
 الطفل ، من هو دون الخمس السنوات ، وهذا أمر مستجد لم يعهده أحد من قبل ،
 سعيد لا يمشى مع صاحبه منصور ، سيقتفون أثره ، يجهدون أنفسهم فى النفاذ
 اليه ، سعيد يعلم تماما ، حركاته ترصد ، أنفاسه تحصى . يتحدث كثيرا فى الرواق
 فى المسجد ربما فسروا حديثه . أضافوا اليه مالم يقصده . الغريب أنه سمع بعض
 المجاورين يسبون الأمير طشتمر جهارا . قال . ربما من البصاصين . لكنه سمع
 مجاورا شاميا من أهالى حلب يقسم بصحيح البخارى . أن الأمير خير بك يرأس
 السلطان العثمانى فى الباطن . يخبره بأحوال الخلق فى الشام ومصر . ينقل اليه
 الصغيرة والكبيرة . وارتفعت الأصابع تتخلل اللحى . فى العيون حيرة . أى بلاء
 قادم . أى مصائب تحوم ؟ ما أدهش سعيد . ليس اتصال خير بك بالعثمانية . ربما
 فكر فى واقعة كهذه ، أمر قريب ممن لا أهل له ولا يد . لكن ما روعه . اللهجة التى قيل
 بها الكلام . أى الخواطر ترقب عقولهم . فى وقت طويل رأى نفسه حامل الثقل
 الفلاح . لا أحد يعينه عليه . حتى منصور صاحبه . إذا سئل عن أصحابه وزملائه .
 قال لافائدة منهم ترجى . اتاهم الممالك على غفلة فعملوا فيهم ما أحالهم الى طواشية
 لم يعرف مثلهم على مر الأزمان . طواشية ينجبون خصيانا . يعمرن بطون النساء .
 لكنهم بلا الستة . معلمهم بصاص ومربيته سنية ابنة الخبيزة . الآن يسمعونهم

يجهزون بما يتريد هو فى التصريح به . ما الذى جرى ؟ هل أدركته الشيخوخة . هل يمتد مشفر موسى الى فؤاده . الى وجدانه . الى لسانه . يروح بين حلقاتهم ويجىء . يصفى . الاخبار تدور . رسل السلطان يعودون من بلاد ابن عثمان . بهدلهم . انتهك حرمتهم . حلق شعر كبيرهم الامير مغلباى وشكه فى الزناجير . كاد يقتله لولا شفاعه بعض عقلاء العثمانلية فيه . الحرب أمر لا جدال فيه . قصاص ملك الحبشة يطلعون القلعة . الناس يتفرجون عليهم لغرابه هيئتهم . جان بردى الغزالى . يسافر الى نواحي الشرقية يلعب بالسيف فى رقاب الفلاحين . يقتل الآلاف حتى تسد الترع بالجثث . موت رجل عجوز كان فريدا فى صنع البسبوسة . بموته اختفى صنف لا يعوض . لم يعط سره لانسان . الزينى بركات ينوى الخطبة فى الناس . هل تعرفون ربما كان بعض الأمراء وراء طلوع أبو الخير المرافع الى السلطان وطعنه فى الزينى .

* * *

الجامع يفيض بالمصلين . عبير الوضوء والحصير القديم . يطلع الزينى المنبر . لحظة بعينها تجىء فتغير كل شيء الى مسار مخالف . فوق المنبر الخشبي يرى خروجه مع سماح يوم شم النسيم . ادراكه نهاية فرحته . يوم كامل تحدث اليها . لم تغب شمس . يراه الآن معطلا من الامل . تضج فى اذنيه الكلمات . يصفى الى اصوات العرس . ليلة أن ذبح ذبحا ولم يفته جبريل عليه السلام . لم يبكه قلبه . بل هام كالأبرص . يرى الدنيا ثعبا ضيقا . تقدم له جرعة ماء . عندما حالوا بينه وبين الجرى . سفكت دماؤه فوق صحراء . اجتز البوح من صدره . الزينى يتحدث من فوق المنبر . ابن سيد الناس يتجر فى الفول كما يهوى . الشفاء تتسابق فى تقبيل زكريا . لمس طرف عباة . الرجال امام الدكاكين يهزون رعوسهم . يضيقون عيونهم . يا سلام هل رأت القاهرة رجلا مثله . انظروا الى ورعه . الى تقواه . لن يأتى الزمان ببصيص كهذا . الزينى يخطب الناس . فى صوته لين ومسكته . هل سعى فى زواج سماح . لماذا حضر العرس . باى غرض ؟ اين المرأة العجوز التى تطلع بين الناس . تصيح بكلمتين فقط فى وجهه . منذ مدة طويلة لم يرها احد . لم يسمع عنها مخلوق . ربما قتلها . ربما نفاها عن الدنيا . قالوا إنها تذهب إليه فى المساء ويبكى بين يديها أمام باب بيته . وإنها تخبره بما جرى وما سيجرى . بما سيأتى به الزمن . لكنها الوحيدة التى تصرخ فيه . سعيد سمعها بأذنيه فى اول موكب . منذ سنوات عندما رقص طربا . مل فرحا . الناس يجارون بالدعاء . (حماك الله) . (دام زكريا .. زكريا) . فليقل سعيد ما قالت هى . كتفاه تتواءم بحمل هم عظيم . الحجارة تنقل صدره . لكنه لا يرقد فى هجير مكة . لا تلسعه نيران الرمال . لا يهتف كبلال . كعمار

ابن ياسر ، احد ، احد ، مصر لا يلين كزرد الحديد وعنف السلاسل ، احد احد ، قلها
واطلق صيحة الشهادة ، (عاش زكريا دمت يا زيني) ، ما الذي بقى ليحرص عليه ،
زمن إمامه الزيني وشيخه زكريا ، سدنته البصاصون ، كاتم سره عمرو بن العدوي ،
ليطرد كهولة ما قبل الأوان ، ليسترد شباب العمر ، ليرفع المشفر الحامي عن اللسان .

« كاذب »

لحظة هيئة طنت في أذنيه ، ذوو الأردية الزرقاء والياقلت الصفراء ، زرقاء ،
صفراء ، نفذ السهم ، وتجمدت اليد في الهواء ، فوق المنبر .

« كاذب »

لا يخاف الهجير ، لتغرقه نظرات الاستياء ، السقائين ، الحدادين ، المرخمين ،
البنائين ، الفحامين ، النجارين ، الخبازين ، البصاصين ، ليزحفوا إليه ، هم
لا يعلمون ، تتدحرج حجارة الصخر والجبل ، لا يهم ، لو ذبحوا ابنه بين يديه .
ولو ، لو منعوا الماء عنه ، لو أخذوا الرأس وعبثوا بالشفتين . ولو سبقه الحسين
إلى احتمال شرف العذاب .

« أنت تكذب .. »

أهو الصدى ؟؟ أبدا ، ربما ، عجيب ، محير . أصوات أخرى حز الخوف فيها لكنها
تنطق معه في حس موحد شهيد ..

« أنت تكذب .. »

« أنت تكذب .. »

مقدم بصاصى القاهرة

الآن لا يرى ما يقوم به رجاله . لكنه يعرف ما يجرى . لم ير وجه سعيد ويعرفه تماما . لكثرة ما قرأ عنه . يعلم أمورا تخصه لا يدري بها سعيد نفسه . يود لو أسرع الوقت حتى يراه . الوجه الذى قرأ كثيرا عن صفته . هنا سيعرف كل اختلاجة طافت به . ما الذى يجعل وجهه صامتا دائما . لا يتحدث كثيرا . هوايته القديمة رؤية اللحظات الأولى فى وجه إنسان أحيط عمره بقيود . عند الباب الخارجى سيقدم إليه نصف كوب ماء . يشربه معصوب العينين . أى تأثير يحدثه هذا ؟ يقول الشهاب الأعظم . يجب أن تكون الخطوة التى يعبر فيها الإنسان عتبة أبوابنا حدا فاصلا بين عهدين . عندهم ينقسم العمر الواحد قسمين . بحيث يخرج الإنسان من هنا يحمل نفس الاسم لكنه فى حقيقة الأمر شخص آخر .



كوم الجارح

جذع دومة قديم عتيق يحاط بسياج من حديد ، مدينة وثنية ترجم ناسكا ، بغداد الاسلام تلتف حول منصة عالية فوقها المنصور ، الحسين بن منصور الحلاج ، الرجال والنساء يرمونه بالأوحال ، اللسان الشهيد لا يكف ، أنا الحق ، أنا الحق . تعلو اليد الغليظة ، ساعدها مغطى بالجلد المرصع بفصوص الحديد . يهوى السوط فوق الجسد النحيل ، أترك صاحبه الأحوال والفروع ، كلت يد الجلابد من الضرب ، قطع ذراعى الحسين ورجليه ، الابتسامة فوق شفتى العابد الزاهد ، توحى بالظاهر والباطن ، وجهه ملطخ بدم ذراعيه المتدفق لا يتوقف ، لا يكف ، إنما يندفق من سخاء مبین ، مال المشفر الحامى ليجتز اللسان ، فى الليل انتثر رماد البدن المحروق فوق دجلة أما الرأس فنفى الى خراسان ، تجمعت بغداد ، أغرقت الحسين بن منصور ، ما الزمان هنا إلا امتداد هذه الأيام الثقيلة الفاتية ، ظل لزج لا يروح أبدا ، الخير مسكوب والشر باغ والعهر طاغ ، إلى أى الأرجاء ياوى ، إلى أى السبل يلجأ ؟ حيرة غير متوقعة ، غير مرجوة فى نهاية المطاف ، سعيد أرجف قاع روحه ، أضاعوه ، أصوات المدينة تتباعد ، ما أحوجه الى غيبة ، الى إحاطة الروح بجدران الصمت ، الى استرجاع الأيام البعيدة ، ليدرك سر الابتسامة الجماد ، بينما اليان مذبوحتان والرجلان ، يحاول لم الرماد ، يسأل

الروح ، أى سر ، انصرف منصور تطرده أشباح الزمن الخائن* منصور يرتعش ، يرتجف ، ربما جاء ليلتمس الأمان ، لكن أى أمان ، فى قفاه عيتان لايراهما مخلوق ، تكبلان رؤيته ، تحددان طريقه ، منصور نقل ما يقوله الناس « مولانا اختار الزينى وثبت أركانه ، فأى شفيح له يرتجى ؟ » ، أه لو يطلق صيحة الخلاص ويمضى ، لكن الى أين ؟ حتما سيلقى المسيح الدجال ، الى أين ؟ الى السرداب الذى حفره بأظفاره ، أهذه نهاية المطاف ؟ أه .. سقط فى كمين متقن ، أعده باغ بعناية .



مقتطف من مذكرات الرحالة الايطالى

فياسكونتى جانتى

١٥١٧ م ٩٢٢ هـ

فيما يبدو ، قدر لى أن اشاهد خلال هذه الرحلة — الثالثة — الى الديار المصرية ، أحداثا كبيرة ، بعد وصولى من بلاد السودان بايام ثلاثة ، نزلت المدينة ، عرفت خروج السلطان الى الشام لمحاربة سلطان الديار العثمانية ، سمعت المؤذنين يدعون لسلطان البلاد بالنصر ، وقيل لى أن القاهرة ارتجت رجا مهولا يوم السبت ، وتحسرت فعلا لوصولى بعد خروج موكب السلطان على رأس جيشه قاصدا الشام ، وحتى لا يفوت أهل بلادى وصف الموكب ، وللأمانة فإننى أنقل عن صديقى الشيخ محمد أحمد بن اياس ، وهو من أهل العلم المعروفين فى القاهرة وصاحب تاريخ طويل عن الديار المصرية ، أتمنى لو أتيت لى فسحة وقت أعرف به أهل وطنى ، وحضر ابن اياس — برغم كبر سنه — خروج السلطان ودون ما رآه ، وسمح لى بنقل ما كتب ، يقول صاحبه ، ابن اياس ..

(.. أقبل السلطان الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى ، وكان الخليفة قدامه بنحو عشرين خطوة ، وكان السلطان راكبا على فرس أشقر عال ، بسرج ذهب وكنبوش وهو لابس عباءة بعلبكية بيضاء مطرزة بالذهب على حرير أسود عريض قيل فيه خمسمائة مثقال ذهب بنفقة ، وكان ذلك اليوم غلية فى الأبهة والعظمة ، فإنه كان حسن الهيئة ، تملأ منه العيون ، مبعجا فى المواكب ، ثم أقبل السنجق السلطانى ، وخلفه مقدم المماليك سنبل العثمانلى وصحبته السلحدارية بالشاش والقماش ، فدخل من باب زويلة ، وشق القاهرة فى ذلك الموكب الحافل ، فارتجت له القاهرة فى ذلك اليوم ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء من العوام الذين خرجوا كلهم ،

ولم يبق منهم إنسان فى بيته ، وبدأت وجوههم مرعوشة تأثرا وانفعالا ، وانطلقت له النساء بالزغاريد من الطيقان ، فاستمر فى ذلك الركب حتى خرج من باب النصر وكان يوما مشهودا .

وفى أعقاب ذلك نزل حوايج خاناه ، فيها مال وذهب وفضة قيل ان ضمنها من الذهب ألف ألف دينار خارجا عن المعادن وقد فرغ الخزائن من الأموال التى جمعها من أوائل سلطنته الى ان خرج فى هذه التجربة ، وفرغ أيضا حواصل الذخيرة عن آخرها ، وأخذ ما فيها من التحف والهدايا ، وآلات السلاح الفاخرة مما كان بها من ذخائر الملوك السالفة ، من سرج ذهب وبلور وعقيق ، وكنابيش زركش ، وغير ذلك من التحف الملوكية . فنزل جماعة من كتاب الخزانة صاحبة الحوايج خاناه وجماعة من الخزندارية وهم بالشاش والقماش ، فكانت تلك الحوايج محملة على خمسين جملا ، قيل إن جميع هذه الأموال أودعها الغورى بقلعة حلب ، وفى يوم الأحد سادس عشر ارسل السلطان مناديا للعسكر فى القاهرة بأن السلطان يرحل من الريدانية يوم الجمعة عشرين ربيع الآخر ، (طبقا للتقويم الاسلامى) ، فلا يتأخر أحد من العسكر الذين عينوا للسفر ، ولا يحتج أحد بحجة أو عذر ، فلما أقام السلطان فى الوطاق ، وعين السلطان بعض القضاة والأعيان ليتولوا المناصب وأحوال الناس خلال سفره ، فاستقر بالقاضى محمود بن أجا فى كتابة السر ، والقاضى علاء الدين بن الامام فى نظارة الخاص ، والقاضى شهاب الدين أحمد بن الجيعان مستوفيا لديوان الانشاء الشريف ، والقاضى الزينى بركات بن موسى ناظرا كعادته للحسبة الشريفة ، وواليا للقاهرة ومتحدثا عن جميع انحاء مصر ، وأضيفت الى مناصبه الجليلة استدارية الذخيرة.





● رسم : نجادور كنسبرو

وتوافد كبار البصائين من أركان المعمورة إلى القاهرة . قلب العالم
وبستان الكون .

السراقة الخامسة

• اللهم اجعل هذا البلد آمناً •
سري لا يطلع عليه مخلوق

• القاهرة جادى الأول ١٩٢٢هـ

(رسالة أعدت، بمناسبة اجتماع
 كبار البصامين في أنحاء الأرض
 وأركان الدنيا الأربعة في القاهرة أم
 الدنيا، وبستان الزكوة، لتدريس
 الدحوال، والنظر في ذلك ساليب
 المتبعة، وما يستجد منها، ولتبادل
 المعرفة والنفوذ أعد في ديوان
 بصرى السلطنة الهاوية، وتارة
 الشهاب الأعظم زكريا بن راضي
 عفا الله عنه، وعرفه طهراً، ومسالمة)

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى « إن ربك لبالمرصاد »

قال تعالى « وأن الله علام الغيوب »

قال تعالى « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد »

(صدق الله العظيم)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليقل خيرا ، أو ليصمت » .

وقال عمرو بن العاص رضى الله عنه « الكلام كالدواء ، إن أكثرت منه قتل وإن أقللت منه نفع » .
« أما بعد » :

فلم يحدث أن اجتمع كبارنا فى أركان الدنيا قط ، وهذا حدث جلل وعظيم ، إذا كشفت عنه الأزمان المقبلة فحتما ستلقى فيه من الدروس والعبر ما يعرفون منه أننا حملنا عبئا ثقيلا وحملا فادحا ، وأننا عانينا ، وقاسينا ، وضحيينا بالكثير من أجل إرضاء الله تعالى ، جل شأنه ، وما نهدف من وراء لقائنا هذا : إلا استحداث طرق جديدة ، وسبل غير معروفة ، تعيننا على مهامنا الصعبة ، وهذا يساعدها فى الوصول الى لب الحقيقة ، وسوف يسهل الأمر لمن يجيء بعدنا ..
والله المعين ..

« نشاء بحكم عملنا ، وما يتعلق به ، أن يحيطنا وضع غريب ، وهذا يتطلب من البصااص الكبير المهيمن على أمور الدولة باكملها ، حتى البصااص الصغير الذى يتعقب رجلا أو امرأة ، أو ينقل كل ما قيل فى مجلس أن يكون صاحب فطنة وذكاء ، عليه إيجاد أساليب لا تمكنه من العيش بين الناس أمنا ، إنما لابد من عيشه محبوبا ربما بدا هذا صعبا ، كيف يتأتى لرجل قدر عليه بحكم مهنته أن ينفذ إلى حياة الناس وخبائهم — وهذا مكروه — أن يكون محبوبا ؟ كيف يقصده الخلق ليحل لهم أمورهم ؟ لكن لنلاحظ أولا أمرا هاما ..

مهمة البصااص — بلا لف أو دوران — إقامة العدل بين الناس ، ولكن بأسلوب لا يتقبله الناس ، وحيث أن كل أمر فى الدنيا لا يتفق عليه اثنان ، مثلا ، هذه القاعة

التي نجلس فيها ، البعيدة عن أصوات الدنيا ، وضجيج أهلها ، لا نراها جميعا في هيئة واحدة ، مثلا كبير بصاصى الهند الأعظم يرانى واقفا هنا ، وكبير بصاصى اليمن يرانى من الجانب الأيسر ، أما كبير بصاصى السودان المبجل فيرانى من مكان آخر بصورة مغايرة ، حتى التراجمة يروننى بهيئات مختلفة وينقلون الى حضراتكم حديثى ليس بنفس الالفاظ ، إنما المعنى ، ومن هنا تصبح لى أكثر من صورة ، والحقيقة أن وضعى واحد لايتغير ، وحديثى يتغير على السنة التراجمة لكن معناه كما هو ، وهكذا .. ما نراه نحن عدلا يراه الآخرون ظلما وجرما .

البصاص لا يعمل من أجل نفسه أبدا ، الغرض الأول والآخر ، إرضاءه سبحانه وتعالى ، ثم يأتى السلطان بعد هذا ، ثم أركان الدولة ، ومادام البصاص مؤمنا بالله ، بربه ، مسلما كان أو مسيحيا ، أو بوذيا ، ويؤمن بمولاه ، فإنه يعمل جهده كله على تثبيت قواعدها ، ورفع الأذى عنها .

ما من عاقل يزعم وجود إنسان محبوب من كافة قومه ، لم يخلق هذا قط ، ألم يكن خاتم المرسلين وسيد البشر مضطهدا من قومه ، ألم يرمه اليهود بالحجارة من فوق أسوار الطائف فألهب الهجير باطن قدميه . وسال دمه ، ألم يتآمروا على قتله ؟ ألم يحاربوه وتآكل واحدة منهم كبده عمه حمزة نيئة ، ومن قبل أن يثقلوا رأس المسيح عليه السلام بالشوك ، ودقوا المسامير فى جسده وصلبوه ، أما سيدنا يوسف فأخوته هم الذين القوه فى البئر وحزوا نفس أبيه يعقوب ، حتى البوذا الأعظم امتلأت حياته بالأم ومواجه ، وهذا حال الأولياء الصالحين ، والشهداء والقديسين وخلاصة هذه العبر أنه ما من إنسان يجتمع الخاصة على حبه ، بما فيهم من خوارق واختلافات ، وبالتالى . فإن حاكم أى بلدة من بلدان الله ، لابد أن يصبح مكروها من جانب آخر ، والحاكم الأمثل من نجح فى ترغيب الأغلبية فيه ، وتقليل أعدائه ، إذن ، لابد من وجود أعداء يتربصون ويكيدون ، ويتحينون الفرصة للانقضاض ، وهؤلاء إما من الخارج ، أى مخالفين للجنس ، أو الملة ، وفى هذه الحالة لابد من الالتفاف حول الحاكم ، ومهنة البصاص هنا مقدسة ، ولا يختلف فى هذا اثنان ، وإما أعداء فى الداخل وهؤلاء يوجدون بين الأمراء والصفوة ، وبين عامة الناس .

الدرس العظيم المستفاد من التواريخ ، أنه فى حالات اندلاع الفتنة فلا بد من حياد البصاص . البصاص يعمل للعدل وحده ، ورمز العدل هو كرسي السلطنة ، كرسي السلطنة ذاته .

إذا تأمر بعض الصفوة ، أو جماعات من العامة على الكرسي ، فلا بد من إبلاغ الأمر إلى صاحب الكرسي ، هذا واجب ، لكن لنفترض وصول بعض الصفوة المتآمرة ، أو العامة (الغرض الأخير نادر الحدوث) قد وصلوا الى تقاليد التملك والسيطرة .

ما هو موقف البصااص هنا ؟ ؟ نقول مادام البعض انتزع المقاليد من صاحب الكرسي الأصلي ، وتمكن من اعتلائه فليس هذا إلا دلالة على ضعف الأول ، كيف يمكنه إقرار العدل إذا كان لا يمكنه حماية روحه .

ربما ثار سؤال ، هلى يبقى الجديد على القديم ؟ هنا يمكن للحفاظ على المكانة وضع شروط معينة ، يتوقف تنفيذها على مهارة البصااص وقدرته ، مهارته فى النفاذ الى جوهر المكنون وخبائيا كل إنسان ، ومادام الانسان يشعر بوجود عين ترى منه ما تراه بقية العيون وأذن تسمع منه ما لم تسمعه بقية الأذان ، فانه يخشى هذا الجانب ، ويضع له ألف حساب ، لقد ذكر لنا كبير بصااصى دولة المغرب المعظم انه حدث منذ مائتى عام أن تعصب كبير البصااصين ، وقتئذ للحاكم الموجود ، بالغ فى إخلاصه له مبالغة تزيد عن الحد حتى اكتسب عدااء الأمراء والعلماء كلهم ، وعندما نجح أحدهم فى إزاحة الحاكم ، وتولى مكانه لم يأخذ كبير البصااصين جانب الحياد ، إنما جهر بالعداء للأمراء حتى بعد تيقنه من قتل الحاكم ، وهذا عين الغباء ، تسبب فى إيذاء جمع كبير حوله ، التصرف الأمثل هنا ، الصمت ومراقبة العامة ، حتى لا يحشروا أرواحهم فيما يدور من صراع ، فينحازوا الى جانب هذا أو ذاك نضع لهم آلاف الاعتبارات ، وسيتحدث كل منا عنهم فى جلسة أخرى، وعندما تستقر الأمور يبدأ ممارسة عمله ، وإقامة ميزان العدالة ، وربما عدنا من هذه النقطة الى نقطة أخرى ابتدأنا فيها ، كيف يكون البصااص محبوبا من الناس ، برغم كراهية الخلق لمهامه ، لعمله .

كيف يكون البصااص محبوبا من الناس ؟

من خصائص البصااص الأعظم ، البصااص الصفوة ، قدرته الفائقة على اكتساب قدرات الخلق كلهم ، طبيعة البصااص تقضى عليه التداخل والتعامل مع جميع الناس ، مع عدد كبير من الأجناس ، آلاف البشر المختلفون فى طبائعهم ونزعاتهم ، لا يوجد شبيهه للآخر ، والبصااص الحق ، البصااص المكين ، هو من استطاع جمع خصال البشر أجمعين وهذا صعب ، ربما يبدو محالا ، لكنه سهل علينا يسير ، يجب على البصااص أن يكون فحاما عندما يتحدث الى الفحامين ، عطارا نابغا فى العطارة عند حديثه الى العطارين . ساخطا عند استماعه الى الساخطين . حشاشا عندما يأتس بالمشاشين ، خاطئا عندما يسلك طريق الخاطئين . مستغفرا تائبا عندما يسجد بين التائبين . راضيا مع الراضين . يجب عليه أن يتنقل بين إظهار الكراهية والاعراب عن الحب فى غمضة عين ولا بد أن يقنع فى كل الحالين . لا بد أن

يتقن لهجة الأغنياء ، متواضعا يخالط الفقراء ، سفيها محببا الى السفهاء . حتى إذا جالس النساء عرف طريقه الى قلوبهن وعقولهن الناقصة . هذا مانراه في البصااص المكين . ومن أهم ما نقيس به مهارة بصااص . هو اتساع علومه ومعارفه عن الأشخاص . كلما تبحر البصااص في العلم ، جمع الأصول ، واتقن الفنون ، كان أكثر قدرة على النفاذ الى أحوال الدنيا وأسرارها ، طبعاً هذا يستحيل على كل بصااص . من هنا قلنا بعدم ضرورة إلمام البصااص بالعلوم كالمتبحر فيها ، إنما عليه الإلمام بفكرة عامة ليست سطحية ، عن كل تاريخ وعلم وفن ، فكرة خاصة الطليع ، جليلة المظهر ، من أجل هذا قمت بأعداد مناهج خاصة في سائر العلوم التي فكر فيها الإنسان ، ندرسها في مدارسنا ، لكي يستوعبها رجالى فتتو قدراتهم ، ولاتعجبوا يا إخوانى البصااصين العظماء ، يامن تملكون سر الكون إذا أخبرتكم عن بصااص شاب من رجالى يمكنه مجادلة أمتن العلماء فى أشد ما يمسه من اختصاصات بدون فكرة سابقة عما يناقشه ، وطريقته تعتمد على الذكاء الحاد الوقاد ، وأخذ بعض الكلمات والأفكار من المتحدث ، ثم تحويلها بشكل خاص والنطق بها على أنها أفكاره هو ، ولو شئتم أحضره إليكم وأتركه لمناقشتكم ، ومن أغراضى التي أنوى إنجازها قبل رحيلى عن الدنيا ، الوصول بكل بصااص عندى ، الى مستوى يفوق هذا الشاب .

الى جانب ما ذكرناه ، نطبق طريقة أخرى فى النفاذ الى خبايا الدنيا ، للوصول الى جوهر الحقيقة ، الاطلاع على الأسرار الأولية ، خصصت لكل طبقة وجماعة ، أفراداً بصااصين ، يتشربون عاداتهم ، وتقاليدهم ، وسائر ما يخصهم ، وكلامى هذا منصب على البصااص الأصلى ، إنما هناك جانب آخر ، هو البصااص (المستصنع) وأقصد به البصااص المنضم اليانا من نفس البيئة ، بمعنى إذا أردت جمع معلومات معينة عن النحاسين قمت بضم واحد منهم إلى ، بدلاً من اللف والدوران ، وإرسال شخص غريب لأبد من وقت حتى يصبح واحداً منهم ، المهم مراعاة السرية التامة بالنسبة للبصااص المستصنع وتمرينه تمريناً متقناً ، بحيث تطوع قدراته لعملنا ، وبالنسبة للمستصنعين يجب اختيارهم من بين أكثر الناس أمانة وثقة واستقامة ، إذا نجح البصااص الأعظم فى ضم مثل هذا ، فإنه نجاح عظيم ، أخبرنا كبير بصااصى بلاد الصين العظيمة أنه نجح فى ضم أكبر العلماء إلى صفه ، والأعيان ، والكهنة خدمة البوذا الأعظم يعملون معه ، يسعون الى رجليه ، وطبيعى أن تلقى من أمثال هؤلاء مقاومة ورفضاً لظنهم ضعة مهامنا وعدم اتساقها مع الشرف والأمانة ، لكننى أقول واثقاً أنه ما من إنسان فى الدنيا يستعصى على البصااص المكين . لنمسك ظروف كل إنسان وحياته . وننفذ من خلالها الى ما يمكننا من تطويع وتليين جامد فكره . بشرط أن يتم هذا كله بهدوء ؟ ودون قسوة . وعندى الآن مثال حى . إنسان

هو في أوهج فترات العمر نعد له من سنوات . وسوف أقوم يوما بكتابة رسالة مفصلة للعملية التي نجريها عليه . عندما أصل الى غايتي التي وضعتها منذ البداية . بل أوقن أنه سيشارك في كتابة جزء من الرسالة . يكشف ما جرى له . وما حدث . بعد أن كان لا يطيق سماع اسمي . ولا هم له إلا تهيج العامة على أولى الأمر . وهنا لا بد من تحية وسلام أوجههما الى زميلنا الأعظم بصاص مملكة الفرنج الغربية على نجاحه العظيم في ضم أطفال المملكة الى صفوفه . لقد زرع روح البص في عقولهم وأطفالهم منذ تعلمهم نطق الكلمات ، فلا يسمع الطفل كلمة من أبيه أو أمه إلا ونقلها . واصدق الخلق هم الأطفال . وشهادتهم لا تكذب أبدا . وهكذا لو نجح كل واحد منا كما نجح زميلنا الأعظم . لتوصلنا الى تحويل البشر أجمعين بعد سنين الى بصاصين . وهذا أمر جليل يتطلب مع كل ملة ودين . ولزميلنا الأعظم الحق في الاحتفاظ بأسرار طريقته التي حولت الأطفال الى بصاصين فهذا لم يتوصل إليه في غمضة عين ولكن بعد جهد سنين وسنين . لكننا نرجو الاستفادة منه واسمحوا لي أن أبدى إعجابي الفائق به . وبأحواله . لنجعل غايتنا وهادينا في دنيانا وهدفنا تحويل البشر أجمعين الى بصاصين . إن ما نبغى الوصول اليه . سر الحقيقة . برهان الحق . وهذا شاق وفضيع . فما أكثر الطرق اليه .

كيف نصل الى معرفة الحقيقة الأولية ؟ ؟

ما أتلوه الآن تسمعون حضراتكم . وعند خروجكم من القاعة ، إذا اختلى واحد منكم بصاحبه . واستعاد ما قلته . هل سيقوله بنفس اللهجة ؟ نفس الألفاظ التي قلتها أنا ؟ بالقطع لا . محال . وعندما نذكر مجلسا . أو صحبة أو رحلة . فلا يمكننا استرجاع ما مررنا به تماما . إنما نحكيه في عبارات لا تقرب ما حدث . لا نقوله كما جرى بالضبط ؟ وعندما اتسلم شخصا متهما بتهيج العامة . سينكر في البداية كيف أعرف الحقيقة إذن ؟ يمكنني ببساطة ذبح أي مخلوق . فرمقنا لأنسال فيه عن مصير إنسان ، لا يحاسبنا أحد ، لا يطالبنا بدية ، لكنني لست جلادا ، أو غشوما ، أنا أحاول الوصول الى الحقيقة . وعندما تتكشف . ستفصح عن أمور أخرى أعم وأدق ، ربما تندثر لو ازهقنا روح قائلها منذ البداية ، ومعرفة ما جرى أمر صعب . الزمن الماضي ليس موجودا في مكان وزمان معين يمكنني الذهاب إليه فاستعيد ما جرى . الأمس أو السنة الماضية لا نلقاها في صورة موجودات ، إنما نلقاها هنا ، في أذهاننا ، فيما يصيبنا من تحولات وتغيرات . ولكي أصل فعلا الى الحقيقة الأولية . لابد أن يلفظها الانسان نفسه . تلفظ بالقلب والعقل . بالاقناع والصدق وتؤكدما الأدلة والقرائن . ولكي يلفظ الانسان الحقيقة يحق لي استخدام ما

أراه مناسباً من كافة ألوان الأساليب التي تؤدي بنطق الإنسان بالحقيقة ، ومن هنا فكل مايقوم به رجالنا من مهام وما يطبقونه من وسائل في سبيل كشف الحقيقة أحلته الشرائع كلها . واذكر هنا بالاحترام رسالة كبير بصاصي مملكة البرتغال الأفرنجية ، المتضمنة لوسائل جديدة لانطلاق الإنسان بالحقيقة ، والحق أن جميعها أمور مستحدثة في مجالنا ، أضافت إلينا أبعاداً طالما تمنيناها وطال اشتياقنا إليها ، وهنا ، اسمحوا لي ذكر ما نتبعه هنا ، من تطويع الظروف نفسها لخدمة رسالتنا .

كيفية تطويع الظروف ؟ ؟

نبدأ بمتابعة الإنسان في حياته ، وليس في سجوننا ، وننفذ إليه من ثغرات ضعفه ، نفصح هذه الثغرات ، نقوض الأسس والأبنية ، وكما ذكرت ، سهل جداً قتل ألف إنسان ، لكن ليس هذا مهماً ، ما يهمني تغيير ما في المخ والقلب ، وهذا صعب ، وللصعب دائماً نتصدى ، إذا ثبت لنا شنود شخص عن الخلق ، إذا ثبت أنه يهيج الناس ، يفتح عيونهم على الكبراء ، فبدلاً من الترسيم عليه ، ورميه في المقشرة ، والمقشرة يا سادتي العظام من أبشع سجون الدنيا ، وأنا شخصياً أتفاخر به ، وأدعوكم إلى زيارة وجولة تطلعون فيها على ما أعدناه للمساجين به ولن نخفي عنكم أمراً ، نعود إلى حديثنا فأقول ، نبدأ بدراسة حياة الشخص ، أرقب ظروفه ، ثم أصب مائى على نار الهياج فأخفف لسعتها ، وفي لحظة بعينها أنفخها فأجتز حرارتها من قلب الرماد ، أمد سكين الزمن إلى عقله فأنزعه منه ما يجعله شاذاً عن بقية الخلق ، حتى لا ألقاهم جميعاً منظوين يوماً تحت كلماته ، يرجمون أميراً ، أو يحرقون قصراً ، أو يذهبون سوقاً ، أو يهاجمون موكب السلطان ، وكما قلت ما من إنسان في الدنيا يستعصى أمره على التغيير والتبديل ، يا أصحاب العظمة ، يا كاشفى الحقيقة ، هذا ما نعيه هنا ، ونؤصله عندنا ، ما من مخلوق يظل على حاله ، ما من زهرة تبقى متفتحة ، ما من شجرة تظل سامقة ، ما من امرأة تدوم شابة إلى الأبد ، ما من طائر يعلو بلا حد ، ما من نشوة تحيا أبداً ، الشمس تشرق لتغيب ، النهار يطلع ليشيخ ثم يعتصره الليل ، والقمر لا يبقى في العيون مكتملاً ، النهر يبدأ لينتهى ، والغيث بعد حين ينقطع ، والمسافة مهما طالت تقصر وتنتهى ، سادتي ممسكى سر العالم ، ما من إنسان قط يبقى كما هو ، والزمن وحده ليس سبباً ، نحن ندعمه ، إذا وجدنا في نفس المرء ثغرة خوف برغم اشتهاؤه بالشجاعة ، أحوم من بعيد كطائر محلق على ارتفاع شاهق ، كطائر الحدأة عندنا ، لا انقض غارزاً منقارى ومخالبى ، إنما أدور ، أدور ، أنزل إلى ارتفاع معين ، ثم أطيّر مرة أخرى حتى

اختفى ، وأعواد النزول سهما خاطفا ، وشهابا ثاقبا ، كلمح البرق ، كصاعقة انقضت ،
 كخاطرة عابرة ، هنا تنتهى مرحلة ، وتبدأ أخرى ، يأسدتى العظام ، ما من إنسان فى
 الدنيا إلا وفى ميدان نفسه حفر وجراح ، ثغرات وقلاع ضعيفة متهاوية يقع على
 عاتقى واجب النفوذ منها ، مرة انفذ على مهل ، متحسبا متسللا لا يسمع لى صوت
 ولا أنفاس ولا فحيح ، فجأة أبذر منجنيقى ، انصب مواعى ، أبث رماحى السامة
 أشهر سيوفى ثم أهاجم مرة واحدة ، أطوق ، أحرق ، أهدم ، أحيل البناء انقاضا
 والعمار خرابا والأمان يأسا والأمال فشلا مذبوحا ، والميناء الصالح لرسو السفن
 أجعله غير صالح لا يواء ورقة شجر ، إذا كان فى صرح الشجاعة نقطة خوف أحولها
 الى بركة ثم محيط ، لو فى قرارة القلب حب مخلوقة ما ، أحيله الى كراهية لا تحد ،
 أجعله بغضا ، لو وجد بين الحبيب ومبتغاه عقبات يامل هدمها ، أجعل منها مستحيلا
 لا يمكن تخطيه ، أقيم الحدود والحواجز ، أحفر الخنادق وأبث كمائنى فأصيب النفس
 بجراح تبقى طرية حتى بعد الممات ، أبث فى الروح عكارة لا تروق أبدا ، إذا سخط
 الإنسان لفقره بذرت له أمال الغنى والجاه ، أذيقه نكفا من حياة الرخاء يتعود عليها ،
 حينئذ أحيله مسخا فى عيون الخلق لا يقدر على العودة الى قومه ولا يمكنه حتى
 التطلع الى الأمام ، وهكذا بدلا من بتره حيا أحوله وهو يمشى على نفس قدميه
 ويحرك ذراعيه ويتحدث بلسانه يناديه الناس باسمه لكنه فى الحقيقة شخص آخر
 وإنسان ثان لا علاقة له بالوليد الذى انزلق يوما من رحم الأم أو الفتى اليافع الذى
 اختال وزها بين أقرانه ، حتى رجولته أقلبها افوثة ، اضيع معالم الشارب واللحية ،
 لا أحلقهما لا أثقب أذنيه وأعلق فيهما الأقراط ، لا أبتر عضوه ، كل ما فيه يبقى على
 حاله لكنه لا يبقى ، هنا سيفكر لكن كما أريد أنا ، يثير النفس أيضا ، لكن كما أهدف أنا
 وليس كما يحب ويشتهى ، هذا ما أتمه فى الحياه نفسها ، وإذا انتقلنا الى الفترة
 التى يمكن للإنسان قضاؤها فى السجن ، هنا أسمح لنفسى مخالفة زميلى كبير
 بصاصى البرتغال الأعظم فى بعض ما ذكره فى رسالته ، كان تركيزه كله على ألوان
 العذاب البدنى ، أبدا عندنا الآن النموذج الذى أشرت إليه ، ما الذى نفعله معه ؟
 على سبيل المثال نفتح الباب عليه فجأة فى آخر الليل ، يضحك رجلنا فى وجهه
 ضحكة معينة ، ضحكة مدروسة يسأله بلهجة كاللحم البارد الذى تجلط عليه السمن
 ، هل تريد خدمة ، نقدم له كل يوم فى ميعاد معين ربع كوب ماء .. ماء عاوى جدا لكن
 وقعته عليه أفضع من كى الأصابع ، دبرنا موقعا بحيث أجبرناه على رؤية حبيبته
 السابقة التى هام فيها وجدا وهياما وأنشا فيها القصائد ، رأها عارية تماما .. يخور
 فوقها زوجها ، وليس أى إنسان آخر وكانت تاتى من الحركات ما جعل شعر
 رأسه يشيب فعلا ، لحظة الضرب أو التعذيب نفسها لا تؤلم يا ممسكى سر الكون .
 إنما ما يؤلم انتظار الإنسان لهذه اللحظة بعينها ،

عند تعذيب شخص ، ما الذى ينتظره أكثر من هذا ؟ لكن المهم أن يعيش فى انتظار دائم هذه اللحظة ، اللحظة المقبلة سيحدث ، ترى لماذا لم يحدث ، مامغزى كوب الماء هل تغير طعمه ؟ طعمه فعلا متغير ، ربما وضعوا فيه سائلا أو عقارا ينسينى زمانى ومكانى ربما أرادوا إفقادى رجولتى ربما يقتلوننى ببطاء . سلاتى العظام ، لقد أجرينا تجربة منذ فترة وجيزة تقدر بأيام على إنسان عصبنا عينيه لامسنا رقبته بحز موسى حزا خفيفا بحيث لم تحدث به إلا جرحا طفيفا جدا لكننا أمسكنا بأنبوبة رفيعة تصل بقربة صغيرة بها ماء دافىء ، صارت القطرات تنزل منسالة ونقول له ، قل أين أموالك ونوقف الدم ، توهم فعلا أن رقبته تنزف دما غزيرا ، قل لنا كل ما نريده ، بل أكثر ، دلنا على أمير صاحبه اشتهر بظلمه ونهبه للأموال ، صار يزعم ، أوقفوا الدم أوقفوا الدم ، ونحن نحدث أصواتا نوهمه أننا نحاول فعلا إيقاف الدم ، لقد مات الرجل بعد لحظات ، مع أنه لم ينزف دما . لكنه توهم الماء الدافىء دما . وإن شرايينه جفت وخلت ومات ، اننى اعصب عيني السجين ، يمشى دائما متوقعا ضربة مفاجئة تأتيه لكن متى ، أين ؟ هذا مايتساعل دائما عنه ، وفى ليلة معينة أدخل الى زنزانته الضيقة النظيفة . (هذا نظام جديد للسجون ونضعه فى سرية تامة) أدخل عليه أحد رجالى على أنه سجين . ولا تمضى ساعات إلا ويدب الشجار بينهما يتشاجران على آتفه الأمور هذا ما أجريناه على الشاب الذى حدثكم عنه ، أمرت رجلى بالاتصال به أثناء نومه ، قام مفزوعا فلما منه بنية أضمرها الرجل ليزنقه ثم يناله غصبا ، وهكذا أحيل الحياة الى جهنم أبطنها بشوك فيصبح الموت أملا مرتجى ومتعة بعيدة المتل .

رجاء

اثارنا المطلب الطريف الذى قدمه كبير بصاصى دولة كاجورا الفتية الخاص بما يوده لمهامنا فى الأزمان المقبلة ، وأرجو السماح لى بإضافات بسيطة الى افكاره ، كما أعدت ملاحق خاصة جدا حول عدة مشاكل نواجهها ساقوم بتوزيعها عليكم كل منها مترجم الى لغات حضراتكم ، وأقول متمنيا لا يوجد أمر على الله ببعيد ، ما نراه مستحيلا اليوم . يدخل باب الممكن غدا . وغدا بالنسبة لنا دون حد ، إننى أرى يوما يجىء فيمكن للبصاص الأعظم أن يرصد حياة كل إنسان منذ لحظة ميلاده حتى مماته ليس الظاهر فحسب ، إنما ما يبطنه من خواطر ، ما يراه من أحلام ، بهذا نرصد كل شىء منذ مولده نعرف أهواءه ومشاربه بحيث نتنبأ بما سيفعله فى العلام العشرين من عمره مثلا ، فنستطيع منعه أو دعمه قبلها وإذا ما سئل إنسان عن الحقيقة الأولية فأنكرها يمكن للبصاص استعادة الموقف كاملا من

الزمن فيواجه به إن أنكر ، أرى يوما يجيء فيمكن للبصا ص معرفة الهمسات ،
الآهات ، تاوهات الجماع بين الرجل وإمراة . إذا ما جرى حديث بين رجلين فوق
قارب يجرى في النيل أدركه هنا ، ويمكنني التدخل في الحديث عند الوقت المناسب
وتوجيهه ، أرى يوما تنزع فيه الأعضاء من جسم الإنسان لتسال عما فعلته ، فلا
يمكنها الإنكار ، أرى يوما تطلق فيه على الناس أرقام معينة ، فيحدد البصا ص لأهل
كل حارة أرقاما ، هذا رقم (١) هذا رقم (٢) بحيث لا يحمل شخصان رقمين
متشابهين ، وهذا أمر ناقشته بتوسع وإفاضة في أحد ملاحق التي ستوزع عليكم
وهذا يساعدنا في حصر الخلق ، بدلا من تعدد أسمائهم وتشابهها .

(وبعد)

فما ذكرته أخيرا أخيلة تراودنا ، لكن عندما يصير الأمر حقيقة ، فسوف يقول
بصا صو الأزمان المقبلة انظروا ، كان أسلافنا أبعد نظرا وأشد عزيمة .
وعليكم سلام الله وأمانه ،

« كبير بصا صي الديار المصرية »
زكريا بن راضى

□ □ □

ذيل (١)

مطلب في كيفية إعداد طعام المساكين
وشرقة نورههم وأفضل اللحظاته
للانزعة للاقلاقة راحتهم.

لا يطالع عليه إلا كبير البصاميين بعينه

قام بالترجمة ديوان الترتيب
بالمقر الرئيسي لبصامى القاهرة

١٩٢٢ هـ - ١٣٤٧ م

ذيل (٢)

مطلب في الوسائل المقترحة لترقيتهم
الناس، بدلاً من الأسماء، ونص فتاوى
شرعية تبين هذا في سائر الأديان.

لا يطالع عليه الأكبر البصاميين

قام بالترجمة - يوا - لترجمة
بالمقر الرئيسي لبصاميين القاهرة
١٩٢٢ هـ - ١٣٥١ هـ

ذيل (٣)

مطلب في كيفية الرقابة على الرقابة
أى كيف يرصد بصا من بصاصًا
آخر ..

خبر أبيع لك بار البصاصين دون غيرهم

قام بالترجمة ديواناً ١٥٠ الترجمة
بمقر محتسب الديار المصرية
١٩٢٢ هـ

ذيل (٤)

مطلب في كيفية إقناع الناس بوجود
ما هو غير موجود .

نظرة أبيع لكبار البصا صيني دون غيرهم

رجاء تسليم هذا الذيل بعد دراسته وقراءته

قام بالترجمة ديوان الترجمة
مقر محتسب الديار المصرية
١٩٢٢ هـ

كوم الجارح

الوقت ذاته من كل عام ، البيت يفتح للمريدين ، طلاب الحق
الجوابين الساعين حبا في أهل البيت ، بعضهم التقى فعلا بالنبي
الياس عليه السلام ، لم يفن ولم يمت ، النبي الياس شرب من نبع
الحياة فما عاد الموت يقربه ، عاش الشيخ أبوالسعود على أمل
اللقاء به ، التزود من حكمته ، الاستماع الى قصص أجيال
اندثرت . الشيخ الكرمانى حكى له مالا يتطرق اليه الشك ، عندما
اجتاز في أول الشباب بلاد فارس ، حيث عبد القوم يوما النور والظلام ، والتهبت
نيران المجوس ، عند البحر التقى برجل يلبس البياض ، أبيض اللحية ، والشارب
وشعر الرأس ، يمشى فتيا عفيا كأنه ابن عشرين ، الشيخ الكرمانى كان على وشك
النزول فى قارب ليعبر البحر الكبير ، سلم عليه الشيخ ، من عينيه ينسال بهاء
غريب ، حذره من ركوب البحر ، قال « الدردور عمال ومن ركب هلك » ودواب هذا
البحر لا ترحم من يلقي به حظه العائر اليها ، رجع الشيخ الكرمانى ، واختفى الشيخ
الأشيب ، ذهب الرجل ، وبرق خاطر فى عقل الشيخ الكرمانى ، من التقى به وحذره ،
هو ، هو بعينه ، سيدنا الخضر عليه السلام ، فيما بعد عرف هلاك القارب ، انتابته
حسرة ، كيف لم يبق معه ، كيف لم يقتف خطواته ، بعد أن قضى ثلاثة شهور يستقطر
حسرة لا تنبت أملا ، عزم فتوكل ، بدأ طوافه ، عسى أن يلتقى به ، يصحبه ، لكن
محال ، المرء لا يرى سيدنا الخضر مرتين ، مع هذا لم يضع منه الرجاء ، الشيخ
أبوالسعود لم ير سيدنا الخضر ولم يشهد النبي الياس ، فى السرداب ترق
الأحزان ، توخر النفس كنصل ، سيف حاد ، النبيان الخالدان هجرا الأرض التى يحيا
فيها ، رأى الكثير ولم يرهما ، ارتعش قلبه بمنظر الموتى فى غزوة بربرية ، مدن خيم
عليها وباء حصد وافنى ولم يبق ، عندئذ يطرق باله سؤال الحيرة الأبدى ، لماذا
يموتون بلا ثمن ؟ لماذا جاء الانسان وعاش وعرف الألم والأمل ، إذا كان ذهابه بسيطا
هكذا ؟ فى السرداب سمع ثقة أهل مصر فيه ، سمع كل ما أتاه الزينى من رفع بعض
الأسعار ، من القبض على أشخاص ، ارتقاءه فى المناصب مبرر معقول ، ألا يقول
دائما ، لولا ثقة مولاى وأمامى الشيخ أبوالسعود الجارحى لما قبلت ، أحد المريدين

أخذ بوقوف الزينى خطيبا فى أهالى الصعيد القصى ، أخبرهم بأن الشيخ أبو السعود يدعو لهم ليلا ونهارا ، إنه ياتمنه على الأرض والناس ، إنه يوصيه بالعدل والخير وما هو إلا منفذ لتعاليم مولاه ، بعد فناء عمر طويل يجيء من يستبيحه . لو جاءه النبى الياس المعاصر لكافة الأزمنة فسيقول له . أنت المحق . لم تعرف زمنك . لم تغص فيه لتعرف كوامنه . لكن لا النبى الياس . ولا الخضر عليه السلام سيرشدانه ، فى السرداب خيل له أن الهاتف صاح عليه ، والهاتف يسمع ولا يرى ، ولا يجيء إلا للصالحين ، إما مرشدا أو محذرا منجيا ، أو لائما ، أى أسى يطرق القلب الوجيع المحسور ، كيف ينفذ بصره الى الحقيقة ، يقولون ، مولاه باركه أول سنة لكن لم يهتف الخلق باسمه نسوا وأصبح موقفه عنوانا لكل ما يجرى ، أه لو يصل الى شجرة الحقيقة ، حدثه النساك الزاهدون عنها ، من أكل ثمارها لا يعرف الضلال أبدا ، لو وصل الى الحقيقة كل أمر مهما لف والتوى ، لم يصل الى الشجرة ، لن يرى طيفها ، جاءه درويش عجوز صعيدى بحبات التمر ، سطل اللبن ، أكل وشرب ، يميل عليه هامسا ، مولانا فى الباب رجل اسمه الدمراوى . لا حجاب بينى وبين الخلق .

جاء الدمراوى ، فيما يبدو ميسور الحال .

جئت ساعيا على قدمى يامولاي .

من أى البلاد أنت ؟

منفلوط يامولاي .

الى منفلوط سافر الزينى بعد رحيل السلطان إلى الشام ، جمع أهل الناحية كبيرهم وصغيرهم .. فى البدع حكى عن كل شىء عن حقيقة الأخبار . الغدر الذى يطل من ابن عثمان . قال فيما قال إنه موقن من تحرك ابن عثمان لياخذ مصر . لكن جند السلطان وفرسان الاسلام سيتولون أمره . قال . مصر محمية بأولياء الله . وصعب أخذ بلاد تضم سيدنا الحسين وسيدى أحمد البدوى وسيدى عبد الرحيم القناوى . وسيدى الفولى والقطب القوى سيدى إبراهيم الدسوقي وسيدى الرفاعى والأولياء أصحاب الأوتاد ومولاي صاحب الكرامات النورانية أبو السعود .

أجرى الدمع من عيون الخلق ، يامولانا ، ثم قال إن خزانة السلطان فى أمس الحاجة الى دراهم ، ورجاهم تقبل ماسيقول ، جمع ضرائب عام واحد مقدما غير السنة التى نحن فيها ، ولما كان الحال صعبا ، والدنيا متشظية مع الناس ، ضجوا واعولوا ، فتحدث اليهم بلين الكلام ، قال من يملك شيئا ليبيعه ، حاش عنهم أذى الأمراء والمماليك ولو تركهم لجاعوا بسيوفهم ، وباعوا أولادهم وبناتهم كما تباع الماشية ، وهذا ليس غريبا ، حدث من قبل مرات ومرات ، وبين الكلمة والأخرى يذكر

وصية مولاہ الشيخ أبى السعود له ، فصارت الناس يامولای ، أه سامحنی يامولای
بكى الدمراوى ، يولى سيدنا الخضر عليه السلام وجهه بعيدا ، يزعم المريدون ،
تعلو الهمهمات ، « بعد أن صرف الناس . إستبقانى مع أربعة من أهالى البلدة ،
أخبرنا بأمور عديدة عن أموالنا فعجبنا فيما بعد ، كيف وصلتہ ، ثم قال إنه سيفرض
على كل منا مبلغا قدره ألف دينار ، قال لابد من الدفع ، العجيب يامولانا ، ضياع اللين
فى حديثه ، نتر فى وجوهنا . أظهر القسوة قال إنه يمهلنا شهرا ، ولو تأخرنا وسيدعو
علينا مولاہ .. فتخرب بيوتنا .

صرف الدمراوى . ورأى السماء مقطبة الجبين . الآن يرجع الفلاحون الى ديار
الطين ، الآن يوقد عساكر السلطان النيران فى سهول حلب ، الآن يتوه ملاحون فى
البحار الغربية ، يجىء سيدنا الخضر يرشدهم الى السلامة ، الآن يضيع صواب
الضالين فى الصحراء ، ينزل الليل صخرا وحجارة ، لا يدركهم إلا النبی الياس ، وفى
لحظة معينة من الليل لم يعرفها أى إنسان حتى أشد الأولياء ورعا ، فى مكان مجهول
لاتطرقه دابة ، يجتمع سيدنا الخضر وسيدنا الياس ليلقيا نظرة على بلاد يأجوج
ومأجوج ، حتى لا يكسروا السد ، ويغرقوا العالم . خاطر يضيق به صدر الشيخ . هل
نفذ بعض الياجوج الى دنيانا ، وتنكروا فى هيئة البشر ؟ سيهجر السرداب حيناً ،
خلا البيت من مجىء سعيد .

« يا فرج .. »

جاء المريد الشيخ . لا يعرف الطريق اليه إلا مرة كل ستة ، فى ميعاد بعينه .
إمض إلى الزينى بركات ، ارتد شال عمامتك الأحمر ، ناد عليه ، قل له أن يأتى
عندى الليلة .. لا تدعه يغيب .



الجمعة ١٥ شعبان ٩٢٢ هـ
ديوان سر مقدم بصاصى القاهرة
عاجل وهام

تقرير مرفوع الى الشهاب الأعظم زكريا بن راضى ، كبير بصاصى السلطنة

فى الجزء الأخير من هذه الليلة ، توجه الزينى بركات بن موسى ،
استدار الذخيرة ومتولى حسبة الديار المصرية ، والى القاهرة ،
والمتحدث عن الوجهين القبلى والبحرى الى كوم الجارج ، بعد
استدعاء الشيخ أبوالسعود الجارحى العارف بالله ، وعندما دخل
اليه أجلسه بين يديه ، مال الزينى عليه ، لكن الشيخ لم يراع هذا ،
ونتر فى وجهه ، يا كلب .. لماذا تظلم المسلمين ؟ لماذا تنهب
أموالهم ، وتقول كلاما تنسبه الى . أبى الزينى دهشة حاول الانصراف ، لكن الشيخ
قام ، نادى أحد مريديه (درويش اسمه فرج) .. أمره بخلع عباءة الزينى عنه ، تجمع
حوله الدراويش أحاطوا به ، أمر الشيخ فضرب رأس الزينى بالنعال حتى كاد يهلك ،
ثم أمر بشك الزينى فى الحديد ، ثم أرسل الى الأمير علان .. وأيقظه .. وقال له : اطلع
شاور نائب السلطان الأمير طومانباى فى أمره ، وأعلمه ان هذا الكلب يؤذى
المسلمين ، وفى الحال طلع الأمير علان الدوا دار الكبير الى نائب السلطنة ، وأيقظه ،
وأخبره بما جرى ، وقال الأمير طومانباى ليفعل الشيخ أبوالسعود ما يبدو له ، وحتى
ساعة كتابة هذا ، مازال الزينى بركات بن موسى محتجزا عند الشيخ أبو السعود ،
وقال الشيخ لمريديه « أبقوا الأمر سرا يوما أو يومين حتى أستخرج منه ما نهبه من
أموال الغلبة ، ثم نشره على حمار ، ونخلص الدنيا منه » وحتى الآن لا يعلم العامة
بما جرى ، وإن تساعل البعض عن عدم ركوب الزينى لصلاة الفجر كعادته ، ومن
ناحيتنا ، بلادنا فأرسلنا العيون والأرصاد فى كل فج ، وخاصة كوم الجارج ، ونمى
الى علمنا ، أن دراويش الشيخ ومريديه ، وكافة أرباب الطرق الصوفية ، والفقراء فى
بر مصر سيعلمون الخبر ويهيجون الخلق .

عليكم امان الله تعالى

(مقدم بصاصى القاهرة)

الجمعة ١٥ شعبان ٩٢٢ هـ
ديوان سر نائب الشهاب الأعظم
زكريا ، المختص بأحوال ابن عثمان
وأموره

مصيبة كبيرة

بعد تضارب الاخبار ، وكثرة القيل والقال ، ورد إلينا ، منذ لحظات حقيقة ما جرى ، فبادرنا بإرسال الاخبار إليكم ، ونأسف لعدم تمكننا من الحضور بأنفسنا لانشغالنا باستقصاء الحقائق ، لقد وقعت كايمة عظيمة ، طمت وعمت ، وتفاصيلها ، إن السلطان الغوري دهمته عسكر سليم العثمانلى يوم الأحد خامس وعشرين رجب (وهو يوم نحس مستمر) ، وكان السلطان قد صلى صلاة الصبح ، ثم ركب وتوجه إلى تل الفار . وقيل هناك قبر داود عليه السلام فركب السلطان وصار يرتب العساكر بنفسه ، فكان أمير المؤمنين على ميمنته ، وحوله أربعون مصحفا في أكياس حرير صفراء على رؤوس جماعة أشراف ، وفيهم مصحف بخط الامام ، عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وحوله أيضا جماعة من الفقراء ، هم خليفة السيد البدوى ، ومعه اعلام حمر ، والسادة الأشراف القادرية ، ومعهم اعلام خضر ، وخليفة سيدى أحمد الرفاعى ومعه اعلام خليفتى ، والشيخ عفيف الدين خادم السيدة نفيسة رضى الله عنها ، باعلام سود ، وكان ميمنة العسكر سيباى نائب الشام ، وعلى الميسرة خاير بك نائب حلب .

قيل أول من برز إلى القتال الاتابكى سودون ، وملك الأمراء سيباى نائب الشام والمماليك القراصنة دون الجلبان ، فقاتلوا قتالا شديدا ومعهم جماعة من النواب ، فهزموا عسكر ابن عثمان وكسروهم كسرة مهولة ، واخذوا منهم سبعة صناجق ، واخذوا المكاحل التى على العجل ورماة البندق ، فهم ابن عثمان بالهروب او بطلب الأمان ، وقتل من عسكره فوق العشرة آلاف إنسان ، كانت النصره لعسكر مصر أولا ، وياليت لو تم ذلك . بلغ المماليك القراصنة أن السلطان قال لمماليكه الجلبان لا تقاتلوا او خلوا المماليك القراصنة تقاتل وحدها فلما بلغهم ذلك ثنوا عزمهم عن القتال . وبينما هم على ذلك وإذا بالاتابكى سودون قد قتل فى المعركة . وقتل ملك الأمراء سيباى نائب الشام ، فانهزم من الميمنة من المعسكر . ثم ان خاير بك نائب حلب انهزم وهرب فكسر الميسرة . واشيع بين الناس أن خاير بك نائب حلب كان

موالسا على السلطان الذى ظل واقفا تحت الصنجد فى نفر قليل من المعاليك صار يصيح فى العسكر ، يا اغوات هذا وقت المروءة قاتلوا وعلى رضاكم . فلم يسمع له احد قولا وصاروا يتسحبون من حوله شيئا بعد شيء . فالتفت الى الفقراء والمشايخ الذين حوله وقال لهم : ادعوا الى الله تعالى بالنصر فهذا وقت دعاكم . وصار ما يجد له من معين ولا ناصر . فانطلق فى قلبه جمرة نار لا تنطفئ وكان ذلك اليوم شديد الحر . كثيف الغبار . كان نهارا غضب من الله تعالى على عسكر مصر . ولما تحقق السلطان من الهزيمة نزل عليه فى الحال خلط فالج . فابطل شفته . وارخى حنكه . فطلب ماء فأتوه بماء فى طاسة ذهب شربه ومشى خطوتين وانقلب من على فرسه إلى الأرض ، فاقام نحو درجة ، وخرجت روحه . ومات من شدة قهره . وقيل فقعت مرارته . وطلع من حلقه دم أحمر ، ولم يعثر على أثر . ولم يعلم له خبر . فكان الأرض انشقت وابتلعت فى الحال .

ولم تستغرق هذه الواقعة الا من طلوع الشمس إلى بعد الظهر . وانتهى الحال على امر قدره الله تعالى . تحول ابن عثمان عن مرج دابق الى حلب فملكها من غير مانع . واستولى على مال السلطان وتحفه واسلحته التى خرج بها من بر مصر . هذا ملخص ما جرى فى الشام ، نسأل الله ان يقينا شر ما يجيء من احوال ، وسوف نرسل ما يرد اليها أولا باول .
عليكم امان الله تعالى

نائب الشهاب الأعظم
المختص باحوال ابن عثمان واموره

★ ★ ★

عمرو بن العدوى

لماذا ارسل إليه ؟؟ هل انكشف أمره واقتضح ؟ او انكسر العسكر واقتربه وكثرة الاشاعات واضطراب الاحوال ، حتى بيت ابنة الخبيزة لا يستطيع المضى إليه شحت يده بعد امتلاء ، الماوى فى الرواق ضاع ، لا يجمعه الا بيت واحد من اهالى البلدة ليلة او ليلتين ، ثم يمضى الى غيره لتقابلته العيون بالنظرات نفسها ، لا يعرف ما سيقوله مقدم بصاصى القاهرة ؟ لكن هل يغيبه الى أمره مع كل هذه المشاغل والامور المضطربة ؟ لا يدري ، الآن يعبر حارات العطوف ، يخاف لو رآه احد المجاورين ، حتى من حرصوا على صحبتة يوما خوفا وخشية ،

جهروا له بالعداء هذه الليلة وجد نفسه ضائعا فيها ، قابله خارج الرواق كل من ينام بجواره ، بالقرب منه ، زملاؤه فى حلقة الدرس ، شوام ومغاربة وافغان وقفوا يرقبون ما يجرى ، حمزة ثيابه ربطوها تحت قدميه ، قال الشيخ حمزة أكبر من فى الرواق سنا واقدامهم فى طلب العلم وتحصيله ، امض عنا ياشيخ عمرو ، لا ترنا وجهك ، يد حجرية هوت فوقه ، كاد يزعق فيهم ، أتعرفون الى من تتكلمون ، إلى من يزعمون ؟ فى هذه اللحظة رأى نفسه .. يجلس امام مقدم بصاصى القاهرة ، كان اذا جلس الى التجار . الى المجاورين ، يزهو اذ يسترجع حديث المقدم إليه ، يأسف لأنه لا يمكنه التصريح بذلك ، زهو داخله كلما رأى انسانا ، باستطاعته ارسال أى شخص الى المقشرة ، هل نسوا هذا ، لكن عرقا غزيرا انبثق من جلده ، بلل ثيابه ، ما الذى جرى يا شيخ حمزة ، واطلقت العيون شررا ، صاح الشيخ صلاح الصعيدى : امش يخرّب بيتك كما خربت بيوت الناس .. تقدم الشيخ بهاء الحق ، خلع مركوبه ، منعه الشيخ حمزة ، اذيتنا وعددت أنفاسنا ونقلت سكناتنا وحركاتنا ، « ذنب الشيخ سعيد ، والشيخ مبروك فى رقبتك » يوم لم يعمل له حسابا ، ما الذى جرى له ، يذهبون الى شيخ الجامع يوقعون فى أمره كل ما لم يجرؤوا على قوله من قبل ، يأمره بطرده من الرواق ومن حلقات الدراسة ، من الأزهر ، بفضحه ، نظر الى مدخل الرواق ألن يجتاز عتبة الباب أبدا ، ألن يصغى إلى أنفاسهم ، الى هلوسات احلامهم ، ما الذى سيكتبه إذن فى تقاريره ؟ أه ، لن يرحمه الرجل ، فشل ولم يتقن إخفاء نفسه ، وهذا يساوى الموت بالنسبة للبصاص ، الى اين يمضى ؟ تطل عليه ايام بعيدة طاف فيها بالبيوت . يستجدى الدراهم بتلاوة القرآن ، لن يجرؤ على دخول بيت منها ، بقجة ثيابه ، إلى اين ؟ ايعود إليهم ، يطلب الصفح والسماح ، يحكى لهم عن أمه التى لا يعرف مقرها الآن ، سنوات مرت على خروجها ، لا يعرف الطريق إليها ، لم تهتد إليه ، ربما تصل الى الرواق ، لا تلقاه الآن ، تسعى حول المسجد كسيحة عمياء كسيرة الفؤاد ، لو حكى لهم عنها ربما رقاوا له ، ادرك انه نسى وجه امه ، صورتها ، لو قابلها فلن يعرفها ، لو تعيش فهى ميتة فى قلبه منذ سنين ، حمل ثيلبه ولى هاربا ، الطرق عليها كمدة ، كأن الدم المسفوح فى مرج دابق غطى تراب القاهرة ، الناس جروحهم طرية ، فى كل بيت مناحة ، أما جرحه فنافذ حتى النخاع ، سب الشيخ حمزة ، لعن المجاورين ، بل لعن فى سره البصاصين . من يدري ، ربما كشفوا أمره لغرض فى عقولهم ، ربما اشاع مقدم البصاصين بالقاهرة حقيقته ، اشرف على فضيحته ، مرة سمع الشيخ حمزة يسب كبير بصاصى السلطنة ، أهمل ولم يرفع ما حدث ، أهو الكسل ؟ الآن يتمنى لو عرف الشيخ حمزة بموقفه ، ارتعش ، توقف مكانه . سمع صرخة غامضة غريبة طالعة من احشاء العطوف ، ربما يذبح انسان ، لا قيمة لذهاب رأس واحد ، فما أكثر الرعوس التى راحت فى مرج دابق ، لو أمسكوه الآن فى هذه

الساعة لظنوه يجس الأحوال ، يرأس ابن عثمان ، الرجم مصير هين عندئذ ، لن ينقذه زكريا نفسه ، ربما يدبر له مقدم بصاصى القاهرة ملعوبا ليتخلص منه تماما ، يمسكه بعض البصاصين الآن يزعمون عليه « بصاص لابن عثمان » اذن فليسرع ، كل شىء يولى ، كأنه لم يذهب إلى ابنة الخبيزة ، لم يضاجع لطيفة الحلوة ، كأنه لم يستمع إلى هيفاء اللذيذة ، لم يدرس العلم ، لم يحفظ الحديث ، أه لو بقى فى البلدة بجوار أمه ، يعمل فلاحا ، عنده زوجة وأطفال ، تصر البوابة عند فتحها صريرا ثقيلًا ضبتها الضخمة توجعه ، نفس الممر ، عبره مرات ، ارتجف ، هل سيخطو فوقه راجعا الليلة ؟؟ لا يعرف ما سيفعل به ، فى أولى حجرات البيت طالعه نائب مقدم بصاصى القاهرة .

« اجلس »

لم يلامس ظهره مسند المقعد ، رأى نفسه بعين الرجل ، أدرك نحول بدنه ، اصفرار وجهه .

« فضحت نفسك .. وفضحتنا »

انعقد لسانه ما الذى سيفعل به ؟؟ عندما وصل اليه الرسول فى الفسطاط ، أعد كلاما كثيرا يقوله ، كل ما يرجوه تدبير المأوى ، يمكنه العمل خادما ينظف الحشايا ويغسل الأوانى ، ألم يبذل الجهد كله فى خدمته ، هل خاب تقرير واحد أعده من قبل ، ألم يتسبب فى كشف أمر عشرات المهيجين ، الآن لا يجد كلمة واحدة فوق ما فكر فيه ، قام نائب مقدم بصاصى القاهرة ، لاحظ عمرو أنه متعب ، تمنى لو قال له « استرح .. لا تتعب نفسك » لو بادلته عادى الكلام ..

« سوف تسبب لنا متاعب .. »

قلب عمرو حمامة ابتل ريشها ، يلمس ما تقرر فى أمره ، من خلال كلمات الرجل وحركاته ، أثناء مشيه ومجيئه فى الحجرة ، ضرب قبضة يده اليمنى براحة يده اليسرى ..

« ستبقى عندنا وقتا حتى يبت فى أمرك »

« هنا » ؟؟

ورأى عمرو ظلام الليل أبديا ، طاف حوله خيال هائم ، لا يدرى أين صاحبه وتمنى لو اقترب من النائب وهمس برقة « اهتم بنفسك ، صحتك على غير عاداتها ، فيجاوبه النائب ، قائلا .. « رعك الله يا عمرو وأبقاك .. »



سعيد الجهينى :

بخرقة ممزقة قديمة ، اقبل حمزة بن العيد الصغير ، ينظف
الموضع المعتاد من الدكة .. لك وحشة ياشيخ سعيد .. سنتان
وأكثر .. هانت عليك العشرة ..

ضيق سعيد عينيه ، تعب البصر وامتنع عن تمييز القريب من
الاشياء ، أيصدق حمزة فى قوله ؟؟ او يتظاهر ؟؟ احقا يجهل ما
جرى ؟؟ ألم يبلغه الامر ؟؟ وإذا تجاهل فلا بد من غرض خفى
يستحق تظاهره ؟ ألم يسمع صدفة حديثا تبادله بعض المجاورين المترددين على
دكانه ، حمزة يدعك يديه بعضهما البعض ، فى الترحيب حرارة لا تخفى ، هل أوصوه
بافتعالها ؟؟ أيصدر عن نظراته ما يدفع الريبة والشك إلى قلبه ؟؟
« غيبته لم تطل يا ريس حمزة .. »

فى كلمات قليلة رد ، ليفهم حمزة أو أى بصاص آخر يقف قريبا منه ، يختبئ فى
الدكان ، فى أى مكان لا يراه ، انه لا يبدى الشكوى مما حدث ، سعيد عليم بمراقبتهم
له ، فى مكان بعينه ، فوق مساحة ارض بذاتها ، فراغ محدد يقف انسان يرصد
كلماته ، الناس الذين يلقاهم ، العبارات المتبادلة بينهم ، كل ما يقوله ، يرفع ويوضع
تحت تحليل عميق ، لا يمر معنى خفى الا وأدركوه ، ومهما مضت السنون ، حتى ولو
بقى فى عمره يوم واحد ، يمسكونه ، يحاسبونه حسابا عسيرا وهم قادرون على
إذاقته فى يوم ما لا يذوقه انسان فى مائة عام من الام ومواجه ، يبذلون جهدا
لتصحيح مساره وتقويمه ، الا يضرب الأب أولاده ؟ يقسو عليهم ؟ يرقب الطرقات ،
الشتاء يورث القلب حسرة ، دفقة دم ، تعيد إليه وقع اقدام مقبلة فى طرقات طويلة لا
نهاية لها . وجوه ترمقه بهدوء ، ببرود . وعيون تنفذ إلى نسيج احلامه ، ارقهم
كثيرا ، فاهتموا به طويلا ، اخبروه بالفاظه التائهة القليلة التى يطلقها عادة اثناء
نومه فى الرواق ، زمان احد اصحابه اخبره بها ، كثيرون يتحدثون وهم نيام ، الفاظهم
مبهمة ، أما هو فلا ينطق الا لفظا او لفظين « الاول » ، « الآخر » ، « الامس » « غدا » ،
« المثنى » ، « المفرد » ، سألوه عن معانى الكلمات شهرا بأكمله ، فى كل مرة يقسم انه لا
يدرى ، رحموه وصدقوه ، ترفقوا به وصدقوه ، ترفقوا به ، فى مرات استعادوا
احاديث تبادلها مع آخرين على فترات متباعدة فى حياته ، توالى عليه الأسئلة حول
مغزى الكلمات توضح الشروح ، توضح الفروق ، تضاهى الحروف حروف الجر ،
وعلامات الاستفهام طلاس تسد أبوابا فى نفسه ، فكوها مع ظنه الدائم باستحالة
هذا ، أزالوا ارضادها . نفذوا من اضيق الثقوب ، أغلقوا طاقات ، ردموا ممرات
وساحات ، الآن ينتبه إلى نفسه فجأة ، كيف يفكر فيما فعلوه به ، ربما أدركوه وعرفوا

ما يفكر فيه ، يفهمون أنه يحاول تشويه أعمالهم ، أنه ينسب إليهم فظائع لم تحدث ، نعم لم تحدث ، لم تحدث ، ألا يوجد عقار ما يمنع الانسان من التفكير في أمور بعينها ، الآن تتدافع إليه أصداء صرخات مجهولة ، آدميون يتألمون ، حناجر تعجز عن تفريغ طاقات الألم ، ركود الهواء في الحفر المغلقة ، ملمس السلاسل ، يهز رأسه ، ينفي الخواطر ، يبيد الأفكار ، ما مر به أحلام ثقيلة ، فعلا أحلام .

« بالصلاة على النبي .. اللهم اكتب لنا الستر .. »

الابتسامة على وجه حمزة بن العيد الصغير ، كانت كلماته تبدو طيبة ، الود المنسل من عينيه ، الآن لا يدري القصد والهدف . في نفس هذا الموضوع رأى سماح ألف ألف مرة ، ذكراها تدفق الدم من الاوردة والشرابين ، سماح كيف احبها يوما ؟ كيف عانى ما عاناه ؟ لفظ الاسم بصوت عال من الطاقة . سمع ورأى ما يسقط النجوم الاعالى ، ما يهوى بالنفس من شموخها ، أدرك العطن جوهره . ظن انها لا تمس ، دب الخراب الى وجهه مليح ، بارت الأرض . أفنى الوباء امالا . ظن يوما انه سيعبر المحيطات ويمشى عبر الربع الخراب من العالم ، يعلو جبال قاف ويمضى إلى واق الواق ، يرسو في جزر لا يسكنها أحد ، يأكل الحديد ويشرب النار . فقط لو صاحبه الآن يتسائل ؟ كيف ، كيف احبها يوما ، لا يدري أين هي ؟ أين تسكن ؟ في القاهرة أم رحلت إلى الارياف مع الراحلين في الايام الأخيرة ، لابد انها انجبت طفلا يقول لزوجها يا ابي ، يقول لها يا أمي .. لابد ان معالم وجهها تغيرت ، يدها غلظت ، كأنه يذكر شخصا غريبا عنه يعيش وراء المحيط ، عرفه يوما غير ان عكارة في قرارة الروح ، نقطة عنبر اسود لا تروح . لا يدري ما الذي دفع إليه الآن ذكرى رجل عرفته القاهرة كلها منذ اعوام قضى سنين لم يقرب امرأة . وعندما اشترى بماله الذي أفنى العمر في اقتنائه جارية حلوة صغيرة . لكنها بعد ايام استغاثت منه . استعانت عليه بالزيني ، الزيني خلصها من الرجل . طاش عقله وراح يدور الشوارع في عينيه حيرة ولهفة وقع به خبل ، ياه كانت سماح حربة مغروسة في قلبه لم يعرفها . وارق الدمع من أجلها . يقول الآن . الحمد لله انه لم يتزوجها . كان شخصا أخر حكي له ما جرى ، قصه عليه . أما هو فلم يعرفه ، قرب كوز الحلبة . الطعم مغاير في الخلق ، هل نسي المذاق ؟ لو اشتهى الحلبة عندهم لجاعوه بها ..

« اللهم استرنا واحمنا يا كريم »

في البداية اقبل عليه ، لكن اسى الوجه الخفى ، الصد الذي لا يبين في عينيه ، حفر رفيعة طويلة حولهما ، كأنه قام من النوم توا ، كأنه يعاني حزنا فادحا ، أو انتهى فورا من بكاء طويل ، حمزة بن العيد الصغير ، يرى حاجزا يقوم بينهما .

« أنستنا يا شيخ سعيد .. »

فى الجو غليان ، انه يمشى على الرصيف المحيط بصحن المسجد المكشوف من وراء الأعمدة ، ينظرهم ، لا يقرب حلقات المناقشة الا وقت الدرس ، حتى وقتئذ ينأى بنفسه ، لن يدع فرصة للظن أن يهمس لأحدهم ، يرى العيون تبرق والعشرات يخرجون الى ظاهر القاهرة ، يشيلون أحمال التراب ، يحفرون للمدافع التى اجتهد السلطان طومانباى فى صنعها ، رذاذ الحديث ينفذ إلى أذنيه .

« لو خرج طومانباى وقابلهم فى الصالحية وهم متعبون ولا طعام عندهم لكنهم استراحوا يامشاىخ ، والآن يسعون الى الريدانية .. »

« أنا أرى ان يخرج طومانباى ويلتف مع الصحراء .. ويباغتهم عند بلبيس . لكن أن يحفر فى الريدانية وينتظرهم هنا فهذا ما لاتحمد عقباة .. »

« ربما اقنعه الأمراء بهذا لغرض فى أرواحهم . »

« هل شك واحد منا فى خاير بك من قبل ؟ »

« فى الجو رائحة نكتة يا مشايخ »

إذا سأل أحد جاوبه بهزة رأس لا يعنى شيئاً ، ابتسامته موجزة تبتر الحديث ، يعرف ان أصحابه رقوا له ، يختمون ما جرى له ، لايهمه ما يقولون ، يرجو الا يثيروه بالحديث ، كل كلمة تقال وتضيق فى الهواء لا تغنى عندهم ، يقطع الممر الطويل المبلط برخام قديم ، يداه وراء ظهره ، يروح ويجىء ، فيه خوف غامض من الخروج الى الفراغ ، كأنه لو مشى فى خط مستقيم سيختل ميزانه ، يسقط مرفوع الذراعين مرجوف الوجه ، يطلب نجدة لن تصل أبداً ، وغوثاً منقطعاً ، ومدداً لا أمل فيه لو أكثر من التجول لرائته ألف ألف عين ، كل عينين لانسان واحد ، لو أنه حدد الناس الذين يمضى بينهم ، فى الليل اذ يوشك شيخ الرواق على اغلاق الباب ، يقوم من مرقده تتتابع أنفاسه بسرعة ، يكاد ينطق رجاء مكتوماً فى صدره ، الا يغلق الباب ، كأنه لن يفتح أبداً ، لا يأتيه النوم الا بعد دوار رأسه ، انكтам نفسه ، ضياع حسه ، لا ينام نوماً ، إنما يغشى عليه ..

« فى الجيزة خمسون الفا من العربان .. »

المجاورون يروحون ويجيئون ، ثمة جدد فيهم أصغر سناً ، جاءوا بعد ذهابه فى الرحلة « كما يسميها بينه وبين نفسه » فى حلقة كتلة صلبة كالبندقة ، لو ان ما يجرى الآن جرى منذ عامين فقط ، عامين ؟ كأنهما عشرات السنين ، زمن قائم بذاته ، هل سيقف هكذا ؟ يتجنب الاقتراب من حلقات المناقشة ، ما يدفع طعاماً الى دمه ، ما يحيره ، كيف يسمع الآن باقتراب جيوش ابن عثمان ، تكاد تلامس أرض الريدانية ، خيولهم تدوس الديار المصرية ، طاحت سيوفهم فى رقاب أهالى الشرقية وبلبيس ، ربما اجتاحتها فى طريقهم بلدة ، قرية ، سماح لجأت إليها مع زوجها ،

استباحوا عرضها فى صحن جامع قديم . العرض الذى لم يهتك فى خياله يوما وراه
متمرغا تحت سليل الأمراء فى لحظات قهر . سعيد يتقلب فوق حصير شائك . ما أبعد
المسافة وإنأى الترحال بينه وبين زمن ترعشه فيه مظلمة بسيطة . ضرب إنسان فى
عرض الطريق . تتكاثر الحيرة والحسرة . كيف لا يحركه ما يجرى من أمور ؟ انتفض
الشامى والمغربى . القريب والبعيد . الحريم يهتفن بالدعاء لطومانباى . حتى العيال
الصغار . ربما يخشى أن يفهم حماسه خطأ . لو زعق . لو جهر بالدعاء ربما تضايقوا .
يريدونه هادئا وادعا . إذا هتف لطومانباى من يدرى أن الدعاء سيسمع بنصه ؟ رأى
نساء الجمالية الفقيرات فى العطوف الجوانية والروم والباطنية يقفن امام مشهد
السيدة نفيسة حسيرات . تعلو اصواتهن بنصرة طومانباى . ورفعة جند مصر عسكر
الاسلام . فى داخل المسجد رعوس معممة . يقيمون الصلاة فى غير أوقاتها يقرأون
البخارى . شبان صغار عاب عليهم يوما انقطاعهم . وترددهم فى مواجهة جور
الأمراء . الآن يبدون همة لا يدرى من أين جاءتهم . أحقا لامهم فعلا ؟ لكنه لا يخطئ
الوجوه المنكسرة . معالم الغربية يراها . حتى فى ابنية الحوارى .



لحظة الغروب تجسد الموت . الأسى ورقراق . عبثا صفاء النفس . الأذان حزين
يدفع بالعمر مائة سنة . يعمق الغربية لمن لا بيت له ولا زوجة ولا امل يرتجى . كأن
الريف البعيد محى من المكان والزمان . الأشرعة لا تهدى القوارب الى بر الأمان .
تمضى امرأة تلتف فى حرير أصفر . حتى الخيال لم يعد قادرا على تجريد الثياب . لو
جاءت بلقيس نفسها . لو رقصت أمامه فى حجرة مغلقة نائية . لن تهتز حتى جذور
شعيرات رأسه .



طفل ضئيل . صغير الجسم . داعم العينين . الأصبع فى الفم . حيرة أول العمر .
يبحث عن أبيه . يبحث عن أمه . لا يدرى سعيد . الطولة المخوزقة فى عينيه أثارت
خوفا غامضا . فى قلبه شفقة تنسال . توقف يرقب الطفل . إنقبه الى خطورة ما أقدم
عليه . بأى كلام يفسر وقفته المفاجئة امام الطفل . طفل صغير يبكى رأى نفسه ممددا
فوق حشية قديمة . أطفال يصيحون . نساء يلطمن الخدود . أه لو يرثى الانسان
حيا . لاقام النعى وجاءته الندابات من كل فج عميق . لو يصلب نفسه على باب
زويلة . يقضى داعم العينين . كهذا الصنم الواقف فى جزيرة لم يرها ابدا وسط
البحر المحيط . كلما اقترب منه انسان يلقي الدمع هاطلا من عينيه . السوق خال .
الحركة خفت من الطرقات . كأنها أوردة القلب الخالى . التفت وراءه . الطفل الباكي
يتوسط الطريق . قدماء رفيعتان كقلم البسط .

تنوء ان يحمل جسمه . كل اهتزازة منه تجسد أول العمر الشقي لا يعرف ان يمضى ؟
رأى بعينى عقله امرأة وقعت بين القفف فى سوق الليمون انتابها خلط فالج ارتمت
على ظهرها لا تدرى ما حولها . تطفطف ريماء من فمها . زحف الى ثديها طفل يتلمس
سريان الحياة منه . متى رأى المنظر . متى انتابه غم ؟



بحرص عظيم استقصى أخبار ، يقينا علم بخروجه ، فى الرواق خطر له ان ينسرب
تحت الظلام ، يطلع عليه ، لكن هذا أسهل الطرق لانكشاف أمره ، كلما انقضى يوم ،
يطلع فيه الى كوم الجارح ، أدرك أن المسافة تنأى ، ربما لن تطأ قدماه صحن البيت ،
لن يتنسم هواءه المبلل بماء الورد ، منذ أعوام لم يخطر بباله قط ، لم يكن يقبل أى
تصور ليوم كهذا ، لم يطلع الى كوم الجارح ، لكنه فى حذر راح يستقصى احوال
مولاه ، عرف أن الأمراء عندما عرضوا السلطنة على طومانباى تمنع ورفض ، لم
يجدوا امامهم الا الشيخ أبى السعود ليقنع طومانباى بتولى السلطنة ، سعيد يراه
بوجهه الصافى ، ربما أخذه التردد . لا ينسى تدخله الى جانب الزينى بركات . ثم
خيبة رجائه ومسعاه ، أبدا أبدا لم يخب رجأؤه ، بعد عودته من الرحلة طلب منه رجل
أتاه دائما هناك ، جالسه اياما طويلة ، طلب منه الذهاب الى دكان حمزة كالمعتاد ،
ولو جاءت سيرة الزينى امامه ، لو تساعل الناس عن سر اختفائه يقول (رجاء الرجل
بأدب) إن الزينى فى مكان قريب ، يعد العدة ويجمع المال والسلاح ، ولم يمانع
سعيد ، واى مأخذ فى هذا ، تساعل الناس فى الدكان عن غيبة الزينى قال ، أنه يرسل
الاتباع الى بلاد مصر . يستنفر مشايخ العربان لارسال رجالهم الى القاهرة ، يذكر
يوما شخصا افرنجيا بدا مصفيا لكل ما يقال ، استتراب فى أمره ، بعد أيام عرف الناس
الحقيقة ، الشيخ أبو السعود نفسه قبض على الزينى ورماه فى بيته ، خجل سعيد
من نفسه . خالف أمرا أتاه مولاه ، لكنه معذور لم يدر ، ثم أن الرجل رجاء بأدب ،
مطلب بسيط ، لم يخطئ فيه ، أرسل الشيخ الى الأمراء الا يخونوا مولاهم
والا يغدروا ولا يخامروا عليه وأن يساندوه فى تصديه لابن عثمان العازم على أخذ
مصر ، يعرف سعيد أن كثيرا من المريدين ، قدموا من كافة القرى والانحاء ، يلفون
رعوسهم بشيلا ن حمراء وخضراء سيدى أحمد البدوى ارتداها يوما ، مد يده فأحضر
الاسرى من بلاد الكفر ، الشيخ أبو السعود يخرج يوميا الى الخلاء يحمل المقاطف
مع العسكر ، حتى تباكى الخلق لما رأوا ما بيديه من نشاط لا يناسب أبدا لحيته
البيضاء وشيبته ، كبر العامة وهللوا ، لو رآه مولاه فسيسامحه ، يحرقه الشوق إلى
رؤيته لكنه لا يدرى رد الفعل هكذا أطلقوه وتركوه لا يحددون له مسارا .
يطلب سعيد كوز الحلبة المعتاد ، يطحنها حمزة الآن ، يضيف إليها البندق

المبشور ، ولو طلب الزيتون يحمرها في السمن تصبح افطارا حلوا شهيا الذ من اكل
الفول النابت في مطعم المراغى امام زواية العميان ، العسكر يعبرون الطريق ، شيء
ثقيل يقع في مكان قريب ، لم يبدأ سعيد شرب الحلبة ، صاحب وجه غريب يقترب
منه ، لم يره ابدا ،

« شيخ سعيد ؟ »

« ايوه ، »

« لو سمحت .. معى لحظات .. »

الريح صائب ، ابيدا رحلة من جديد ، ايعدو ؟ إلى أين ؟ إلى أين ؟

« ابدا .. مقدم بصاصى القاهرة يطلبك . ليس المفروض ان اقول لك . لكننى اشفق

عليك ، اعرف رقتك وما يمكن ان يطوف بك .. »

يطل حمزة ..

« لم تشرب الحلبة يا شيخ سعيد ، لم تشرب الحلبة ، لا حول ولا قوة إلا بالله .. »



نداء

يا أهالي مصر

يا أهالي مصر

يا ساكني مصر

الجهاد

الجهاد

الجهاد

« وما النصر الا من عند الله »



زكريا بن راضى

لم يتوقف لحظة واحدة من المقطم الى بركة الرطل ، الحواري مغلقة . الناس يسرعون الى غير هدف ، فى الصباح الباكر ، انطلقت إشاعة فى المدينة كالنار فى العشب الجاف ، أقسم البعض انهم رأوا جيوش ابن عثمان تجيء من ناحية القسطنطينية ، تفاجئ طومانباي من الخلف ، ارتعب الناس ، ارتجفت قلوبهم ، لا أحد يصحب زكريا غير مبروك ، يمشى مجاورا له ، العتمة فى الضوء ، زعيق الجند العابرين يجسدون فى نفس زكريا شيئا خفيا ، يدرك أنه يعايش الآن أحداثا جساما لا تتكرر إلا مرات فى عمر الدنيا ، من قبل يتغير السلطان ، يجيء آخر ، لكنهم أفراد جماعة واحدة ، أما الآن فالجماعة نفسها مهددة ، آخرون غرباء لا يوقفهم أحد ، يرثى لطومانباي ، يعرف أى وضع صعب يلاقيه ، عكارة تشاؤم تأوى الى روح زكريا ، هو الوحيد فى مصر العالم بحقيقة ما سيحدث . لا يستريح إلى وقفة جان بردى الغزالى بجوار طومانباي ، وعنده أدلة وشواهد ، ابن عثمان وباء جاء فى غير ميعاده ، وباء لا علاقة له بانخفاض ماء النيل ، شر مسلط ، عسكره همج ، يعرف زكريا ، أحوالهم بهائم لا نظام لهم ، أسرع الخطى ، يهرب من إدراك نتيجة يراها محدقة ، هذا ماسينا قشبه مع الزينى بعد قليل ، هذا الزينى الذى نفذ الى عمره ، فكره وروحه ، فحول ما حول وابدل ما ابدل ، عندما قبض على الزينى أدركته دهشة بل مسه خوف ، سنوات طويلة يكيد فيها للزينى ، فى زمن هيج عليه مصركلها عند واقعة الفوانيس ، لن ينسيه شيئا أبدا أن الزينى دفع الى بيته بوسيلة الرومية ، الزينى أيضا تسبب فى قتلها ، أن يوارى جسدها البلورى وحشة القبر ، منذ شهور أدرك أن الزينى لم ينشئ نظاما خاصا به يجس الأخبار والأحوال ، لم يتبعه بصاص واحد ، إنما هم رجال المحتسب العاديون ، سنين طويلة وزكريا يجهد نفسه ، يبذل طاقات لا أول لها ولا آخر لكى يعثر على بصاص واحد يتبع الزينى . لم يستطع رجاله ، أيقن من براعة رجال الزينى فى التخفى . عمل لهم ألف حساب وحسابا ، أدرك زكريا أنه خدع خدعة عميقة ، تمنى زكريا لو وجد نظام بصاصين فعلا يتبع الزينى ، والا يدرك أن الأمر كله إشاعة أطلقها الزينى ، بنى نظاما فى الهواء أوجده ولم يوجده ، عانى زكريا مرارة الخديعة أياما لكنه أضمر فى نفسه إعجابا خفيا للزينى ، فعلا أن يوجد زكريا بمفرده فى زمن واحد أمر لا طعم له ، كل منهما مخلوق لصاحبه ، وجود الزينى أفاد زكريا ، حبيه الى قلوب الخلق بعد كره ومقت ، زكريا طور أساليبه وطرقه حتى يواجه مكر الزينى وخداعه ، غير الفائدة المباشرة التى أبادها الزينى فى عديد من المواقف ، أفكاره الصالحة من أجل تطوير أعمال البصاصين ، يبتسم

زكريا . الزينى الذى عرض عليه كل ما قدمه على أسس أنه بعض الطرق المتبعة فى نظامه هو الخاص بمراقبة الخلق ، أى إنسان فى مصر يعلم بوجود جماعتين ، جماعة بصاصين تتبع زكريا وجماعة تتبع الزينى ، هذا كله وهم أشاعه الزينى ، لكن الأوضاع ستجد فيما لو ، لو اجتاحت وباء العثمانلية مصر ؟ هذا ما سيناقشه زكريا مع الزينى ، بيته فى المقطم لا يحوى ورقة ، الآن شهاب الحلبي وديوانه وكل ما يحويه فى المقر السرى للزينى بحلولان ، أيضا الدفاتر والجداول التى أدرج فيها اسم كل مخلوق يدب على بر مصر حتما سيحتاجها فى الأيام القادمة ، زمان عندما أمسكوا على ابن أبى الجود وتولى الزينى الأمر راح يوزع أوراقه ، قتل معشوق السلطان وغلّامه ، حتى الآن لم يصل الى سر العلاقة المكتومة ، مات الغلام ، مات السلطان ، فكم يبدو الزمن بعيدا ، سنوات طويلة فى كل يوم منها يؤكد قراره بالأجهزة على الزينى ، فرص عديدة سنحت له ، عندما أرسل الشيخ أبو السعود وأحضر الزينى وبهدله ، ليلتها عندما بلغه الأمر ، قص شعر رأسه ، لأبد من حزم سريع ، هذا أمر لا هزل فيه ، ها هو الزينى بين يدي رجل صالح تقي كلمته لا ترد عند الأمراء ، الكبير والصغير ، باستطاعة زكريا استنفار أعوانه من كل فج عميق يثير الناس على الزينى ، وينشر الفضائح عليهم ، يمكنه إرسال قوائم طويلة بالأموال التى يكتنزها الزينى ، الدر والحجر البلخش واليواقيت والفيروز واكوام الذهب ، رسالة موجزة تقول لمولانا هذه هى المواضع التى كدس فيها الزينى أمواله ، حيرة اعتصرته ، فى تواريخ طائفة الاسماعيلية قرا مرة ، الفداوى المرسل لقتل عظيم أو كبير تواجهه فى مهمته لحظات ، لحظات يجب الحسم فيها ، ليس ، مهما صحة القرار أو خطؤه ، المهم هو اتخاذ قرار ، ربما اضاع التردد حياة الفداوى نفسه ، المهم اتخاذ القرار فى ذاته ، درس قديم طالعه زكريا ، فى الليلة نفسها قرر ، الزينى يجب ألا يروح هدرا ، أرسل فى طلب ابراهيم بن السكر والليمون ، المعلم ابن كيفه استنفر أذانه وعيونه المنبثة فى أنحاء الأرض ، بذكاء عظيم ، بكافة الطرق عليهم التحدث الى العامة عن عدل الزينى وتقواه وصلاحه ، تذكير العامة بما آتاه لهم ، ثم ينطلقون الى ما فعله الشيخ أبو السعود الجارحى ، صحيح ، الشيخ ولى من أولياء الله وفيه بركة ، ولكن ما للمشايخ وأمور السلطنة ؟ ما للنسك وأمور الدنيا ؟ لو انشغلوا بأمور الدنانير لضلوا سواء السبيل ، وعندما شرع الشيخ أبو السعود فى تجريس الزينى بركات على حماره ، شهره فى الطرقات راكبا بالمقلوب قرر الأمير علان الدوادار الكبير ، شنقه على باب بيت قريبه محتكر الفول فى مصر ، بالفسطاط ، أرسل زكريا مكتوبا عاجلا الى طومانباى يشير فيه الى مل جسيم لدى الزينى ولابد من رد المال الى خزانة السلطنة ، لو شئنا لضاع المال ، والبلاد فى أشد الحاجة اليه ، ثم هناك أمور هامة

تدخل تحت نطاق السرية معلقة معه وموته يعنى التسبب فى اضرار كثيرة تمس
الامراء والعامه والسلطنة ذاتها ، خاصة فى هذه الاوقات العصيبة مع الرسالة نفسها
ارسل خطابا صغيرا يطلب فيه من طومانباي الاقلال من عدد مرات نزوله وظهوره بين
الناس حتى لا تضيق هيبتة من بين العامة ، ولا يتعودوا رؤيته ، يعلم زكريا تماما أن
الزينى يفضل الشنق على إنقاذ زكريا له ، أمثال الزينى يتقبلون ما أقدم عليه زكريا
بانفة ، عندما أعيد الى بيت الشيخ أبو السعود ، ورجعوا فى شنقه ارتاح زكريا ، من
يدرى ؟ ربما يتعرض زكريا لموقف مشابه لن ينقذه إلا الزينى ، زمان مضطرب لا يؤمن
فيه المرء على روحه ولا عياله خاصة من كان وضعه مثل زكريا ، الآن يقترب من بركة
الروطل ، من الطبيعى لم ينزل الى المدينة ، لم يتجول فى أسواقها ، يرسلون اليه
التقارير باستمرار ، حتى من البلاد التى اجتاحتها ابن عثمان ، بعض نوابه راح
شهيدا ، لم يتصور أنه سيرى الخراب هكذا بين الخلق ، الماذن حروف تجمدت فى
الهواء ، ابنه يس وحريمه فى أقصى الصعيد ، يعاوده نفس الاحساس ، يعيش فى
زمان يشهد أحداثا كبيرة يندر وقوعها ، بيت الزينى يبدو أخيرا ، بعد قليل يصغى
اليه ، ثانى لقاء بينهما منذ خروج الزينى ، ياه ، ألم يكن غيبا عندما فكر آلاف المرات
فى الخلاص منه ، ابتسامة خفية على شفقيه ، لكنه أحقا فكر فى هذا ؟ أحقا ؟



نداء

نداء

يا أهالي مصر
ينهي اليكم الخنكار العظيم
فاسمعوا
من خبا عنده مملوكا شفق
من داري على أموال مملوك شفق
فاسمعوا وعوا

نداء

نداء

يا أهالي مصر
يا أهالي مصر
من دل على مكان طومانباي
له ألف دينار
من أحضره حيا أو ميتا
له ألف دينار
من حامى الحرمين ، والبحار
سليم شاه ،
الخنكار العظيم

نداء

نداء

يا أهالي مصر
يا أهالي مصر
من رأى منكم
الشيخ أبا السعود الجارحي
من لمح منكم
درويشا من دراويش
الشيخ أبي السعود
الذين يثيرون الفتنة
ويهاجمون العسكر
ليحضره إلى وطاق جند الخنكار
وله الجزاء العظيم
له الجزاء العظيم

نداء

نداء

يا أهالي مصر
يا أهالي مصر
من أخفى منكم جوارى ونساء الممالك
شنق بغير معاودة

نداء

نداء

يا أهالي مصر
يا أهالي مصر
لا يخرج أحدكم بعد المغيب
لا يرتدى أحد لثاما
ومن ضبط شنق
يا أهالي مصر
يا أهالي مصر
استكينوا
استكينوا
ومن خالف شنق



● إنت منا .. إنت بتاعنا

السراقة السادسة

كوه الجراح

سعيد الجهنى

للغير ضمة لا ينجو منها إنسان . يضغط ضلوع المؤمن والكافر .
يمحو الاول والآخر ، يفرق المثنى ، ويشنت الجمع ، يساوى الظاهر
بالباطن ، تعرف كل نفس ما أنت ، وتتحدث الأعضاء عما ارتكبت ، اى
ذنب جنت ؟ ويعرف سعيد طريقه إلى الوعر ، إلى كوم الجراح ،
ينقبض قلبه ، مستقر النبال والرماح ، لم يخطئه هدف فى ساحة
المعارك والطعان ومنذ رجوعه يود لو رأى مولاه ، لحظة لا قبلها
ولا بعدها ، يسمع لهجته ، يعرف اى الأفكار تدور فى عقل مولاه حوله هو ، شخصه
هو ، اتى الزمان الذى لا يعرف فيه الابن ابيه ، يسال الاخ عن اخيه فينكره حتى
لو جاوره وقوفا ، اتى اليوم الذى ترمى فيه كل ذات حمل حملها ، وترى الناس
سكارى وما هم بسكارى ، فى الهواء خمدة ، اهى القارعة ، وما ادراك ما القارعة ، فى
الهواء زمته ، اهو الدخان الذى يظهر قبل قيام الساعة ؟ الجند الغرباء يفتضون
الإيثار على باب جامع المؤيد ، عند القبة التى انحنى فوقها مرات ومرات ، خلع
حذاءه ، ودخل المسجد العتيد يملأه خشوع .

ما الذى بقى إذن ؟؟ ربما ظهر المسيح الدجال ، ينزل من المقطم . يطلع من حواري
الحسينية ، يخرج على الناس فجأة من الخليج ، من النيل قبل ميعاد الوفاء ، من
جزيرة الروضة ، من الهرم الاكبر ، يركب دابته التى تجس اخبار الدنيا له ، يطول
الليل ، يصحو القوم فلا يلقون إلا ظلاما مستمرا عتيما ، اول خيوط الضوء تدير
العقول ، ها هى الشمس تطلع من الغرب ، ليس قرصا من ذهب ، إنما فطيرة رخوة
سوداء ، ما الذى بقى إذن ؟؟ اظهر ايها السقيانى ، لينفخ فى الصور ، النفخة
الاولى ، والثانية ، والثالثة ، تقبض الأرواح ، ويجيء الخراب ، أربعون الف سنة ،
الوخز فى الصدر ، اى مرض خلفته الأيام ، لكن اى امر يخشاه ، والروح ساحة
خرائب ، البيوت لا تامن ساكنيها ، ما الذى بقى إذن ؟؟

* * *

نعرف يا سعيد انك تتمنى رؤية مولاك ، هذا من حقد طبعنا .. يا سلام يا أخى من
علمنى حرفا صرت له عبداً ، أنت نطقت باسمه مرات أثناء نومك ، يا شعلان .. اى اسم
ردده سعيد فى نومه عندما اوبناه زمنا ؟

« الشيخ أبو السعود .. لم يذكر غيره .. »
« أرايت .. اذهب إليه ، لا تخف ، بالعكس نحن نريدك أن تعود . سيرتك معه
كألزمن الأول تملأ ، نريدك أن تصبح محل ثقته .
لا تخفوه منك ، اذهب إليه ، اترتم على قدميه ، ابك ... ابك فعلا .
سيسألك ، أين غبت عنه بعد عودتك ، قل له منعوني ، لكنني ضربت الآن بمنعهم
عرض الحائط وجنتك ، العن أجدادنا ، استمطر الخراب علينا ، قل ما تريد يا سعيد ..
ما تشاء ، لابد أن تحيي ثقته بك .
أنت ابنه الذي لم ينجب وأنجبه .

دار حول باب الوزير ، مشهد السيدة فاطمة النبوية ، قدماه تقطعان الطريق ، هذه
البيوت لم يرها من زمن ، وهج الآمال ، رغبة الطواف ، الجرى ، الاندفاع ، الحب ،
ملاسة يد حنون ، طعام هنى بعد غروب شتوى عتيق ، أبدا ، لم يطف به شيء من
هذا ، أخيلة قديمة مخوزقة ، ذكريات بالية كحصيرة عتيقة داستها آلاف الأحذية ،
إلى الممرات الطويلة ذهب ، حفر صغيرة بالجدران ، رأى آدميين ، « أتعرف هذا ؟
كان أميراً كبيراً عظيماً جليل الشأن ، له في الحبوس أربعة وثلاثون عاما ، يبول
مكانه ، ياكل مكانه ، نسي اسمه ، فعلا نسي اسمه ، نسي الألفاظ والحروف وحركات
الصوت وسكناته ، حفرة أخرى ضمت سجيناً صبيها ، لا يعرف الضوء . ولا طعمه ،
في عينيه بريق أزرق كعيون القطط في السواد العقيم ، عمره عشرون ، كلها قضاهما
هنا ، ربما بدا خروجه إلى الدنيا كذهابك أنت إلى السجن ، بين حجارة الصخر تذوى
الأعمار ، تفنى ، تغرب ، بين حجارة الصخر ، أو في الحجرات الضيقة النظيفة
المخيفة ، يتمدد صاحبه منصور الآن ، فما الذي بقي إذن ؟

« ما نطلبه منك . ما نريده . الاستفادة من عظاته وحكمه . أن نعرف ثمين القول الذي
يردده . آراءه في الناس . ما ينويه بالنسبة لطومانباي . منذ دخول الخنكار تعرف أن
بقاءه في البيت . لكن هناك مريدين يمضون إليه . من هم ؟ إلى أين يذهبون ؟ هناك
من يزعم بنية الشيخ على الخروج في أثر طومانباي . لكن هل تصدق هذا أنت ؟ هل
يدخل عقلك أن الشيخ أبي السعود ، الشيخ الطيب الصالح ، الورع التقى . يمكنه
حمل سيف وذبح رقبة ؟ أنت أدرى الناس به . إذا كانت هذه نيته فعلا . فهذا تغير
لابد أن نعلمه . لا شيء . لنستفيد منه ونفيد . كيف يتحمل العمر الكبير الحرب
والهجوم ؟ والكر والفر ؟ طبعاً .. لا تخبره عما نريد . أنت بهذا تنقل تعاليمه وحكمه

الى الخلق كلهم عن طريقنا . بقيت مسألة ثانية .

* * *

البيت هادىء مستكين . أحلى العمر قضاء هنا . هنا رتل عمره ترتيلا . غناه عذبا .
يخطو عتبة البيت . بأى عينين يواجهه . بأى المعانى المتبقية فى حدقتى العين .

* * *

نعرف انك قادر على هذا . وإلا فلماذا لجأنا إليك . نحن نطلب معونتك . يا سعيد .
أنت قريب منا . أنت منا . أنت بتاعنا .

* * *

أنت منا .. أنت بتاعنا ..

* * *

« أما المسألة الثانية ، تعال . اقترب .. يا شعلان أخرج .. أخرج لحظات لأن
ما سأقوله سر عظيم لن يسمعه إلا سعيد وحده . »
« طبعا أنت ولا أى مسلم مؤمن يرضى عما فعله ابن عثمان بنا ، من هنا عزم
الزينى بركات ، وبالمناسبة ، فهو يهديك السلام ، ويعتذر لك ، بوده لو رآك ، لكن
عيون العثمانلية تندس حول بيته ، المهم ، عزم الزينى وتوكل على الله ، أن ينشئ
جماعة تعمل فى السر لا فى العلن ، جماعة من الشباب الشديد المجاهد أمثالك ، تقلق
راحة الخنكار ، تهدم أركان الخيانة ، ما نطلبه منك يسير ، أن تقدم إلينا أسماء
الشباب القادر ، الذى لا يتردد بالتضحية بذاته ، بنفسه ، قدم لنا الأسماء ، ونحن
سنعرف طريقنا إليهم ، سنعرف كيف نقنعهم ونضمهم إلى صفوف الجهاد ، اتفهمنى .
يا سعيد : اتفهمنى ؟

طيب كرر على .. ما الذى أطلبه ؟

أهكذا عاد يتطلع حوله ، هنا جثا أمام موله ، هذه الأرض ابتلت بماء غسل فيه
التمر ، هنا لفظ باسمها ، لا حس فى البيت ، السرداب مهدوم ، أين راح موله ؟
ما الذى بقى إذن ؟ أه لو يراه لمحة ، سيقول كل شيء ، يبوح الخفى ، ينثر العطن ،
يفتح جرحه ليشفى لو يراه لمحة ، بعدها تفنى الدنيا ، يعرف أن لفظة ود ، ونظرة
صفاء ستقابله ، يسمع المولى كوابيسه ، يبني ما تقوض ، لم يخطر بباله أبدا أنه
سيأتى إلى هنا يوماً ولا يلقاه ، ما الذى بقى إذن لو رآه لباح بالقديم والجديد ، أه ،
لا فرصة للرجوع ، بعينى عقله يرى موله ، أمازال موله ؟ يراه ساعياً فى الأرياف ،
يستنفر الخلق ، من يدله ، من يهديه إليه ، ذهب موله ، ما الذى بقى إذن ؟

* * *



● رسم : اوجين ديلاكروا - متحف الفنون بامريكا .

السرادق السابع

سعيد الجهمي
آه، أعطوني وهدوا حصوني



● رسم : جين باريولت - متحف اللوفر - باريس .

خارج السرادق

مقتطف من أواخر من مذكرات الرحالة
اللبندقي .

فياسكونتي جانتي ٩٢٣ هـ

فى ترحالى الطويل ، لم أر مدينة مكسورة كما أرى الآن ، بعد انقطاعى غامرت ونزلت إلى الطرقات ، فى الهواء حوم الموت باردا لا يرد ، رجال ابن عثمان ، يدورون فى الطرقات ، يكبسون البيوت ، لا قيمة للجدران . الأبواب ملغاة فى هذا الزمن ، الأمان مفقود ، ولا فائدة من أى توسل أو رجاء ، لا يثق الإنسان أبداً من طلوع النهار عيه ، فى حارة ضيقة رأيت امرأة مذبوحة ، مقلوعة النهدين ، تلفت حولى ، البلاط المضلع والقراب ، فى بيت ناء عاط طفل لم أدر ابن من هو ؟ عند سبيل مياه قرب باب زويلة رأيت بشراً انتزعت حياتهم بطريقة شيطانية ، إدخال سيخ محمى فى الضلوع ، ينفذ حيث يخرج من الجهة المقابلة ، لسان أحدهم مدلى ، سؤال أبله معلق ، لماذا جرى ما جرى ؟

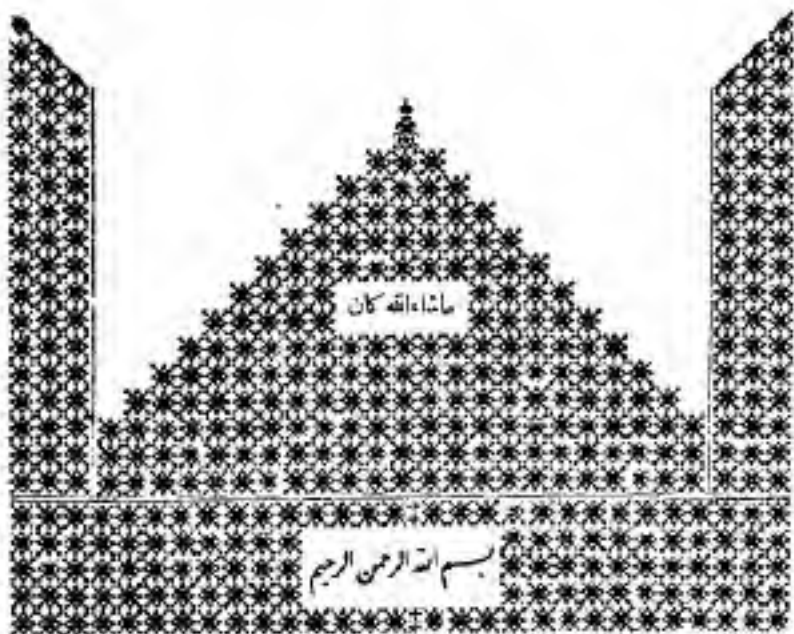
العيون برقوق عطن ، لم يهدأ المنادون طوال الليل والنهار ، اللهات يشتد وراء طومانباى سلطان البلاد المختفى ، خاصة بعد ظهوره المفاجئ فى جامع شيخون ، والتفاف الخلق حوله ، ثم هجومه على ابن عثمان فى بولاق ، سمعت أنه بمجرد ظهوره فى أى مكان يلتف حوله القوم وكأنهم يعرفون ميعاده ، سمعت أن جماعات كبيرة من الدراويش (رجال الدين) انضموا إليه ، راحوا يغيرون على جنود العثمانية ، الذين يتطرفون فى مشيهم إلى حارات نائية ، أو طرقات بعيدة ، يقتلون منهم ما استطاعوا ، أثار هذا الفرع بين الغزاة ، طولبوا بالتزام الحذر . والمشى جماعات ، صباح اليوم طلعت فوق السطح رأيت الأسى شفيفا كثيبا فوق المدينة ، كأن البيوت نفسها أسالت دمعاً ، رأيت وجه صديقى الشيخ محمد أحمد بن إياس قبل دخول العثمانية بيوم واحد ، فى تقاطيعه رقدت نبوءة بالهزيمة المقبلة ، كان منكسراً ، لم أره من ليلتها ، سمعت ممن أثق به أن طومانباى ظهر فى الصعيد .

وانه جمع آلاف العربان المسلحين حوله ، وقيل ان وليا من اولياء الله (قديس)
كان يقيم في القاهرة ، هجر بيته وانطلق إلى الريف يقيد فيه نارا حامية يستنفر
الشعب ، وأخبرني محدثي أن عمر هذا القديس يقدر بمائة عام ، بل ازيد ، وأنه أوتي
شجاعة عظيمة ، وقال محدثي انه شرب من نبع الحياة ، ومن شرب من نبع الحياة
لا يموت أبدا ولا يهزم قط وفعلنا انطلق في اثره مئات من الشبان الصغار ، والرجال
والنساء ومعظمهم لم يشاهده مرة واحدة أثناء إقامته في القاهرة ، وأخبرني محدثي
ان هذا الولي (القديس) يطوى معه بيرقا رهيبا ، يقال له البيرق النبوي ، ومتى
نشره تهب أمة مصر من ادناها إلى اقصاها ، فتضع السيف في رقاب الغزاة ، ولا ترد
حتى تغنيهم ؟ أبديت الشك لمحدثي وسألته ، لماذا لم ينشر هذا البيرق الآن ؟ قال
واثقا إن هذا لا يتم إلا بأمر من عنده ، وأشار إلى السماء ، بكى محدثي وهو شيخ من
مشايخ الأزهر ، قال : جاء في الكتب القديمة : « مصر كنانة الله من ارادها بسوء قصمه
الله » . اليوم فقط نودي في الناس بالأمان قلت لأنزل استقصي الاخبار ، أدركت
مخاطرتي فالغزاة لا أمان لهم يعلنون الأمان وينقضونه وجدت بيت صاحبي الشيخ
ريحان مهتما محروقا ؛ لم يدلني أحد إليه ، سمعت ظهور الرجل الذي تحدثت عنه
كثيرا في رحلتي الثانية ، الزيني بركات ، قال بعض المشايخ انه يحاول لم الشبان
لمجاهدة ابن عثمان لكن احدهم أبدى شكاً في مقصد الزيني ؛ خاصة بعد طلوعه إلى
القلعة مرات عديدة وجلسه مع خاير بك أو قاتا طويلة ، وعلمت أن خاير بك (سبق
ان تحدثت عنه) أبدى رضاه على الزيني ؛ فعندما دخل الغزاة مصر ؛ كان الزيني
في بيته مغضوبا عليه من طومانباي السلطان السابق ، وكان مجردا من كل وظائفه ،
ينوب عنه في أهمها أحد نوابه السابقين شخص اسمه عبد العظيم الصيرفي ، لم
ينقض اليوم إلا وتحقق ما سمعت من اخبار قبيل العصر سمعت المنادي يدق طبلا ،
وقفت منتظرا ، رأيت ثلاثة جياد سوداء يمتطي كل منها فارس يحمل في يده ميزانا
وصنجا وعلما رسم عليه شعار المحتسب ؛ سيفا مسلولا ؛ وخلفهم جواد أبيض ركه
« الزيني بركات بن موسى » ووراءه ركب شخص بدين لم اعرفه ؛ الطريق خال ،
الخراب الخفي ساع في الفراغ ، الدكاكين كلها مغلقة ، حول الموكب الصغير فاحت
رائحة نتن ؛ تطلع مارة قلائل ، اصغوا إلى دقات الطبل هزوا رؤوسهم ؛ لم يتوقفوا
حاذائي الركب ورأيت الزيني يضع لثاما حول وجهه ؛ لا اذكر ملامحه فلم التق به
إلا مرة واحدة ؛ لا بد أن أسعى إليه ؛ صاح المنادي ؛

يا امر خاير بك بتعيين الزينى بركات بن موسى محتسبا للقاهرة ؛ وكل من له شكوى
او مظلمة عليه بالتوجه إليه ، ثم يتوقف المتادى لحظة ويتلو أمراً من الزينى نفسه ،
اصفيت ؛ ينادى موضحا العملة العثمانية الجديدة حلت محل العملة المملوكية
القديمة ؛ تابعت الركب المتجه ناحية باب الفتوح عند المنحنى اختفى ؛ وابتعد
النداء الخافت فى خواء شاحب .

جمال الغيطانى

الجمالية ١٩٧٠ - ١٩٧١



لكل أول وآخر ولكل بداية ونهاية



● رسم : ادوارد لين

الخراب الخفى ساع فى الفراغ .
وما كان أصبح فى حكم العدم .



● رسم هوراس فيرنيه - مجموعة والاس الفنية بلندن

وقيل بظهور جيش ابن عثمان عند
الريدانية فأهتزت القاهرة .



● رسم جيروم - معرض ايسترن إنكاونترز

عندما اجتمع كبار البصاصين في
القاهرة ليتدارسوا ، كيفية تغيير
الانسان .



● رسم : جيروم - مجموعة والاس الفنية بلندن .

هناك يزعم سعيد ، لن يرهب عينا
لن يخشى أذناً تتسمع ، أو تقريراً
يرفع عنه .



● رسم : ادوارد لين

لكل انسان ، مهما علا شأنه ،
أو قل ، أوراق مدوّن فيها كل شيء
عنه .



● رسم : إدوارد لين .

الشيخ أبو السعود الجارحي ،
يمشي عبر الأفئدة ، فوق القلوب .



● رسم : چيروم - مؤسسة كريستى بلندن .

يا أهالى مصر
الجهاد
الجهاد



● أسم : لويجى مايير .

وفيه خرج الناس فى القصف
والفرجة عن الحد .



● رسم : ادوارد لين .

أَلَسْتُمْ عِیُونَ السُّلْطَانِ ، أَلَسْتُمْ
أَذَانَهُ ، إِذَا عَمِیتْ عَیْنٌ ، أَوْ طَرَشَتْ
أُذُنٌ ، كَیْفَ یَعْرِفُ أَحْوََالَ الْخَلْقِ إِذْنٌ ؟



● رسم : دافيد روبرتس .

لا يدري انسان ، أن ثمة خيطا
يشد ويربط كل أرباب المغاني
والمنشدين إلى كبير البصاصين .